



Argentina 2000

0007045



الثورة الفرنسية

آخر كتاب للدكتور لويس عوض



إمارة دبي - المكتبة العامة للكتاب

١٩٩٢

تصديرو

بالرغم من اشتداد وطأة المرض على شقيقى المرحوم الدكتور
لويس عوض فانه تشبث بالقلم حتى النزع الأخير بعزم صادق.
وارادة من حديد . ولا غرو فالقلم كان كل حياته وليس بعضا منها .
والأمر الذى يوجب القلب أن القلم الذى ظل راسخا وشامخا كالطود
طيلة عمره بدأ يهتز فى مقالتيه الأخيرتين عن دانتون وروبسبير .
ويكفى لويس عوض شرفا وفخرا أن أوراق عمره ذبلت ثم تساقطت
ولكن قلمه لم يسقط من يده أبدا بل امتشقه دوما على نحو ما يمتشق
الفارس حسامه . . وأنه استقبل الموت صامتا دون وجل ثابت الجنان
رابط الجأش مثل دانتون الذى قال فى ختام مقاله عنه : « ان الحياة
أصبحت عبثا على ، وأنا أستقبل الموت بصبر نافذ » . فضلا عن أن
آخر ما كتبه قبل أن يصمت الى الأبد (وهى تلك الكلمات التى اختتم
بها مقاله عن روبسبير) ليست سوى دفاع نبيل ومجيد عن ضرورة
سيادة القانون ودعوة رجل يحتضر الأحياء من بعده الى
الاعتصام به .

عاش لويس عوض ثائرا ومات ثائرا فمنذ نحو خمسين عاما
ترجم « برومثيوس طليقا » للشاعر شيلي سيد الثوار جميعا .
وها هو قبل رحيله مباشرة يولي اهتمامه بالثورة الفرنسية التي
ألهمت شيلي وكافة الرومانسيين بأفكارهم الثورية . فما أشبه
الليلة بالبارحة !

لقد حاولت قدر جهدي عن طريق الحذف والاضافة في أضيق
الحدود أن أغير بعض الكلمات الواردة في مقالتيه الأخيرتين عن
دانتون وروبسبير حتى تبدو صياغتهما متماسكة كما عودنا على ذلك
الراحل العظيم . فاذا كانت محاولتي ضلت الطريق أو أنها
لم تؤت ثمارها المرجوة فيجب على أن أتحمّل المسؤولية كاملة .

وختاما لا بد لي أن أعترف أن الفضل في تجميع هذه المقالات
يعود الى ابن عمنا المهندس فوزى حبشى الذى يكنى للفقيه كل
اعجاب وتقدير ، وانى أشكر الزميلة الدكتورة الين ابراهيم جرجس
لمراجعتها الأسمااء الأجنبية الواردة فى هذا الكتاب .

رسميس عوض

١٩٩١/٥/٤

١ - سقوط الباستيل

احتفل الفرنسيون هذا العام « ١٩٨٩ » بمرور مائتي سنة على الثورة الفرنسية « ١٧٨٩ » باحتفالات رسمية ومهرجانات شعبية بلغت قممتها في ١٤ يوليو ، وهو تجديد ذكرى سقوط الباستيل . و ١٤ يوليو قد أصبح منذ أكثر من قرن عيد فرنسا الوطني أو القومي ، ففيه يرقص الفرنسيون مساء في الشوارع والميادين العامة حتى الثالثة صباحا أما الدولة فتجري في باريس استعراضاتها العسكرية سنويا بطول الشانزيلزيه حتى قوس النصر في ميدان الايتوال « شارل ديغول » حيث الشعلة الدائمة على قبر الجندي المجهول .

ومنذ ان عرفت باريس في ١٩٣٧ شاركت ملايين المتفرجين عدة مرات في هذه الاحتفالات ، وفي الليل رقصت في الشوارع

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١٩٨٩/٧/١٥ .

مع الشباب من أبناء جيلى على « الفالس موزيت » المنبعث من آلاف
الأكورديونات فى ميادين باريس وقهاويها . وكانت آخر مرة أشارك
فيها فى هذا الفرح العام فى ١٤ يوليو ١٩٤٧ ، وهو عام زواجى
فى سن الثانية والثلاثين وكأنما خرجت فجأة من سن الشباب الى
سن الرجولة والوقار ! . .

ومع ذلك فقد كنت أحس كلما زرت باريس فى الصيف ان
أفراح ١٤ يوليو كانت تجرى أحيانا فى جو من الكابة والانقباض
بين المواطنين الفرنسيين الذين يحملون دائما عواطفهم على وجوههم ،
بحسب همومهم الاقتصادية والسياسية ، وكأنها ترمومتر حقيقى
لحالة الشعب الفرنسى ، وكانت تجرى أحيانا فى جو من النشوة
والانتصار .

وكنت قبل ثورة ٢٣ يوليو اقرأ سنويا فى الصحف المصرية
عن مشاركة الجاليات الأجنبية فى احتفالات ١٤ يوليو باقامة
الحفلات الراقصة فى نواديهم فى القاهرة والاسكندرية ومنطقة
القنال ، كنوادر الجريج والشوام والأرمن واليهود . وكانت تبدو لى
إبتهاجات مزيفة وغير مفهومة ، فقد كنت أجسد صعوبة فى فهم
إبتهاج اللبناني أو السوري بعيد الحرية فى فرنسا أيام استعمار
فرنسا للبنان وسوريا .

وعلى الجملة فقد كان المصريون قبل الثورة الناصرية يعدون
الأجانب المحليين ، وكانوا نحو ثلاثة أرباع المليون ، من ركائز
الاستعمار الأوروبى فى مصر لأنهم كانوا قابضين على الاقتصاد
المصرى بيد من حديد . ومنذ ثورة ١٩٥٢ وهجرة الأجانب المحليين
الى بلادهم أو الى بلاد الغير انقرضت فى مصر احتفالات ١٤ يوليو
« الشعبية » ولم يبق لها أثر الا فى الاحتفال الرسمى الذى تقيمه
السفارة الفرنسية بالقاهرة سنويا .

وكلما ذكرت الثورة الفرنسية ذكر زوال ذلك الرمز الباقي
فى خيال الأجيال وهو الباستيل ، فسقوط سجن الباستيل أو قلعة
الباستيل فى أيدي ثوار الثورة الفرنسية كان أهم علامة مميزة
لانتصار الثوار وكان البداية الحقيقية لسقوط المجتمع الاقطاعى فى
فرنسا . كذلك ذكرت شعارات الثورة الفرنسية الثلاثة ، وهى
الحرية والمساواة والاخاء، وذكر معا اعلان حقوق الانسان الذى تبلورت
فيه فلسفة الطبقات الاجتماعية الجديدة ، المتوسطة والمتوسطة
الصغيرة والشعبية التى اغتصبت السلطة من أيدي الملكية المطلقة
والطبقة الارستقراطية ورجال الدين ووضعت الحق الطبيعى أساسا
للعقد الاجتماعى بدلا من الحق الالهى .

كذلك ذكرت أسماء عشرات من عمالقة الثوار فى التاريخ مثل
دانتون وروبسبير ومارا وسسان جوست وهيبير وديمولان
وكوندورسييه وأندرية شنييه ومدام رولان وبابيف كلهم ماتوا على
المقصلة فى أقل من خمس سنوات ، وذكر معهم عشرات من جهابذة
الخطابة والسياسة حافظ أكثرهم على أعناقهم رغم أنهم كانوا فى
مقدمة الثوار حتى انجلى الاعصار فماتوا على فراشهم ، مثل ميرابو
وسيز وتاليران وفوشيه .

وأهم من كل هؤلاء ذكر نابوليون بوناپرت صاحب الغزوات
الكاسحة والعسكرية العسكرية الفذة التى لم يعرف لها العالم نظيرا
منذ تحتمس الثالث ورمسيس الثانى والاسكندر الأكبر ويوليوس
قيصر . فهو الذى صدر الثورة الفرنسية الى العالم بعد ان أنقذها
فى فرنسا من الحكام الفاسدين بمثل ما أنقذها الحكام الفاسدون
من الحكام المجانين . وجد نابوليون بوناپرت أبناء الثورة الفرنسية
يأكل بعضهم بعضا ، فوجه هذه الطاقة البركانية الى الخارج ليأكل
الفرنسيون غيرهم من الأمم . فى البداية فعمل هذا تحت رايات
الثورة فلما استتب له الأمر فعل ذلك تحت رايات فرنسا .

وأهم من هذا وذاك انه كلما ذكرت الثورة الفرنسية ذكر
الناس كيف دخل الشوارع الفرنسي طرفا ايجابيا فى تقرير مصيره
لأول مرة فى تاريخه . ومنذ ذلك التاريخ انتقلت العدوى الى كل
ثورات العالم القديم والجديد . ومن يتأمل اليوم اعلام الدول يجد
اكثرها مثلث الألوان على غرار « التريكلور » الفرنسي : الأزرق
والأبيض والأحمر ، رمزا لشعارات الحرية والمساواة والاخاء ، كل
شعب يترجمها الى ألوانه الخاصة بتاريخه ، أو بمفهومه الخاص
لفلسفة الحياة . ولم يكن الشوارع الفرنسي يطالب بالخبز وحده
ولكنه كان يطالب أيضا بحقوق الانسان .



وربما كانت أفضل بداية للكلام عن الثورة الفرنسية هي
الكلام عن الباستيل وسقوط الباستيل .

ومنذ سنوات وهناك عشرات الكتب وعشرات البحوث التي
تصدر عن الباستيل ، وأكثرها تقول نفس الأشياء ، ولكن بلهجات
مختلفة ، تبين موقف المؤرخين من الثورة الفرنسية نفسها .

وقد كان آخر كتاب قرأته عن « الباستيل » بقلم كلود كيتيل
Claude Quétel رئيس الجمعية التاريخية الدولية ، وهو ينطوى
على استهانة واضحة بسقوط الباستيل وايحاء بأن الأسطورة فيه
أكثر من الحقيقة . فهو مثلا يجسم دور الباستيل كمعتقل لمجرمي
القانون العام بما يهون من دوره كمعتقل للخوارج السياسيين .
وهو يمعن فى تذكيرنا بأن الآلاف المؤلفة من الجماهير التي استولت
على الباستيل لم تجد فيه الا سبعة أشخاص نصفهم من المجانين .
وواضح من كل هذه البحوث انها منحازة ضد الثورة الفرنسية
متعاطفة مع الارستقراطية الزائلة . وهناك اتجاه واضح بين أبناء
البورجوازية العليا فى فرنسا وبعض شرائح المثقفين المحافظين فيها

الى اداة الثورة الفرنسية جملة بدعوى غزارة ماسفكت من دماء
وبدعوى كثيرة أخرى .

وقد كان فى فرنسا أيام شبابى حزب ملكى كاريكاتورى كان
يرأسه الكونت دى باريس ، وهو طبعاً كونت مزبور ، لأن فرنسا
ألغيت فيها الألقاب منذ الثورة الفرنسية . ولكن رغم كل هذه
التحفظات اليمينية فالفرنسيون ، حكومة وشعباً ، لا يزالون فى
مجموعهم يمجّدون الثورة الفرنسية كل بحسب الجناح الذى ينتمى
إليه . وقد لاحظت فى العقود الأخيرة اتجاهاً الى اكتشاف روبسبير ،
« بعبع » الثورة الفرنسية ومعه سان جوست ، « كبير ملائكة الموت »
كما سماه المؤرخ العظيم ميشليه . أما نابوليون ذو الحروب الكثيرة ،
فقد كنت دائماً أقرأ فى كتب الماركسيين انه « صفى » الثورة
الفرنسية منذ انقلاب ١٨ برومير واستيلائه على السلطة فى فرنسا .

وقد قرأت للرئيس ميتران مؤخراً بياناً عن حقوق الإنسان
يقول فيه انه يتمنى ان يأتى اليوم الذى تتحطم فيه كل بسماتيسل
العالم كما قال ميشليه . ان التقدميين الفرنسيين لا يزالون قادرين
على الحلم الكبير .



كتب ميشليه فى كتابه العظيم « الثورة الفرنسية » يقول :
« فى ١٣ يوليو لم تكن باريس تحلم الا بالدفاع عن نفسها . وفى
١٤ يوليو انتقلت من الدفاع الى الهجوم . »

« فى مساء ١٣ يوليو كانت سماءها لا تزال ملبدة بالشكوك .
أما فى صباح ١٤ يوليو فلم تعد لديها شكوك . فى المساء كان هناك
اضطراب وهياج غير محدد الاتجاه . أما فى الصباح فكان يشع فيه
صفاء رهيب . »

« مع الصباح استولت على باريس فكرة ، ورأى الجميع نفس الضياء : فى كل نفس ضياء وفى كل قلب صوت يقول : قم ، وسوف تستولى على الباستيل ! »

« كان ذلك شيئاً مستحيلاً ، شيئاً جنونياً شيئاً غريباً ان يقال .. ومع ذلك فقد أمن به كل الناس . وقد تحقق .. »

« كانت الساعة الخامسة والنصف ، وارتفعت صيحة من ميدان الجريف Greve « الساحل » . ضجة كبرى تصاعدت : بدأت أولاً بعيدة ، ثم ارتفعت واقتربت بسرعة ، بقعقة العاصفة . صيحة مدوية تقول : الباستيل سقط !! »

« وفى تلك القاعة ، قاعة الهوتيل دى فيل Hôtel De Ville حيث دار نقيب التجار (التى أصبحت دار بلدية باريس وفيها مكتب جاك شيراك عمدة باريس الآن ل . ع) دخل فجأة ألف رجل ، يتدافع وراءهم عشرة آلاف رجل . وتفسخت أخشاب الأرضية ، وانقلبت الدكك وازيح الحاجز فوق المنصة وازيحت المنصة فوق رئيس الاجتماع . »

« كان كل الرجال مسلحين بأدوات غريبة ، وكان بعضهم يكاد يكون عارياً والبعض الآخر فى ثياب من كل لون . وكانوا يحملون أحد الرجال على الأعناق وقد توجهوا رأسه بالغار . وكان هذا الرجل هو جاكوب ايلي Jacob Elie (وهو صف ضابط قاد الحرس الفرنسى فى الهجوم الأخير على الباستيل ل ع) ومن حول ايلي كانت هناك الأسلاب وكان سجناء الباستيل . وفى مقدمة هذا الحشد ، وسط هذا الضجيج الذى تجاوز هزيم الرعد ، مشى شاب خاشعاً صامتاً وكأنه يصلى ، وقد حمل على سن السونكى رمزا من رموز الكفر ملعونا بالثلاثة ، وكان ذلك لائحة الباستيل . »

« كذلك حملوا معهم المفاتيح ، تلك المفاتيح الفظيعة البشعة الغليظة التي براها استعمال القرون وبرتها آلام البشر . هذه المفاتيح شاءت الصدفة أو العناية الالهية ان تنتهى الى رجل لابد منها طويلا فهو سجين قديم . وقد ضمتها الجمعية الوطنية الى أرشيفها ، فوضعت أدوات الطغاة جنبا الى جنب مع القوانين التي حطمت الطغاة ونحن نحفظ هذه المفاتيح حتى اليوم فى الدولاب الحديدى الذى يحفظ أرشيف فرنسا . آه . ليت هذا الدولاب الحديدى يحفظ مفاتيح كل باستيل فى العالم ! » .

« الثورة الفرنسية » . الكتاب الأول ، الفصل السابع .



كان الباستيل فى الأصل قلعة أو حصنا بنى فى شرق باريس عند باب سانت انطوان Saint-Antoine على مساحة ١٤٥٥٠ مترا مربعا ، أى على مساحة ثلاثة أفدنة واحد عشر قيراطا ، بارتفاع ٣٠ مترا ، وحفر من حوله خندق تجرى فيه المياه عرضه ٢٥ مترا حتى لا يجتازه المهاجمون أو يسيادون دون ذلك . وكان يستحيل الدخول اليه أو الخروج منه الا اذا دليت قنطرة خشبية بعرض الخندق كانت معلقة بسلاسل غلاظ ترفع القنطرة وتنزلها بدواليب تدار من الداخل . وكانت الحامية فيه عددها ٨٠ جنديا يحيط بهم ٣٠ من الحرس السويسرى كلهم تحت امره قومندان القلعة دى لونى De Launay .

أما مهاجمو الباستيل فكانوا اسطوات ضاحية سانت انطوان المتاخمة للقلعة أو السجن . خارج بوابة سانت انطوان ، وكانت حى النجارين والصناعات الخشبية ، ومع هذه الجماهير فصيلتان من الحرس الفرنسى والميليشيا البورجوازية أو ميليشيا المدينة التى

كونها الشوار من أبناء الطبقات المتوسّطة • وكان مع المهاجمين
٣٢٠٠٠ بندقية و ٥ مدافع أخذوها من ثكنات الجيش في الانفاليه
Invalides في صباح ذلك اليوم نفسه • وحين استولت الجماهير
على الباستيل حررت منه سبعة سجناء هم :

— تافرنيه Tavernier وكان شريك داميان Damiens
في محاولة اغتيال لويس الخامس عشر ، وكان مسجوناً منذ ١٧٥٩
أى منذ ثلاثين سنة •

— الكونت ویت دی مالفیل Whyte de Malleville وكان المؤرخ
ميشليه يسميه « سيد الشموخ » •

— الكونت دى سولاج Le comte de Solages المعتقل بسبب
« جرائم بشعة » متصلة بالجنس ومضاجعة المحارم •

— ومع هؤلاء الثلاثة أربعة من النصابين المزورين •

كتب ميشليه يقول :

« يجب ان يقال ان الباستيل لم يسقط ولكنه سلم • سلم
لان ضميره المفعم بالذنوب أقلقه الى حد الجنون وجعله يفقد روحه
المعنوية •

« كان بعض من فيه يؤثرون التسليم ، أما الآخرون ، ولاسيما
الحرس السويسرى ، فقد مضوا فى اطلاق النار على الجماهير على
مدى خمس ساعات وهو آمن ، فقد كان بئامن تام من مرمى المهاجمين •
كان الحرس السويسرى يرتب ويصوب فى أتم ارتياح ، وكان يقتل
من يشاء قتله قتلوا ٨٣ رجلاً وجرحوا ٨٨ • وكان عشرون من القتلى
من فقراء الآباء الذين تركوا وراءهم نساء وأطفالاً ليموتوا جوعاً •

« وافضت هذه الحرب التي لا مجازفة فيها ، كما أفضى الاستياء من سفك الدم الفرنسي بأيدي السويصريين دون أى سبب ، الى أن الجنود الفرنسيين ألقوا السلاح . وفى الساعة الرابعة أهاب صف الضباط بالقومندان دى لونى ، بل استعطفوه ان يوقف هذه المذبحة . وكان دى لونى يدرك موقفه ، فما دام مصيره هو الموت فى كل الأحوال ، فقد بدأ له لحظة أن ينسف الحصن بنفسه . ونهى فكرة همجية . فلو انه فعل ذلك لدمر ثلث باريس . فبراميل البارود التي كانت فى حوزته وعددها ١٣٥ بزميلا ، كانت كافية لنسف الباستيل فى الهواء وسحق ضاحية سانت انطوان كلها ، وكل حى الماريه Marais « المستنقع » ، وكل حى الارسينال « الترسانة » . . . وأخذ فتىلا من مدفع ، فحال دون ارتكاب هذه الجريمة اثنان من صف الضباط : اعترضا طريقه بتقاطع السوولكى فاقفلا طريقه الى البارود . وهنا ادعى الرغبة فى الانتحار فأخذ سكيننا ولكنهما انتزعا منه .

« فقد القومندان صوابه فلم يعد قادرا على اصدار الأوامر ، وحين وجه الحرس الفرنسى فى الخارج مدافعهم الى الباستيل » ادرك كابتن الحرس السويصرى بوضوح ان المفاوضات لامناص منها ، فكتب ورقة مررها للمحاصرين طلب فيها الخروج مع الاحتفاظ بشرف المحاربين ، فرفض طلبه . ثم طلب الإبقاء على حياته فوعده هولان Hullin وايلي Elie بذلك .

« وكانت الصعوبة هى الوفاء بالوعد . . فمن ذا الذى كان يستطيع ان يقمع روح الانتقام التى شحنت بها الجماهير عبر القرون واستفزتها كل هذه المذابح التى قام بها الباستيل فى ذلك اليوم ؟ . . لم يكن فى مقدور هذه السلطة الجديدة التى جاءت من الهوتيل دى فيل فى الجريف « دار بلدية باريس التى كانت من قبل دار نقيب التجار وأصبحت منذ قليل مقر لجنة قيادة الثورة » ،

هذه السلطة الجديدة التي لم تكن تعرفها الا مجموعتان صغيرتان من
الطلائع لم يكن في مقدورها ان تحتوى مائة ألف رجل من
المتظاهرين .

« كانت الجماهير غاضبة وعمياء وسكرانة بالخطر ومع ذلك
فلم تقتل في فناء الباستيل الا رجلا واحدا ، ولم تمس أحدا من
اعدائها السويسريين الذين حسبته من زيهيم من الخدم أو من
المسجونين . بل وجرحت أصدقاءها من جنود الحامية الفرنسيين
واساءت معاملتهم . كانت تتمنى ان تفنى الباستيل ، وحطمت
بالحجارة عقارب الساعة الحديدية ، وصعدت الى قمة الأبراج لتصب
جام غضبها على المدافع المنصوبة . وصب البعض جام غضبهم على
أحجار الحصن فأدموا أيديهم وهم يحسولون اقتلاعها . وبادرت
الجماهير الى الزنازين لتفرج عن المسجونين فأصيب اثنان من هؤلاء
بالجنون : انزعج أحدهما من الضجة انزعاجا شديدا وأراد أن يدافع
عن نفسه ، وذهل حين رأى من كسروا بابه يرتمون فى أحضان
ويبللونه بدموعهم . والآخر الذى كان يحمل لحية تصل الى خصره
سألهم عن صحة لويس الخامس عشر ، فقصد كان يحسبه لا يزال
جالسا على عرش فرنسا . فلما سألوه عن اسمه أجاب بأن اسمه هو:
سيد الشموخ .

« ولم يتوقف المنتصرون عند ذلك . فخاضوا فى شارع سانت
انطوان معركة أخرى . فحين اقتربوا من ميدان الجريفي « الساحل »
واجهوا جماعات أخرى لم تشترك فى القتال ، وعز عليها ذلك فرات
ان تشارك بشيء ما ولو يقتل الأسرى . فقتلوا أحدهم فى شارع
تورنيل وقتلوا آخر على رصيف نهر السين . وتبعته الجمع نسوة
شعورهن محلولة عرفن ان أزواجهن بين من ماتوا فتركوهن باحثات
عن القتلة . وصرخت إحداهن فى الجمع وهى ترغى ان ياتوها
بسكين .

« وسيق القومندان دي لوني يسنده وسط هذا الخطر العظيم
رجلان من الشجعان الأقوياء ، كان احدهما هولان . وفي سانت
انطوان الصغير تجمعت دوامة من البشر انتزعت دي لوني من يد
المرافق الآخر ، اما هولان فتشبث بأسيره ، وكان بحاجة الى قوة
هرقل ليصل بأسيره حتى الجريف الذي كان على بعد خطوات منه .
لم يعرف ماذا يفعل ، ولكنه لاحظ ان الناس لم تكن تعرف دي لوني
الا لانه كان عارى الرأس فخطرت له فكرة شجاعة ، وهي ان يخلع
قبعته ويلبسه اياها ، وما ان فعل ذلك حتى اخذ يتلقى كل الشرابات
الموجهة الى دي لوني . وأخيرا وصل الى بواكى سان جان . ولو انه
استطاع ان يجعله يصعد الدرج ويدفعه الى السلم لأمكنه انقاذه .
ولكن الجماهير تبينته بوضوح فاشتد ضغطها المجنون . وهنا لم تعد
القوة الجسمانية الهائلة التى كان يستخدمها هذا العملاق هولان
تجدي شيئا . وفي دوامة الكتلة البشرية التى التفت حوله وهسرت
كالأفعوان فقد هولان توازنه ودفع يمنة ويسرة وسقط على الأرض
الحجرية . ونهض مرتين . وفى المرة الثانية رأى رأس دي لوني
معلقاً فى طرف حربة . »

٣ - الباستيل

والآن نبذة عن تاريخ السجن :

كان اسمه الأصلي « الباستيد » La Bastide وليس « الباستيل » بمعنى « الحصن » . وقد بدأ التفكير جدياً في بنائه مكان السور عند باب سبانت انطوان لحماية باريس من الشرق وحماية باب سسان دنيس Saint Denis وسان مارتان Saint-Martin بعد هزيمة بواتييه Poitiers واسر الملك جيان الطيب Jean Le Bon عام ١٣٥٦ .

وكان الملك بحاجة الى اموال لبناء هذا الحصن ، فانتقض على ذلك نقيب التجار ، واسمه اتيين مارسيل Etienne Marcel وكان أغنى رجل في باريس ،

● نشرت بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/٧/٢٢ .

الثورة الفرنسية - ١٧

مما جعل بعض المؤرخين يصفون هذا الرجل بأنه أب من آباء الديمقراطية لوقوفه في وجه الملك .

ولكن دوافع هذا الرجل كانت شخصية بحتة ، فقد كان يجهز لاستيلاء شارل الشرير Charles Le Mauvais على العرش والتوطيد لنفوذ الانجليز . وقد اغتيل اتين مارسيل في هذه المحاولة عام ١٣٥٨ عند باب سانت انطوان ، حيث أقيمت قلعة الباستيل بعد ذلك بأمر من ولي العهد الذي أصبح فيما بعد الامبراطور شرلكان (شارل الخامس) . وقد وضع عمدة باريس حجر الأساس للباستيل في ١٣٧٠ . وهكذا بنى الباستيل ابتداء من ١٣٧٨ من ثمانية أبراج بارتفاع ٢٤ مترا وبسمك ٣ أمتار عند القاعدة ومتر ٨٠ سم عند القمة ، واستغرق البناء ١٢ سنة ، مات شرلكان في ١٣٨٠ قبل ان يتم البناء في ١٣٩٠ .

فالأصل في الباستيل اذن انه كان حصنا للدفاع عن باريس من الشرق . وكان له قومندان يدعى « كابتن الباستيل » ومعه أقل من ٢٠ من الحراس المسلحين . وكان مخزنا للبارود والمدافع والأسلحة البيضاء . وفي جرد ١٥٠٤ كان في مخازن الباستيل ٣٦٠٠ بلطة صالحة للاستعمال و ١٠٦٠ بلطة غير صالحة للاستعمال ، وعدد رهيب من السلاسل لسد شوارع باريس ، وفي السابع عشر كان فيه عدد رهيب من الأعلام . ومنذ البداية كان للباستيل باب جانبي يستخدمه الملك للدخول والخروج سرا من باريس ، وقد اعترضت بلدية باريس على وجود هذا الباب وحاولت الغاءه ، ولكنها عجزت عن ذلك .

وفي العصور الوسطى كان شيئا مألوفا قبل توحيد فرنسا ان يتحالف بعض أمراء الاقطاع مع بعض الملوك أو الأمراء الأجانب ضد ملوك فرنسا أو أمرائها . ومن أشهر هذه التحالفات تحالف ولاية

بورجونيا مع الانجليز . وقد احتل البرجنديون والانجليز الباستيل ، وكان قومندان الباستيل انجليزيا لمدة ١٦ سنة بعد احتلالهم باريس ابتداء من ١٤١٨ حتى أجلوا عن الباستيل في ١٤٣٦ . (والبرجنديون كما هو معروف هم الذين سلموا جان دارك بعد ذلك للانجليز فحاكموها وأحرقوها بتهمة انها ساحرة) .

ولم يكن الباستيل مخزنا للسلاح والذخيرة فقط ، بل كان أيضا من القرن الخامس عشر حتى عهد لويس الرابع عشر مخزنا لجواهر التاج وكنوزه ومقرا لخزانة الدولة . ومما يذكر ان هنري الرابع ملك فرنسا أودع في الباستيل عام ١٦٠٠ مبلغ ١٣ مليون جنيه ذهباً استعدادا لحربه مع أسبانيا .

والصورة التقليدية عن الباستيل حتى قبل سقوطه في يد الثوار انه لم يكن حصنا للدفاع بقدر ما كان قلعة للطغيان وسجنا جهنميا للتعذيب . ومع ذلك فقد ظهر بين المؤرخين أمثال فونك برينتانو Funck-Brentano من صوره على انه كان سجنا وقصرا لا تعذيب فيه ولا اغتيال ، وهذا طبعا مناقض للصورة التقليدية عن الباستيل وعن وجهة النظر الرسمية في فرنسا منذ ١٨٨٠ ، عام اعلان ١٤ يوليو عيداً قومياً للحرية في فرنسا .

ولم يعتبر الباستيل قصرا الا في عهد لويس الرابع عشر حين أصدر هذا الملك في ١٦٦٧ أمراً ملكياً لقومندان الباستيل باعتبار الباستيل أحد القصور الملكية وأمره بموجب هذا ان يطلق المدافع ابتهاجا بمولد ابنته . وفي عهد لويس الخامس عشر كان الباستيل يطلق المدافع تحية للملك عند دخوله وخروجه من باريس .

وفي عهد لويس السادس عشر امتدت التحية لموكب الكونت دارتوا ، أخى الملك ولفرقة المسرحية ، وهى الكوميدي فرانسيز .

وبحسب أرشيف مكتبة الارسينال (الترسانة) بلغ مجموع
السجناء فى الباستيل منذ بنائه نحو ١٤٠٠ حتى سقوطه فى
١٤ يوليو ١٧٨٩ نحو ٦٠٠٠ سجين ، منهم ٨٠٠ سجين بين
١٤٠٠ و ١٦٥٩ وهى بداية عهد لويس الرابع عشر ، و ٥٢٧٩ سجين
بين ١٦٥٩ ويوم سقوطه فى ١٧٨٩ .

وكان أول سجناء مدنيين احتجزوا فى الباستيل عام ١٤٢٣ .
اثنان من السحرة جىء بهما ليشفيا الملك من جنونه ولكنهما فشلا .
وفى ١٤٢٨ كانت باريس وفرنسا كلها شمال نهر اللوار أيام شارل
السابع خاضعة لهنرى السادس ملك انجلترا ووثائق الفترة تقول
انه كان فى الباستيل ١٧ سجيناً منهم ٤ من الانجليز وثلاثة من
الفرسان وثلاثة من السياس من بريتانى وراهبان وقسيس واثنان
من صانعى النسيج و غلام سنه ١٣ سنه .

ومنذ البداية تقريباً تحول الباستيل من حصن عسكرى الى
سجن لاعداء الملك ولتأديب النبلاء الذين ينحرف سلوكهم فى
البلاط .

وبعد مائة سنة من الهدوء النسبى اتبع الامر ليشمل سجناء
العقيدة الدينية مثل البروتستانت واتباع الجانسنية ثم الجزويت
ودخلت الباستيل قلة من متهمى القانون العام .

ولم يكن الباستيل هو السجن الوحيد فى باريس ، فقد كان
فيها سجن فانسين Vincennes وسجن مون سنان ميشيل
Mont Saint Michel وقصر دانجيه D'angers ، ولكن
الباستيل تميز بأهمية ضيوفه او بشهرة الجرائم التى ارتكبوها .

وقد كان من اعلام السجناء : البرنس كونديه Prince Condé
وفوكيه Fouquet وزير مالية لويس الرابع عشر ، والمفكر

الكبير لاروشفوكو La Rochefoucauld ، والمرشال ريشليو Richelieu ابن الكاردينال الأشهر ، وذو القنصاع الحديدي ، وفولتير ، وداميان الذي حاول اغتيال لويس الخامس عشر ، والقائد ديمورين ، Dumouriez بطل معركة فالمي Valmy فيما بعد ، والماركيز دي صاد Marquis De Sade ، والساحر الشهير كاليوسترو Cagliostro ، والكاردينال دي روهان Cardinal De Rohan يطل فضيحة جواهر الملكة ماري انطوانيت ، أما أشهر الجرائم فكانت قضية السموم أيام لويس الرابع عشر وقضية جواهر الملكة أيام لويس السادس عشر .

وكان لويس الحادي عشر أول موحد فرنسا . وأول من استعمل الباستيل سجنًا للدولة وخصصه للمسجونين السياسيين المتأمرين عليه لقلب نظام الحكم ولا سيما في صراعه مع شارل الجسور والبرجنديين وقد أضاف لويس الحادي عشر إلى الباستيل « أقفاصا » من قضبان الحديد لا تسمح بالوقوف داخلها . وكان أول من ابتكرها له أسقف فردان الذي زود هذه الأقفاص بسلاسل غليظة تنتهي بكرات حديدية ثقيلة تقيد حركة القدمين . وسجن الأسقف نفسه فيها ١٤ سنة لأنه تأمر على الملك ثم أفرج عنه .

كذلك سجن لويس الحادي عشر الكونت لويس دي لوكسمبورج عام ١٤٧٥ وجاك أرمنياك Armagnac دوق نهور Duc De Nemours حاكم باريس عام ١٤٧٧ ، وبقي كل منهما في الباستيل عدة أسابيع فقط ريثما يحاكمه البرلمان بتهمة التآمر على الملك ثم خرج لتنفيذ حكم الإعدام فيه علنا في ميدان السوق (الهال Les Halles) ومنذ عهد لويس الحادي عشر كانت هناك في الباستيل غرف خاصة بالتعذيب ، لا لاستخلاص الاعترافات ولكن للتحضير للموت .

ومنذ ان تحول الباستيل من قلعة الى سجن كان سجننا « ملاكى » تابعا للمالك مباشرة ينفق عليه من أمواله الخاصة ، ويجرى فيه كل شيء بعيدا عن رقابة القانون العام . ولم تكن تجرى فيه الاعدامات ، وانما كان محطة للتحقيق والمحاكمة السياسية عن طريق برلمان باريس ثم التوزيع أما على السجنون الأخرى مثل سجن فانسين وسجن مون سان ميشيل أو أحد سجون فرنسا الأربعمئة ، وفى بعض الأحوال النفى أو الاعتقال مدى الحياة فى الأديرة أيضا على نفقة الملك ، وأما الاعدام فيتم فى ميدان الجريف أمام بلدية باريس . وكان الاعدام يتم عادة بقطع الرأس ببلطة العشماوى للنبلاء .

وهذا لم يمنع طبعا من احتجاز بعض الشخصيات فى الباستيل بأمر الملك مدى الحياة أو لسنوات مديدة . وفى بعض الأحوال كان الاعدام يتم بتفسيخ جسد المحكوم عليه أربعا فى ميدان الجريف كما حدث فى حالة الراهب جاك كليمان Jacques Clement قاتل الملك هنرى الثالث عام ١٥٨٩ ورافايك Ravillac قاتل الملك هنرى الرابع فى ١٦١٠ وداميان Damiens الذى حاول قتل لويس الخامس عشر فى ١٧٥٧ .

ولعل أهم تطور فى تاريخ الباستيل والسجون الفرنسية جاء فى أيام لويس الرابع عشر منذ توليه فى ١٦٥٦ ، فقد كان أكثر المعتقلين بالأمر الملكى من النبلاء والقواد المتأمرين على الملوك . كان الأمر كذلك فى عهد كاترين دي مدسيس ومارى دي مدسيس ، وفى عهد الكاردينال ريشيليو Richelieu والكاردينال مازاران Mazarin . فلما تولى لويس الرابع عشر انشأ منصبا جديدا هو منصب حاكم دار بوليس باريس كانت مهمته حفظ الأمن وتنظيم التموين وحماية الطرق ومكافحة الحرائق والفيضانات والنجدة ووضع لوائح الصناعات والأماكن العامة والمطابع والمكتبات .

وكانت أوامر الاعتقال الملكية تسمى « الخطابات المختومة »
Lettres de Cachet التي يوقعها الملك شخصيا قليلة العدد حتى
بداية حكم لويس الرابع عشر ثم تدفقت كالطوفان في بداية عهده .

وكان أول حاكم دار المبوليس هو لارينى La Reynie
الذي شغل منصبه ثلاثين عاما . وخلفه المركيز ارجنسون
Argenson وقد وصف سان سيمون في مذكراته صاحب هذا
المنصب بأنه وزير سرى شبيه برئيس محكمة التفتيش .

وقد كتب ارجنسون في ١٧٠١ ان يد العدالة بطيئة والمناظر
العام غير كاف لردع المجرمين ، وكان الحل عنده هو خطابات
الكاشيه أى أوامر الاعتقال المختومة الممهورة مباشرة من الملك .
فتوسع ارجنسون في هذه الخطابات المختومة وارسلها الى كل مكان
في فرنسا ، وكان نصيب الباستيل منها نصيب الأسد . وكانت
باريس في أول عهد لويس الرابع عشر مباءة للقتلة والسفاحين
وقطاع الطرق وحين مات ارجنسون رثاه فونتينييل F'ontonelle
امام أكاديمية العلوم بأنه ظهر باريس من الشحاذين والمجرمين
والمصوص والبغايا والقوادين واستعمل الاديرة والمستشفيات لسجن
البغايا والعجزة والمجانين : شارنتون وسان لازار للرجال ، والمادلين
وسانت بيلاجيا للنساء ، وما يماثلها مثل قصر ايف Chateau d'If
امام مرسيليا ، وهو الذى تدور فيه حوادث الكونت دى مونت
كريستو كما نقرأ في رواية اسكندر دumas الشهيرة .

وابتداء من ١٦٥٩ بدأ الباستيل يحفظ سجلات منتظمة
لسجنائه ، ومنها نعرف ان سجنائه بين ١٦٥٨ وسقوطه في ١٤ يوليو
١٧٨٩ بلغ ٥٢٧٩ سجيناً منهم ٢٣٢٠ أيام لويس الرابع عشر
(٢٠١٦ ذكورا و٢٢٦ اناثا) ، ومنهم ١٤٥٩ أيام وصاية الكاردينال

دى فايرى De Fleury (١٢٣٣ ذكورا و ٢٢٦ اناثا) ، ومنهم ١١٩٤ سجيناً فى عهد لويس الخامس عشر (١٠١٩ ذكورا و ١٧٥ اناثا) ومنهم ٣٠٦ سجناء فى عهد لويس السادس عشر (٢٧٤ ذكور ٣٢ اناث) ولم يكن تدرج عدد السجناء فى الانخفاض بسبب انخفاض عدد خطابات الكاشيه ، ولكن نفقات الباستيل الباهظة جعلت الدولة تفضل ارسال المعتقلين الى سجون أخرى .

أما نوعية سجناء الباستيل فقد كان منهم ٤٠٠ من رجال الدين ونحو ١٠٠٠ من النبلاء ونحو ٤٠٠٠ من المواطنين العاديين من البورجوازية العليا الى طبقة الاسطوانات - أما نوعية التهم فقد كان منها ٧٠٪ لأسباب سياسية ودينية و ٣٠٪ لجرائم القانون العام . ومن الجرائم المحددة كانت هناك ٢١٪ جرائم سياسية ، و ٢٢٪ مما يسمى جرائم الفكر وتشمل الكتابة والطبع والنشر ونحو ١٤٪ جرائم (!) العقيدة الدينية . وهناك نسبة ١٥٪ من المسجونين بغير تهم محددة أو كتب أمام اسمائهم جرائم ضد الدولة ، مما نشر الاعتقاد بأن هناك عددا من الأبرياء كانوا ضيوقا فى الباستيل . وكان يكفى للقبض عليك ان تقول كلاما لاذغا عن مدام دى مانتنون **Madame De Maintenon** محظية لويس الرابع عشر أو عن مدام دى بومبادور **Madame De Pompadour** محظية لويس الخامس عشر .

كان الملك هنرى الرابع قد أصدر مرسوم نانت **Edit De Nantes** الذى أباح حرية العقيدة الدينية للبروتستانت ، ولكن لويس الرابع عشر عاد الى سياسة اضطهاد البروتستانت فأصدر فى ١٦٨٥ مرسوم فونتنبلو **Edit De Fontainebleau** الذى استنكر فيه مرسوم نانت . وكان البروتستانت قبل ذلك يقرن بسجون حتى الموت . ومنذ مرسوم فونتنبلو كان يطلب من البروتستانت التبرؤ من عقيدتهم .

الدينية والاسيخونوا وفي ١٧٨٦ اعتقل منهم ٣٠٠ . منهم ١٠٠ في
الباستييل والباقون في سجون أخرى . وكان البوليس يفتش عربات
السفر ولا سيما لهولندا وبلجيكا ، كما كان يكتشف جوازات سفر
مرورة وبنات متخفيات في زى أولاد . وفي الباستييل وسواه كان
يجرى تحقيق دقيق ، وكانت الدولة ترسل راهبا جزويتيا ليحفظ
البروتستانت ويطالبهم باعتناق الكاثوليكية ، وكان الافراج رهينا
بالتحول . وبعد الافراج كان البروتستانت يراقبون . فمن اكتشف
ثباته على عقيدته اعيد الى السجن وكان أكثر من سجنوا بسبب
محاولة الهجرة المحرمة حيث بلغ عدد المهاجرين ٢٠٠٠٠ شخص .
وكان بين المسيحيين نبلاء صغار وتجار وأطباء .

كذلك دخل الباستييل وغيره من السجون اتباع مذهب جانسن
Jansenisme (نحو ٤٠٠ في الباستييل خلال قرن منذ
١٦٥٧) ، وهو دعوة للمساواة بين القساوسة اساسها انه لا رتب
في الدين وانه لا عصمة للبابا وبالطبع اغضب هذا الاساقفة والكرادلة
فصدر في ١٦٥٧ منشور باحترام النظام الكنسى يوقعه كل من يدخل
سلك الكهنوت . وكان مركز هذه الحركة الديمقراطية في الدين دير
بوررويال Port-Royal وابل بباريس وفي ١٧٠٧ اقتحم ارجنتون
دير الراهبات في بوررويال وهدمه فلم يبق فيه حبرا على حجر
وشحن الراهبات كقطع من البغايا الى الدير الأخرى . وأُخلى مقابر
الدير من الموتى . وفي ١٧١٣ حرم البابا الجانسنية رسميا . وفي
وصاية الكاردينال فلورى Fleury بلغ عدد المعتقلين من اتباع
الجانسنية ٢٤٢ راهبا . وفي ١٧٣٦ بلغ نصف المعتقلين من
الجانسنيين ، واصبحوا مركز مقاومة كل اعداء الحكم .

وكان منهم راهب صالح بسيط مات في ١٧٢٧ ولشدة انواه
شاع عنه انه كان يأتى بالمعجزات ، واصبح قبره مزارا للطبقات

الشعبية . وفى ١٧٣٢ اغلقت جبانته بأمر الملك لويس الخامس عشر . وقرأ الناس على قبره لافتة كتبها اعداء الملك تقول :

« بأمر الملك ، ممنوع على الله ان يأتى بالمعجزات فى هذه الناحية » .

لا شك على سبيل السخرية من الملك .

ثم دارت الدوائر على الجزويت الذين كانوا يطاردون اتباع الجانسنية . وكان الجزويت يدعون لسلطة البابا المطلقة بما تهدد سيادة الدولة . وفى ١٧٦٢ انتهى هذا الصراع بحظر الجزويتية فى فرنسا وبطرد الجزويت منها .

ومن الجانسنية خرجت حركة « المرتعشين » أو « المتشنجين » وهى شبيهة بحركة « الكويكرز » Quakers فى انجلترا . وقد رأى لويس الرابع عشر خطرهم فى ١٦٦٢ حين قال عن ثلاثة منهم كانوا معتقلين فى الباستيل ان هؤلاء المرتعشين خطرون ويمكن ان يقتلوا أو يرتكبوا الجرائم باسم عقيدتهم مضحين بحياتهم من أجل « الصالح العام » .

كذلك مر الماسون من الباستيل الى سجون فرنسا الأخرى لانهم كانوا يدعون الى العقلانية واللا دينية . وقد تأسس أول محفل لهم فى فرنسا عام ١٧٢٥ وكان محظورا .

وفى السجلات ان الباستيل وحده عرف ٩٤٦ سجيناً من سجناء المطبوعات (ويدخل فيهم المؤلفون ومحررو النشرات أو الجازقات السياسية والطابعون والكتبية) ، ومن هؤلاء ربعهم سجنوا أيام لويس الرابع عشر وثلاثة أرباعهم حتى سقوط الباستيل فى ١٧٨٩ .

وكان من أشهر الادباء والمفكرين الذين دخلوا الباستيل فولتير
Voltaire « مرتين » ودالمبير D'Alembert ، والأب يريفو L'abbé
Prevost ، وفونتنيل Fontenelle ومونتسكيو Montesquieu
ومارومونتيل Marmontel وهليفتيوس Helvetius وكان من
أهم الكتب المصادرة كتاب «رسائل من الريف Lettres Provinciales
للفيلسوف باسكال Pascal وقد صدر عام ١٧٧٢ ،
وكتاب « رسائل فلسفية Lettres Philosophiques لفولتير ، وقد
أحرق عام ١٧٣٤ بقرار من البرلمان ، وصودرت في ١٧٧٠ بموجب
الخطابات المختومة (الكاشية) المجلدات الثلاثة الأولى من «الموسوعة»
الشهيرة (الانسكلوبيا) التي وضعها اقطاب حركة التنوير . وفي ١٧٧٥
أحرق كتاب « فلسفة الطبيعة Philosophie De La nature
في ميدان الجريف وكانت المطابع والمطبوعات المصادرة تكس في
الباستيل حتى اضطروا أن يبنوا لها جناحا خاصا .

وعندما أفرج عن فولتير في ١٧١٨ بعد سجنه في المرة الأولى
في الباستيل لمدة أحد عشر شهرا ، حددت اقامته عند أبيه في منزله
الريفى ، فكتب للوصى على العرش يقول مداعبا : « انى أشكر لك
يا صاحب السمو الملكى رغبتك فى ان تتكفل بماكلى ، ولكنى أرجوك
الا تتكفل بمسكنى » .

ولعل أهم تطور جرى على الباستيل وغيره من سجون فرنسا
المخمسمائة كان ان أوامر الاعتقال الملكية المعروفة بالخطابات المختومة
أو « خطابات الكاشية » ظلت حتى ١٧٠٠ تكتب بخط اليد ويوقعها

الملك شخصيا ، اما لأهمية المقبوض عليهم وأما لأنها خارج مرسوم القانون .

أما بعد ١٧٠٠ فقد صارت لكثرتها تطبخ وفيها مكان الاسم « على بياض » وكان ذلك في أواخر عهد لويس الرابع عشر .

ومن المؤرخين من يستبعد أن يكون الملك هو الذي كان يوقع على مئات الآلاف من أوامر الاعتقال الملكية التي وزعت على خمسمائة سجن في جميع أنحاء فرنسا . وهم يرجحون أن وزراء القصر أو حكماء البوليس هم الذين كانوا يختمون أو يخلدون توقيع الملك بتفويض منه أو بغير تفويض في عهد وصاية الكاردينال دي فليري . وفي عهد لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر .

وقد كان هذا التوسع الرهيب في أوامر الاعتقال هذه من أهم أسباب نشوب الثورة الفرنسية وتركيز السخط العام على الزمر الأعظم لهذه السجون أو المعتقلات وهو حصن الباستيل .

٣ - مجلس الطبقات

كان لفرنسا منذ العصور الوسطى برلمان أو - على الأصح - برلمانات ، لأن فرنسا كانت أيام النظام الاقطاعى مكونة من اقطاعيات مستقلة أو شبه مستقلة ، ولكن منذ توحيدها أصبح لها برلمان واحد مقره فى فرساي على بعد أميال قليلة من باريس حيث قصر فرساي الذى كان قد شنيهه لويس الرابع عشر ، « الملك الشمس » ، كما كانوا يسمونه .

ومنذ ١٧٨٦ كان الاضطراب المالى قد بلغ حدا جعل من اللازم على الملك لسويس السادس عشر ان يعجرى انتخابات جديدة لانتخاب برلمان جديد يشرع لضرائب جديدة تنقذ فرنسا من الفوضى المالية والاقتصادية ،

● نيسون بيكرينج الأهرام

بتاريخ ١٩٨٩/٧/٢٩ .

فأجريت الانتخابات فى إبريل ١٧٨٩ واجتمع البرلمان فى فرساي
فى ٤ مايو ١٧٨٩ .

وكان البرلمان طبقيا أى مكونا من ممثلين عن ثلاث طبقات
عدددهم الاجمالى ١١٥٤ نائبا :

منهم ٢٩١ نائبا عن طبقة رجال الدين ، وكان بعض هؤلاء من
دعاة الاصلاح مثل الأب جريجور l'abbé grégoire وتاليران Talleyrand
وكان بعضهم من انصار النظام القائم « الملكية المطلقة » مثل الأب
مورى l'abbé Maury ومونتسكيو Montesquieu

وكان هناك ٢٨٥ نائبا يمثلون طبقة النبلاء . وكان بعض
هؤلاء يناصر الأفكار الجديدة مثل لافاييت La Fayette والكونت
دى نواى Le Comte De Noailles ودوق اجويون Duc d'aiguillon
ولكن أغلبيتهم كانوا متمسكين بامتيازاتهم الطبقية .

أما ممثلو الطبقة الثالثة فكانوا ٥٧٨ نائبا كان بينهم نواب
افذاذ مثل ميرابو Mirabeau وروبسبير Robspierre وسيز Sicyès
وفولنى Volney وبالى Bailly . الخ .

وفى يوم الافتتاح « ٤ مايو ١٧٨٩ » استمع النواب الألف
والمائتان والملك والملكة ورجال البلاط الى القداس فى كنيسة نوتردام
ثم خرج موكبهم واخترق كل باريس حتى بلغ ضاحية فرساي .
وخرجت باريس كلها الى جوانب الطرقات لتحييتهم واكتظت الشرفات
بالرجال والنساء وكان يملأ الصدور أمل عظيم .

وقال ميشليه : « وعلى رأس الموكب ظهرت أولا كتلة من الرجال ،
كلهم فى ملابس سوداء ، وكان هؤلاء هم نواب الطبقة الثالثة وعددهم

خمسمائة وخمسون وكان بين هذا العدد أكثر من ثلثمائة من رجال القانون : محامين أو قضاة ، وكانهم يمثلون تمثيلا صادقا مجيء حكم القانون . كان ملبسهم متواضعا ، وكان خطوهم ثابتا ونظراتهم ثابتة . وكانوا يسرون معا سعداء بهذا اليوم العظيم الذى انتصروا فيه ، يسرون معا دون تفرقة بين أحزابهم .

أما المجموعة الصغيرة المتألقة من نواب النبلاء فجاءت بعدهم وعلى قبعاتهم الرياش وفى ثيابهم الدنثيللا وعليها الذهب الموشى . وفجأة اختفى التصفيق الذى ارتفع لتحية الطبقة الثالثة . ومع ذلك فقد كان بين هؤلاء النبلاء نحو أربعين نبيلًا لا يقلون حماسا للشعب عن نواب الطبقة الثالثة .

ورأى نفس الصمت عندما مرت طبقة رجال الدين . ورأى الناس بالترتيب الآتى جماعة من النبلاء تليهم الطبقة الثالثة ، وبعدهم نحو ثلاثين أسقفا يرتدون قنسواتهم وارديتهم البنفسجية ، وبعده هؤلاء بمسافة تشغلها جوقة من المرتلين يأتى الرهط المتواضع من القساوسة المائتين فى مسوحهم السوداء .

ولم يكن فى مجموعة النبلاء التى تجسد فيها المجد العسكرى ، قائد واحد مشهور . بل كان قوامها كل المغمورين من اعظم النكرات، الذين كان يتألف منهم اقطاعيو فرنسا . وربما كان هناك استثناء واحد من ذلك هو لافابيت الشاب الذهبى الشعر الذى خالف البلاط . وكان أول من اشترك فى حرب الاستقلال الأمريكية . ولم يكن أحد يتخيل الدور الكبير الذى هياه له القدر فى الثورة .

وكانت الطبقة الثالثة تحمل ملامح المؤتمر الوطنى ولكن من ذا الذى كان يتهيئها ؟ من ذا الذى كان يستطيع أن يميز وسط

هذا الحشد المغمور من المحامين شخص رويسبير الخطير ، ذلك
المحامى من أراس ؟

وكان هناك شيثان ملحوظات : غياب سيز وحضور ميرابو ،
(تأخر انتخاب سيز وكان ميرابو هاربا من طبقة النبلاء . ل . ع .)
« الثورة الفرنسية » الكتاب الأول ، الفصل الثانى .

وفى اجتماع ٦ مايو ١٧٨٩ قرر نواب « الطبقة الثالثة » أن
يكون اسمهم الجديد « جمعية العموم » أو « مجلس العموم »
Commune اسوة بمجلس العموم البريطانى ، بدلا من
« الطبقة الثالثة » . ولكنهم عادوا فى اجتماع ١٧ يونيو ١٧٨٩
ورفضوا مبدأ الفصل بين طبقات المجتمع واصلوا أن اسم البرلمان
الجديد ليس « مجلس الطبقات Etats Généraux ولكن « الجمعية
الوطنية » Assemblée Nationale « أى ما كنا نسميه مجلس الأمة »
ووافق أكثر رجال الدين من القساوسة الفقراء على الانضمام الى
ممثلى الشعب أما طبقة النبلاء فكانت تضغط على الملك ليمنع إزالة
الحواجز بين الطبقات الثلاث .

وكان الملك مترددا ، ولكنه نفذ ما أرادته الطبقة الارستقراطية .
ولكنى يمنع انضمام نواب رجال الدين الى نواب « الطبقة الثالثة » أمر
بإغلاق قاعة الاجتماع يوم السبت ٢٠ يونيو بحجة تحضير القاعة
لحضوره الملكى يوم الاثنين . كل هذا تم يوم الجمعة ليلا ، وعلق
اعلان بهذا التأجيل فى فرساي فى الساعة الخامسة من صباح
السبت . ولم يعرف بالى Bailly رئيس البرلمان بتأجيل الاجتماع
الا بمحض المصادفة . ولم يتسلم أمر التأجيل الا بعد السابعة
صباحا !!

وكان جان سيلفان بالى « ١٧٣٦ - ١٧٩٣ » عالم فلك مشهورا ،

وانتخب نائبا فى « مجلس الطبقات » الذى انتخبه رئيسا للجمعية الوطنية ، وكان رئيسها حين اعلنت « قسم ملعب التنس » فى ٢٠ يونيو ١٧٨٩ ثم انتخب عمدة لباريس فى ١٦ يوليو ١٧٨٩ ولكنه اعتبر مستولا عن مذبحه ميدان شان دى مارس Champ de Mars فقد امر بوصفه عمدة باريس باطلاق النار على المتظاهرين المطالبين بخلع الملك لويس السادس عشر بعد محاولته الفرار من فرنسا فى ١٧ يوليو ١٧٩٢ للاحتماء بأعداء بلاده فأعدم بالى على المقصلة فى ميدان شان دى مارس .

لم يتسلم بالى أمر تأجيل انعقاد البرلمان فى صورة خطاب بخط يد الملك موجه الى رئيس مجلس الطبقات كما جرى العرف ، ولكن تسلمه كمجرد اخطار من التشريقاتى الاول ، تسلمه فى مسكنه ولم يتسلمه فى مقر البرلمان بحسب الأصول المرعية .

ولم يكن عند بالى تفويض من الجمعية الوطنية ان يتصرف نيابة عنها . فلما حل موعد انعقاد الجمعية فى الساعة الثامنة تجمع بالى وعدد غفير من النواب عند باب القاعة ، فاعترضهم الحرس ، واحتج بالى وأعلن ان الاجتماع قائم .

وحاول بعض النواب الشبان فتح الباب عنوة ، ولكن الضابط المكلف شهر السلاح قائلا : انه لم يؤمر باحترام الحصانة البرلمانية .

قال ميشليه :

« هؤلاء اذن هم ملوكنا الجدد ، يحتجزون ويقفون بالباب وكانهم جماعة من التلامذة المشاغبين . وهاهم أولاء هائمون تحت المطر وبين الناس على طريق باريس ، الكل مجمع على ضرورة عقد

الجلسة وعلى التجمع . قال بعضهم : الى سوق السلاح !! وقال آخرون : الى قصر مارلى ! « حيث كان يقيم الملك . ل . ع » وقال آخرون : بل الى باريس : وكان هؤلاء أكثرهم تطرفا ، لأنهم ارادوا اشعال البارود .

واقترح النائب جيلوتان Guillotin اقتراحا أقل مجازفة . اقترح الذهاب الى فرساي القديمة والاجتماع فى ملعب التنس . . وكان مكانا كثيبا بشع المنظر خاليا من الآثار رقيق الحال . وكان مناسباً للمقام . فقد كانت الجمعية الوطنية فقيرة ولذا فقد كانت يومها تمثل الشعب اصدق تمثيل ، وظل نوابها واقفين طوال النهار ، فلم يكن لديهم أكثر من مقعد خشبي واحد . . كان هذا الملعب العارى بمنزلة مهد للدين الجديد ، بمنزلة المزود فى «بيت لحم» (الكتاب الأول ، الفصل الثالث) .

وهكذا اجتمعت الجمعية الوطنية فى ملعب التنس برغم ارادة الملك . . ولكن ترى ماذا هم قاعلون ؟

يجب الا ننسى ان الجمعية كانت كلها بلا استثناء واحد ملكية المشاعر . .

يجب الا ننسى ان أعضاءها حين أطلقوا على أنفسهم يوم ١٧ يونيو اسم الجمعية الوطنية هتفوا معا : عاش الملك !! وحين اعطت الجمعية لنفسها حق التصويت على الضرائب معلنة عدم شرعية الضرائب المحصلة حتى ذلك التاريخ ، فان المعارضين على هذا القرار آثروا الخروج من الجلسة على تكريس هذا التحدى للسلطة الملكية بمجرد مشاركتهم فى الحضور .

فى ذلك اليوم لم يكن هناك معارضون . كانت الجمعية الوطنية

فكرا واحدا وقلبا واحدا . وكان أحد المعتدلين ، جان جوزيف مونييه Mounier نائب جرينوبل ، هو الذى اقترح على الجمعية الوطنية القسم الشهير وهو : « قسم أمام الله والوطن انه أيا كان المكان الذى نضطر الى الانعقاد فيه ، فإن الجمعية الوطنية هى الجمعية الوطنية ولا شئ يمكن ان يحول دون استمرار مداولانها ، وانه حتى وضع الدستور واقراره ، فإنها تأخذ على نفسها عهدا بالا تنفصل أبدا » .

« وكان بالى أول من أقسم : أعلن القسم بصوت واضح مرتفع حتى أن جموع الشعب المتجمهرة فى الخارج سمعت القسم وصدفت له فى نشوة الحماس . . . وارتفع الهتاف : يحيا الملك ، ارتفع من الجمعية ومن الشعب . . . كانت هذه صيحة فرنسا القديمة المشحونة بالعواطف المتأججة . وقد اختلطت بقسم المقاومة » . (الكتاب الأول ، الفصل الرابع) .

كان جان جوزيف مونييه « ١٧٥٨ - ١٨٠٦ » محاميا فى جرينوبل وانتخب نائب عنها فى « مجلس الطبقات » وكان من المعتدلين المؤمنين بالملكية المقيدة « الدستورية » ، وكان له دور هام فى مدينته قبيل الثورة . ولكنه حين رأى الثورة تنجرف خلال شهر اكتوبر ١٧٨٩ من تطرف الى تطرف ، تملكه الرعب وارسل الى « الجمعية الوطنية » استعفاءه من النيابة وانسحب الى جرينوبل ثم عاش لاجئا فى الخارج على الكفاف ، ولكنه عاد الى فرنسا بعد انقلاب ١٨ برومير الذى استولى فيه بوناپرت على الحكم ، وكان محافظا ومستشارا للدولة فى عهد الامبراطورية . هذه فى كلمات قصة مونييه واضح « قسم ملعب التنس » الذى يعده المؤرخون ركنا ركينا من أركان الثورة الفرنسية .

وجاء رد الملك لويس السادس عشر على « قسم ملعب التنس »
وتحديات الجمعية الوطنية لسلطات العرش في فرض الضرائب بعد
ستة أيام جاء في ٢٣ يونيو ١٧٨٩ يوم « شرف » الملك « مجلس
الطبقات » بحضوره والقي في النواب كلمة تفيض بالغرسة واهانة
الشعب ونوابه .

دفعت الحماسة رجال البلاط ان يلقنوا نواب الشعب درسا
لا ينسى . فرتبوا ان يدخل ممثلو طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين
قاعة المجلس من الباب الكبير ، وان يدخل ممثلو « العموم » من الباب
الخلفى وكأنهم جماعة من الخدم ، بعد ان استبقوهم في عنبر تحت
المطر وراء الباب المغلق وكان الحرس داخل البرلمان ولم يكن هناك
من يقدم نواب الشعب كما جرت العادة . وهنا يصف ميشليه
ما جرى بالتفصيل :

قال ميرابو Mirabeau للرئيس بالي : « قدم الأمة يا سيدي
الى حضرة الملك ! » فدى الرئيس الباب ، فجاء صوت الحرس من
الداخل يقول - بعد لحظة - . قال الرئيس مخاطباً الحرس :
« أين اذن رئيس التشريعات ؟ » الحرس : « لا علم لنا بهذا » قال
بعض النواب : « فلنصرف اذن » ! وأخيراً استطاع الرئيس ان
يجيء برئيس الحرس الذى انطلق ليعود برئيس التشريعات .

ودخل النواب في طابور فوجدوا في القاعة رجال الدين والنبلاء
قد اتخذوا أماكنهم وبدءوا جلستهم وبدأ عليهم وكانهم ينتظرونهم
ليحاكموهم . . . غير هذا كانت القاعة خاوية ليس هناك ما هو أشد
كآبة من هذه القاعة الضخمة التى أقصى الشعب عنها .

وقرأ الملك ببساطته المعهودة الخطبة العصماء التى أعدوها

له ، وبدأت عبارات الطغيان غريبة في فمه . ولم يكن يحس كثيرا بما انطوت عليه من عنف مستفز ، فقد بدا عليه الاستغراب لمنظر الجمعية الوطنية وهي تستقبل كلماته فحين صفق النبلاء للمادة التي تقدس حقوقهم الاقطاعية ارتفعت بعض الأصوات العالية تقول : « صمتا ! » .

وبعد لحظة من الصمت والدهشة ختم الملك كلامه بعبارة خطيرة لا تحتمل كانت بمنزلة القاء القفاز في وجه الجمعية وبدا الحرب . قال : « اذا تخليتم عنى في هذا المشروع الجميل فسأعمل وحدي على خير شعبي ، وسأعتبر اننى وحدي ممثله الحقيقي » .

وأخيرا قال : « اننى أمركم أيها السادة ان تنفصلوا على الفور ، وان تتجهوا غدا صباحا الى الغرف المخصصة لطبقتكم لتعقدوا فيها اجتماعاتكم » .

وخرج الملك وخرج وراءه النبلاء ورجال الدين . أما العموم فقد ظلوا جالسين في هدوء وصمت .

وعندئذ دخل رئيس التشريعات وقال بصوت خفيض لبالى ، رئيس الطبقة الثالثة : « انت يا سيدى سمعت الأمر الملكى » فأجاب : « الجمعية تأجلت بعد الجلسة الملكية ، وأنا لا أستطيع أن أفضها دون أن تتداول » ثم التفت الى زملائه المجاورين قائلا : « يخيّل الى أن الأمة اذا اجتمعت فلا يمكن أن تتلقى الأوامر من أحد » .

وأخذ ميرابو هذه الكلمة بطريقة بارعة ، مخاطبا رئيس التشريعات بصوته القوى المهيّب قائلا فى جلال رهيب : « لقد سمعنا النيات التى أوحى بها للملك . وانت يا سيدى لا يمكن لك أن تكون الناطق باسمه فى الجمعية الوطنية ، وليس لك هنا مكان

ولا صوت ولا حق الكلام ، فأنت لا أهلية لك لتذكرنا بخطابه . .
امض وقل للذين أوفدوك اننا هنا بارداة الشعب ولن نخرج من
هنا الا على اسنة الحراب » . .

واضطرب رئيس التشريعات الشاب بريزيه Brézé
وانحنى الى الأرض : أحس بمقدم الملك الجديد ، بالشعب ملكا ،
وقام نحو هذا الملك الجديد بما يوجبه البروتوكول نحو الملك الآخر
فخرج وهو يتراجع بظهره الى الوراء كما كانوا يفعلون فى حضرة
الملك .

ربما فعل رئيس التشريعات ذلك تهكما بالملك الجديد . هذا
دا لم يذكره ميشليه .

وكما ذكر المؤرخ ميشيل فوفيل Michel Vovelle
أصبح « قسم ملعب التنس » من الممارسات الأساسية فى الفترة
النورية « لأنه كان يعبر عن التزام الفرد نحو الجماعة كأساس
للحياة المدنية ومنذ ١٧٨٩ أصبح القسم الذى يؤديه رجال الدين
رمزا لتضامنهم مع الشعب أو ما كان يسمى « الطبقة الثالثة » وكان
القسم الذى يؤديه المواطنون فى عيد اتحاد فرنسا الفيدرالى وكان
القسم الذى يؤديه كل من يتقلد منصبا عاما . لقد كان هذا الميثاق
يرمز الى معنيين خطيرين ، أولهما هو سيادة الشعب على نفسه وعلى
ساداته ، والثانى هو أنه حينما وجد الشعب وجدت « الشرعية »
التي تجب كل شرعية عداها ووجدت وحدة الشعب التي لا يجوز
لأية قوة ان تفضيها أو تفرقها ، وهى وحدة باقية حتى يقرر الشعب
مصيره بنفسه .

أما الدكتور جوزيف جيلوتان Joseph Guillotin
« ١٧٣٨ - ١٨١٤ » صاحب اقتراح اجتماع ملعب التنس ، فقد

كان الطبيب الخاص للكونت دي بروفانس ، فكان يدعو الى زيادة عدد أعضاء نواب « الطبقة الثالثة » وانتخب بين نواب باريس عام ١٧٨٩ . وفي يناير ١٧٩٠ اقترح على الجمعية التأسيسية ان تعمم الاعدام بقطع الرأس على كل المحكوم عليهم بالاعدام ، وكان من قبل مقصورا على طبقة النبلاء ، أما المجرمون العاديون فكانوا يعدمون شنقا . واخترع الدكتور جيلوتان آلة ذات حد قاطع لحز الرؤوس بسرعة وبدقة وبدون ألم بدلا من استعمال البليطة . فعين الدكتور انطوان لويس Antoine Louis السكرتير الدائم لأكاديمية الجراحة ليدرس الموضوع ، فكتب تقريرا يزكي فيه هذا الاختراع ، وبالفعل صدر مرسوم يقرر استعمال هذه الآلة . وكان الناس في البداية يسمون هذه الآلة « لويزون » Louison أى « لويزا الصغيرة » نسبة الى اسم الدكتور انطوان لويس صاحب التقرير . ولكن نشرة رسمية صدرت بعد ذلك وأسمتها « جيلوتين » Guillotine وهى الصيغة المؤنثة من اسم «مخترعها جيلوتان ، وكأنها بنته الصغيرة . وقد تم ذلك رغم احتجاج الدكتور جيلوتان الذى كان لا يريد أن يقترن اسمه بهذه الآلة المربعة التى تسمىها « المقصلة » .

وقد استخدمت المقصلة لأول مرة فى ٢٥ ابريل ١٧٩٢ لحز رتبة أحد اللصوص . وقد أوشك الدكتور جيلوتان نفسه أن يلقي حتفه على هذه المقصلة التى اخترعها حين قبض عليه فى عهد الارهاب بين المشتبه فيهم سياسيا . ولم ينقذه الا سقوط روبسبير ورجاله فى ثرميدور ، واعدامهم فى اليوم التالى .

Comte de Mirabeau

أما الكونت دي ميرابو

« ١٧٤٩ - ١٧٩١ » ، صاحب العبارة الشهيرة « نحن هنا بارادة الشعب ولن نخرج من هنا الا على اسنة الحراب » ، فقد كان من

أخطب خطباء الثورة الفرنسية ، وكان أصلا من طبقة النبلاء ولكن طبقته تبرأت منه لانحيازهم المستمر للجماهير . وكان في شبابه مستهترا امتلأت حياته بالديون والفضائح ، حتى انه اعتقل بناء على طلب أبيه كما جرت العادة بين نبلاء ذلك الزمان حين يعجز أب عن تقويم ولده فيستنجد بالملك ليؤدبه . وفي فترة اعتقاله هرب مع صوفي مونييه Sophie Monnier زوجة قومندان السجن ، وفر الى انجلترا وهولندا ، ثم قضى ٤٢ شهرا في سجن فانسين « ١٧٧٧ - ١٧٨٠ » وعاش بعد ذلك من قلمه في مختلف البلاد الأجنبية يكتب الكتيبات والمنشورات ضد الملكية المطلقة . وفي انتخابات « مجلس الطبقات » رفضته طبقته ، ولكنه فاز فوزا مبينا كتائب عن « الطبقة الثالثة » في اكس ان برفانس ومرسيليا .

وقد استخدم ميرابو بلاغته العظيمة في الدعوة للديمقراطية ، ولكن حدود الديمقراطية عنده كانت الملكية المقيدة أو الملكية الدستورية . وفي مايو ١٧٩٠ اتصل ميرابو سرا بالبلاط فاشتراه القصر الملكي ليدافع عن سياسته مقابل ان يدفع القصر ديونه . ولما مات ميرابو في ٢ ابريل ١٧٩١ ، كان أول من دفن من رجال الثورة الفرنسية في البانتيون « مقبرة الخالدين » ولكن رفاته نقلت في ٢١ سبتمبر ١٧٩٤ عندما أكدت الدلائل تواطؤه مع القصر .

كان ميرابو أهم بطل من أبطال الثورة الفرنسية في عاميها الأولين . كان المواطن الأول وكان الخطيب الأكبر . وقد ظل حتى نهاية الجمهورية الثالثة بطل الثورة الأعظم في ذمة التاريخ يطلق اسمه على الشوارع والميادين والكباري . ولكن الشعب الذي مجده حتى وفاته هو الشعب الذي نادى بشنقه قبيل وفاته لأن الأخبار ترامت بتواضعه مع القصر ، وبأن ماري انطوانيت استدرجته فوق في فخاخها ، ثم تبين انها كانت تتلاعب به وهو الضعيف أمام النساء وأمام المال .

وفي ٩ يوليو ١٧٨٩ قبل سقوط الباستيل بأيام أعلنت
« الجمعية الوطنية » ان اسمها الجديد هو « الجمعية الوطنية
التأسيسية » وان مهمتها هي وضع دستور للبلاد . وكان ميرابو
فيها هو المدافع الأول عن الحريات رغم احترامه للنظام الملكي ،
فدعوة الجمهورية لم تكن قد طرحت بعد ، وهي لم تطرح الا بعد
هرب الملك والملكة للجوء الى أعداء البلاد ..

٤ - ميرابو

كان عمر الكونت دى ميرابو « ١٧٤٩ - ١٧٩١ » أربعين عاما عندما قامت الثورة الفرنسية وسقط الباستيل . وكان فى شبابه متلافا محبا للنساء غارقا فى الديون ، مليثا برذائل طبقته الارستقراطية . وكان يرى فى أبيه صورة للطاغية المنحط الاخلاق لأنه كان يحبس عنه المال رغم ثرائه الواسع ، فقد كان من طبقة النبلاء ، ويتحدث دائما عن الفضيلة وهو الذى هجر زوجته من أجل خادمته . بل لقد سجن ميرابو عدة مرات بناء على طلب أبيه الذى استصدر من الملك لويس السادس عشر أمرا باعتقاله فى سجن فانسين لتأديبه حيث قضى ثلاث سنوات ونصف السنة متصلة منذ ١٧٨٠ بموجب « خطاب مختوم » ممهور بتوقيع الملك ، كما كانت تسمى أوامر الاعتقال خارج ما رسم القانون فى ذلك

● نشرت بجريدة الامرام
بتاريخ ١٩٨٩/٨/٥ .

الزمان ، فقد كان النبلاء أحيانا يلجأون الى الدولة لتأديب أولادهم الذين يعجزون هم عن تأديبهم .

فلا غرابة اذن ان يرى ميرابو فى لويس السادس عشر رمزا للملك الطاغية ، وان يتأثر بالأفكار الانجليزية الراضية للملكية المطلقة والقائمة على الملكية الدستورية . وكانت هذه هى الدعوة السائدة بين أكثر المفكرين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، عصر التنوير : نجدها فى فولتير وفى مونتسكيو والمدرسة العقلانية بوجه عام . قال ميشليه : وعندما اجتمع « مجلس الطبقات » . « كان ميرابو حاضرا . وجذب اليه أنظار جميع النواب ، بشعره الضخم المعقوص ، وبرأسه الذى يشبه رأس الأسد ويحمل ملامح دمامة شديدة أدهشت الحاضرين ، بل أكاد أقول أربعتهم ، فلم يمكن للأنظار أن تتحول عنه . كان من الواضح أن هذا كان رجلا ، وأن الباقين كانوا أشباحا . كان مع الأسف رجلا من عصره ومن طبقته ، مليئا بالرذائل مثل أبناء المجتمع الراقى فى زمانه ، مثيرا للفضائح فضلا عن ذلك ، شديد الجلبة ، جريئا فى رذائله ، وهذا ما قضى عليه . كانت على السنة الناس حكاياته ومغامراته وسجنه وغرامياته الهوجاء ، فقد كانت غرامياته عنيفة وجامحة وهوجاء . وكثيرا ما قادت شهوراته الى المحضيض . كن فقيرا بسبب قسوة أسرته فعرف البؤس المعنوى ، فقد اجتمعت له رذائل الفقراء مع رذائل الأغنياء : عرف طغيان الأسرة وطغيان الدولة والطغيان المعنوى النابع من داخله ، من شهواته . فلم يكن هناك من هو أكثر حماسا منه لاستقبال فجر الحرية . . كان يقول لأصحابه انه سيولد من جديد مع ميلاد فرنسا الجديدة . . ورغم ما أصاب وجهه من شحوب وترهل ، كان دائما يمشى رافع الرأس جرى النظرات ، وأحس كل الناس انه كان يمثل صوت فرنسا العظيم » الكتاب الأول ، الفصل الثانى ، . .

كان يؤمن بضرورة التوازن بين سلطة العرش وسلطة « الجمعية الوطنية » : عرش ضعيف لا خير فيه و برلمان ضعيف لا خير فيه . ولكنه كان يعمل علنا لتقوية سلطة البرلمان ، ويعمل سرا لتقوية سلطة الملك ، وهذا ما جلب عليه الكوارث فى النهاية عندما افتضح أمره ، ولا سيما بعد وفاته . وازداد الموقف سوءا عندما تأكد انه كان يبيع خدماته للعرش مقابل المال ليسدد ديونه ، وان علاقاته بالبلاط كانت قائمة حتى قبل الثورة ، وقد أصبح ميرابو مستشارا سرىا للملك والملكة .

كانت الملكة مارى انطوانيت قد اشترت فى ١٧٨٥ قصرا ملكيا جديدا فى ضاحية سان كلو Saint-Cloud خارج باريس وانتقلت اليه مع زوجها الملك لويس السادس عشر . وكانا شبه أسيرين فى هذا القصر منذ سقوط الباستيل . فقد كانا يتجولان فى حدائقه ، بل ويقومان ببعض الزيارات الخاصة فى حرية نسبية ، وكان يحيط بهما الحرس الوطنى الذى بقى نسبيا على ولائه لهما حتى أوائل ١٧٩٠ . وكانت الملكة وهى تمر فى مركبتها تسمع بعض نساء الشعب يهتفن ضدها قائلات : « يحيا دوق أورليان ! » . فقد كان فيليب دوق أورليان ، ابن عم الملك وغريمه يتودد الى الجماهير باسم الديمقراطية ، حتى لقبوه « فيليب المساواة ! » Philippe Egalité وقد لعب دورا فى الاطاحة بلويس السادس عشر ، فتمتقع الملكة وتوشك أن تنهافت ، ومع ذلك فقد كانت تماسك لشدة غطرستها واحتقارها للرعاع .

وفى ٣ يوليو ١٧٩٠ كانت الجمعية التأسيسية التى تضع الدستور تناقش مادة على غاية ما يكون من الخطورة ، وهى : أيهما يملك الحق فى اعلان الحرب والسلم ، الملك أم الجمعية الوطنية ؟

وفى ٣ يوليو ١٧٩٠ كان هناك موعد مرتب بين ميرابو والملكة مارى انطوانيت فى حدائق قصر سان كلو بعد - ان - تقاضى ميرابو

من القصر مبلغا من المال فى نهاية شهر مايو ، ودافع فى الجمعية التأسيسية عن حق الملك فى اعلان الحرب والسلم ، بما جعل الجماهير تتألب عليه فى حدائق قصر التويلرى فى قلب باريس وتطالب باعدامه شنقا بوصفه عدو الشعب .

وليس هناك بين المؤرخين من عثر على فحوى ما دار بين الملكة وميرابو من مفاوضات وان كان بعضهم يوحى بأن ميرابو طرح على ماري أنطوانيت تصوراته لكيفية انقاذ العرش وحرىات الشعب معا ، أما الملكة فلم تفصح عن شىء كثير ، بل احتفظت بأفكارها لنفسها . وعلى كل ففى نهاية المقابلة قال ميرابو للملكة : « يا سيدتى ، عندما كانت جلالة أمك المعظمة تعطى واحدا من رعاياها شرف المثل فى حضرتها ، لم تكن أبدا تصرفه دون ان تعطيه يدها ليقبلها » . . . فقدمت ماري أنطوانيت يدها لميرابو فقبلها . وانحنى ميرابو قائلا فى حرارة وشموخ : « سيدتى أن الملكية قد انقذت ! » .

ولكن التاريخ يقول أيضا أن ميرابو الذى خرج من عند الملكة راضيا بما غمرته به من عطف خرج أيضا مخدوعا ، لأن الملكة كتبت لعميلها فى المانيا مسيو دى فلاكسلاندن *Flachslanden* تقول انهم فى البلاط يستخدمون ميرابو ، ولكن ليس فى علاقتهم به شىء يؤخذ مأخذ الجد » .

ويوحى ميشليه ، الذى يضيف دائما جوا رومانسيا على أحداث التاريخ وشخصياته ، ان هناك بعدا عاطفيا فى هذا اللقاء بين ماري أنطوانيت وميرابو الى جانب البعد السياسى المعروف ، فهو يقول ان الملكة اكتشفت فى هذا المهيح السياسى المرعب ، قلب انسان رقيق على طريقته الخاصة .

مات ميرابو بعد شهر من لقاءه هذا بالملكة . كانت صحته فى تدهور مستمر بسبب اسرافه فى ارضاء شهواته ، وبسبب

ضراوة صراعاته مع الغير وضراوة صراعاته مع نفسه . قال ميشليه : « كلا . . ان ميرابو لم يمت الا من كراهية الشعب له . كان معبودا ثم كفروا به ، كان له نصره العظيم فى اقليم بروفانس حيث أحس انه يرتاح على صدر الوطن ، ثم فى مايو ١٧٩٠ تظاهر الشعب فى حدائق التويلرى وطالبوا به لشنقه ! . . . وكان هو نفسه يواجه هذه العاصفة بضمير غير نقى ، كان يضع يده على صدره ، فلا يحس الا بالمال الذى تلقاه من البلاط فى الصباح » . . هذا عند ميشليه ماجره الى القبر فى سن مبكرة : انه اكتشف انه كان ضحية خديعة كبرى ، ان الملكة كانت تضممر شيئا آخر غير مصالح الشعب . كانت تحاول تأليب الأقاليم على « الجمعية الوطنية » حتى يمكن حل الجمعية الوطنية وتشكيل جمعية أخرى تقوم بتعديل الدستور الذى وضعته الجمعية التأسيسية .

لقد كانت مأساة ميرابو الحقيقية هى كيف تميز حاجته للمال وكيف تميز ايمانه بضرورة حفظ التوازن بين سلطة العرش وسلطة الأمة بهذا وحده يمكن تفسير تفانيه فى خدمة الشعب والعرش معا . ولكن الملك الأعمى وبلاطه الرجعى وارسنقراطيته المنحطة كانوا لا يرون فى ميرابو الا سمسارا سياسيا . أما القيادات الشعبية فى « الجمعية الوطنية » فقد كانت ترى فيه عميلا للبلاط . وقد ذكر هو ذلك فى خطابهاته لأصدقائه كما ورد فى كتاب نوجاريه Cbaassinand-Nogaret : « ميرابو » .

كانت أكبر معارك ميرابو الأولى تتصل بقضايا الحرية والمساواة والغاء الامتيازات الطبقية ثم حماية العرش من دكتاتورية الشعب .

وقد تمثلت الأزمة الأولى فى اصرار الملك وطبقة النبلاء على الفصل بين الطبقات فى اجتماعات « مجلس الطبقات » بحيث يجتمع ممثلو كل طبقة على حدة ويجرى التصويت على الضرائب

ومشروعات القوانين فى كل مجلس على حدة ، وبهذا يتأكد مبدأ فصل الطبقات من جهة وينعدم مبدأ المساواة بين المواطنين من جهة ثانية ، وتهدر الأغلبية المرجحة « للطبقة الثالثة » فى السلطة التشريعية من جهة ثالثة ، لأن نسبتها تكون دائما نسبة ١ الى ٢ فى القرار الأخير : أى صوت واحد « للطبقة الثالثة (الشعب) ، ضد صوتين « لطبقة النبلاء » و « لطبقة رجال الدين » .

فقد كان مجموع عدد النواب فى البرلمان أو « مجلس الطبقات » ١١٥٤ نائبا ، منهم ٢٩١ يمثلون رجال الدين ، و ٢٨٥ يمثلون النبلاء ، و ٥٧٨ يمثلون الطبقة الثالثة ، أى « الشعب » . ومعنى هذا انه فى أية محاولة لاعتبار البرلمان وحدة واحدة ، تكون للممثل الشعب أغلبية دائمة من ٥٧٨ صوتا حتى لو اتحدت كلمة النبلاء ورجال الدين ، ومجموعهم معا ٥٧٦ نائبا .

وقد ازداد الأمر خطورة حين تبين منذ اللحظة الأولى بعد الانتخابات ان طبقة رجال الدين انقسمت على نفسها فانضمت أغليبيتها وهم فقراء القساوسة وعددهم أكثر من مائتين ، الى « الطبقة الثالثة » ولم ينضم الى طبقة النبلاء الا نحو ثلاثين نائبا من صدور الكنيسة كالكرادلة والأساقفة .

فاذا ذكرنا ان بعض نواب النبلاء كانوا فى جانب الشعب بسبب الاستنارة الفكرية أو للخصومات الشخصية أو للمصلحة الخاصة ، كانت النتيجة النهائية انه فى حالة ادماج الطبقات الثلاث فى برلمان واحد ذى مجلس واحد تكون لنواب الشعب أغلبية دائمة ساحقة قوامها نحو ٨٠٠ صوت وتكون لطبقة النبلاء اقلية دائمة واضحة قوامها نحو ٢٥٠ صوتا . وكان هذا وحده كافيا لتصفية المجتمع الاقطاعى والغساء الامتيازات الطبقية ، كافيا لعجن الأمة الفرنسية فى عجينة واحدة .

وهذا ما أخاف الملك والنبلاء فاعترضوا على هذا الادماج فى احتقار شديد . بل ان الخطبة الملكية لم تتحدث عن تمثيل الملك « لشعبه » بل تحدثت عن تمثيل الملك « لشعوبه » وكأنما له ثلاثة شعوب فى فرنسا هم الارستقراط ورجال الدين والعامه .

وقد كانت الأفكار الانجليزية ، أى مبادئ الملكية الدستورية ، منتشرة فى فرنسا وقت هذا القلق العظيم : وهذا ما حدا بالطبقة الثالثة أولا ان تسمى نفسها « مجلس العموم » فهناك أيضا « مجلس لوردات » . وهذا يتضمن اعترافا صريحا بأن المجتمع مكون من طبقتين لا من طبقة واحدة . وربما كان من الممكن أن تقف الأمور عند هذا الحد لولا تعنت الملك وصلف النبلاء الذين أصرروا على انفصال الطبقات الثلاث لا فى القاعات وحدها ولكن فى القرارات نفسها ، حتى التحقق من صحة العضوية والطعون قد أصرروا على أن تقوم بها ثلاث لجان منفصلة ، كل طبقة تفحص أوراق ممثلي طبقتها على حدة .

وهذا ما دفع « الطبقة الثالثة » ، ومن ورائها كل هذه الأغلبية الساحقة ان تقفز هذه القفزة الكبرى فتسمى نفسها « الجمعية الوطنية » *L'Assemblée Nationale* أو حرفيا « جمعية الأمة » ، أو ما نسميه نحن « مجلس الأمة » . ليس فى فرنسا امتان « نبلاء وعامه » وإنما فيها أمة واحدة هى الأمة الفرنسية بجميع طبقاتها وفئاتها وكلهم متساوون فى الحقوق والواجبات . بهذا يتحقق مبدأ المساواة .

وفى خارج الجمعية الوطنية كانت جماهير فرساي تظاهر الطبقة الثالثة بالمظاهرات وتهين النبلاء وكانت باريس تغل ومن ورائها الأقاليم . كان سقوط الباستيل رمزا لانتصار الحرية ، وكان انشاء « جمعية الأمة » رمزا لانتصار المساواة .

وكان البطل الثانى بعد ميرابو فى هذه المرحلة هو سيزى Sicyes قال سيزى : « ان الواجب العاجل على كل ممثلى الأمة ، أيا كانت طبقة المواطنين التى ينتمون اليها ، ان يكونوا بلا تأجيل جديد جمعية عاملة قادرة على البدء فى مزاولة نشاطها وعلى تحقيق رسالتها » . وبدأت الجمعية العمل بدعوة الطبقتين الآخرين للنظر فى صحة عضوية الأعضاء أى صحة تفويضات النيابة .

وكان سيزى معتدلا مثل ميرابو ، فاقترح ان تسمى جمعية العموم نفسها « جمعية النواب » أو « مجلس النواب » كما كنا نقول نحن فى دستور ١٩٢٣ . وكان ميرابو يخشى الانزلاق الى التطرف فى تجاهل النبلاء والتكلم باسم « الأمة » كلها بما يستفز الملك الى حل البرلمان « مجلس الطبقات » وبذلك تخسر « الطبقة الثالثة » كل شئ ويعود النبلاء لحكم البلاد حكما مطلقا من خلال الملك وتبدأ أعمالهم الانتقامية من « العموم » دون أن يكون لهم ذلك الشرف البغيض ، شرف جر البلاد الى حرب أهلية » . وبناء عليه اقترح ميرابو على مجلس العموم ان يسمى نفسه « مجلس الشعب » *Assemblée du Peuple* دون ادعاء انه يمثل كل الأمة .

وسئل ميرابو ان كان فى تصويره مكان لمجلس ثان « كمجلس اللوردات » ، فاجاب : كلا . . فالمجلس لن يعترف « بأى اعتراض من الطبقات الممتازة ولا بأى حق فى اتخاذ قرارات منفصلة عن قراراتنا » ، واستقبل الأعضاء خطابه باستياء واضح وازداد الاستياء عندما أيد عضو اسمه مالويه *Malouet* فقد كان الأعضاء يشتبهون فى ان مالويه كان يعمل لحساب وزير المالية نكر *Necker* وهاجم ميرابو عضو اسمه توريه *Thouret* مهاجمة عنيفة قائلا ان كلمة « الشعب » تحمل معنى « الرعاع » لأن كلمة *Peuple*

كلمة غامضة فهي ترادف كلمة Plebe اللاتينية بمعنى « الرعاى » وفى هذه الحالة توافقون على فصل الطبقات » ، أو ترادف كلمة Populus اللاتينية بمعنى « الأمة » وفى هذه الحالة تتجاوزون بكثير مراد « مجلس العموم » .

وطرح عضو مغمور اسمه ليجران Legrand اسم « جمعية الأمة » هذا الذى نترجمه الآن بعبارة « الجمعية الوطنية » . واحتدمت المناظرة بين ميرابو وخصومه الى حد المهاثرات وايهام ميرابو بأنه عميل السلطة ، وأخذت الأصوات ففاز اسم « جمعية الأمة » أى « الجمعية الوطنية » كما نترجمها فى العربية ، بأغلبية ٤٩١ صوتا ضد ٩٠ صوتا .

وتحققت مخاوف ميرابو . قال ميرابو : « خسارة ! انهم كانوا يتوهمون انهم فرغوا من كل شىء ، ولكنى لن أدهش اذا جاءت الحرب الأهلية ثمرة لقرارهم البديع هذا » . وبالفعل أصيبت طبقة النبلاء برعب حقيقى واثابتها حالة سعار لأنها أدركت أنها على وشك أن تفقد كل امتيازاتها الاقطاعية وكانت أول نتيجة لدعوة المساواة ان الملك أدخل « الطبقة الثالثة » الى « مجلس الطبقات » فى فرساي من سلم الخدم .

ولما وقعت الواقعة وبدأ التحدى العظيم وجد ميرابو نفسه مرة أخرى يقود نواب الشعب ثم الجماهير فى كفاحهم وكفاحها من أجل الحرية والمساواة . كتب ميرابو يقول : « ألا يبدو مجافيا للمنطق ان توضع مصالح مائتى ألف شخص يتمتعون بالامتيازات الطبقيية فى موضع التعارض مع مصالح خمسين وعشرين مليوناً من المواطنين ؟ » (نوجاريه : « ميرابو » ص ١٦٣) .

حين كان ميرابو على فراش الموت فى ربيع ١٧٩٠ ، قال : « أنا أمضى وأحمل معى رفات الملكية ، وسوف تتنازع على انقباضها

«الأحزاب المتناحرة» .. كأنما كان يتنبأ بما سيجرى من أحداث دموية فى الثورة الفرنسية .

كتب ميشليه يصف لحظات ميرابو الأخيرة :

« وسمع طلقة مدفع فصاح منتفضا : أهذا جناز أقيم قبل الأوان ؟ » .

وفى صباح ٢ إبريل فتح نوافذ بيته وقال لى « المتحدث هو طبيبه كابانيس » أنا سأموت اليوم يا صديقى ، وعندما نصل الى النهاية لا يبقى أمامنا الا شئ واحد : ان نتعطر وان نتتوج بأكاليل الزهر وان نحيط أنفسنا بالموسيقى لكى ما ندخل برضا فى النوم الذى لا صحو منه » . ثم استدعى خادمه الخاص وقال : « هيا جهز لحلاقتى ، ولغسلى وتزيينى بالكامل » ..

ومات نحو الثامنة والنصف ..

وكان الحزن عليه عظيما وشاملا فسكرتيره الذى كان يعبد به والذى جرد سيفه عدة مرات من أجله ، أراد أن ينتحر بحز رقبتة .. وأغلق الناس المسارح بل وفضوا بصياحهم حفلا راقصا كان يفسد هذا الحزن الحميم .

★★★

وفى ٣ إبريل تقدمت محافظة باريس للجمعية الوطنية بطلب موافق عليه ، وهو أن تخصص كنيسة سانت جنفييف كمقبرة لعظماء الرجال ، وان يكون ميرابو أول من يدفن فيها ، وان يكتب على واجهة الكنيسة : « الوطن عارف بجميل عظماء الرجال ، وكان مذكورا فيها ديكارت ثم لحقه فيها فولتير وروسو . ولكن الآراء

تضاربت فمنها أن في ٤ ابريل كانت أكبر جنازة عرفها العالم وأكثرها شعبية قبل جنازة نابوليون في ١٥ ديسمبر ١٨٤٠ وكان الشعب وحده هو الذي يحافظ على النظام ، ونجح ذلك نجاحا يدعو الى الاعجاب فلم يقع حادث واحد في هذا الجمع المكون من ٣٠٠ ألف أو ٤٠٠ ألف مشيع . وكانت الشوارع والنوافذ والأسطح والأشجار ملأى بالمشاهدين .

وعلى رأس الموكب مشى لافاييت يحفه اثنا عشر من رجاله في صورة حلقة حاجزة . ثم مشى ترونشيه رئيس الجمعية الوطنية ، ووراءه كل أعضاء الجمعية قاطبة دون تمييز بين أحزابهم السياسية .

وبعد أعضاء الجمعية الوطنية مباشرة مشى قبل كل الهيئات أعضاء نادى اليعاقبة ، مشوا في كتلة مترصة وكانهم جمعية وطنية أخرى واعرابا عن حزنهم أعلنوا الحداد ثمانية أيام ، وكل عام للذكرى السنوية الى ما لا نهاية ؛

ولم يستطع هذا الجشد الوصول الى كنيسة سان يوستاش Saint-Eustache الا في الساعة الثامنة والقي سيروتى خطبة رثائه . وأطلق عشرون ألفا من الحرس الوطنى من بنادقهم رصاصة الوداع فتكسر زجاج كل النوافذ ، وظن الناس لحظة أن الكنيسة ستتهار على التابوت .

واستأنفت الجنازة سيرها على ضوء المشاعل وكان الحزن مهيبا ، فقد كانت هذه أول مرة لا يسمع الناس فيها الا آلتين موسيقيتين غاية ما يكون فى القوة هما النفير والطبلة . وكان لحنهما متباعدة تماما فهصر القلوب هصرا . وبلغ الموكب كنيسة سانت جنيفيف فى وقت متأخر من الليل .

ومنذ موت ميرابو سارت الثورة فى منحدر سريع مشيت فى طريق غائم يؤدى اما الى النصر واما الى القبر . وفى هذا السبيل افترقت الثورة رجلا كان رفيق طريقها المجيد ، رجلا كبير القلب ، رجلا بلا مرارة ولا ضغينة ، سخي مع اقسى اعدائه . لقد مضى ميرابو وأخذ معه شيئا لم يكن معروفا من قبله ، ولم يعرف الا بعد أن فات الأوان ، ألا وهو روح السلام وقت الحرب ، والطيبة رغم سيطرة العنف : أخذ معه الوداعة والانسانية .

أما لامارتين Lamartine الذى بدأ كتابه « تاريخ الجيرونديين Histoire des Girondins بموت ميرابو ، فقد قال فيه :

هذا المهيج الجماهيرى العظيم لم يكن أكثر من رجل من رجال البلاط المدعورين الذين يحتمون بالعرش وهم لا يزالون يتشددون بكلمات رهيبة مثل كلمة « الأمة » وكلمة « الحرية » رجل جعله دوره الذى أداه يصاب فى روحه بكل صغار البلاط وبكل أفكارهم المغرورة . ان عبقريته تدعو للثناء حين نراه يصارع المستحيل . لقد كان ميرابو أقوى رجال عصره ولكن أقوى الرجال لا يبدو أكثر من مجنون اذا ما صارع عناصر الطبيعة فى هياجها . ان الانهيار لا يكون جليلا الا اذا سقط المنهار مع فضيلته .

[الكتاب الأول ، الفصل الثانى]

أما ادجار كينييه Edgar Quinet فيلخص الموقف بقوله : « ان فساد ميرابو هو الذى جاء بروبسبير الذى لا سبيل الى افساده » .

هـ - النظام الاقطاعي

انتصرت الجمعية الوطنية على الملك لويس السادس عشر عندما قررت في ١٧ يونيو ١٧٨٩ ان تطلق على « مجلس الطبقات » اسم « الجمعية الوطنية » أو « مجلس الأمة » وبذلك ادمجت مجلس النبلاء ومجلس رجال الدين ومجلس الشعب في مجلس واحد لا طبقات فيه ، أي ادمجت طبقات فرنسا كلها في أمة واحدة . ثم انتصرت عليه مرة أخرى عندما أمرها ، في غطرسية الحاكم المطلق ، ان تنفض وتعود للانعقاد في شكلها الطبقي القديم ، فتحدثته في ٢٠ يونيو ١٧٨٩ عندما أقسم أغلبية أعضائها على ميثاق ملعب التنس الا تنفصل أبدا الى طبقات مستقلة ، وعلى ان الجمعية الوطنية سيادة على نفسها وعلى قراراتها .

فلم يكن أمام الملك أمام اتحاد أغلبية نواب الأمة الا طريقان :
أما الرضوخ لارادة الأمة بالموافقة على هذا القرار الذي صفى

● نشرت بجريدة الامرام

بتاريخ ١٢/٨/١٩٨٩ .

« النظام القديم » بالغاء مجلس الطبقات المتخلف من عصور الاقطاع ،
واما التحرك لحل هذا المجلس الثائر وتشيتت اعضاءه .

والواقع ان لويس السادس عشر ، منذ ان ثار نبلاؤه على سلطاته
المطلقة قبل ذلك بعامين أصبح مجرد أداة فى يد طبقة النبلاء ،
يحركه اخوة الكونت دارتوا (D'Artois) وامناله من الرجعيين ،
ولذا اختار الطريق الثانى وسار فى سكة الندامة . اختار التحرك
لحل الجمعية الوطنية الثائرة وتشيتت اعضاءها . وفى نفس اليوم
الذى أصدر فيه الملك قراره باندماج الطبقات الثلاث فى هيئة نيابية
واحدة حشد الملك حول باريس وفى ضاحية فرساي Versailles
مقر الحكم (القصر الملكى والجمعية الوطنية) ، جيشا قوامه
٢٠.٠٠٠ جندي ، استعدادا لحل الجمعية الوطنية .

وهكذا التهب المشاعر داخل الجمعية الوطنية وفى الشارع
الفرنسى ، فى باريس وخارج باريس . وأخذ رجل الشارع يتحدث
عن « المؤامرة الارستقراطية » . وفى أول يوليو ١٧٨٩ نشر مارا
Jean-Paul Marat منشورا بعنوان « بيان للشعب ، أو « كشف
النقاب عن الوزراء ، جاء فيه : أى أخوتى المواطنين ، راقبوا دائما
سلوك الوزراء لتبنوا عليه سلوككم ان هدفهم هو حل جمعيتنا
الوطنية .، ووسيلتهم الوحيدة هى الحرب الأهلية . ان الوزراء
يشعلون الفتنة ! . . انهم يحيطونكم بجهاز العسكر الخطير وبالحراب .

وفى ٨ يوليو ١٧٨٩ قررت الجمعية الوطنية بناء على تقرير
من ميرابو ، توجيه طلب الى الملك تطلب منه فيه ابعاد الجند الذين
كان أكثرهم من السبويسريين والألمان ، جاء فيه : « ما الداعى اذن
ان يستدعى ملك يعبد خمسة وعشرون مليوناً من الفرنسيين بضعة
آلاف من الأجانب حول عرشه متكبدا باهظ النفقات ؟ » فرد الملك
فى ١١ يوليو عن طريق حامل أختامه انه ما جمع كل هذا الجند الا

ليبقى تجدد الفتن . وفى نفس اليوم أقال وزير المالية نيكر Necker وعين مكانه وزيرا من الداعين صراحة الى الثورة المضادة ، هو البارون دى بريتوى Baron de Breteuil واستدعى المارشال دى بروجلى Marechal de Broglie وزيرا للحرب .

وأخس الشعب أن ساعة المواجهة اقتربت وعد المولون وأصحاب ريع الأملاك طرد نيكر بمثابة نذير بافلاس الدولة . واحتج تجار العملة باغلاق البورصة فى ١٢ يوليو ، وتدهورت الأحوال ، وأغلقت المسارح وانتشرت الاجتماعات والمظاهرات وخطب كاميل ديمولان Camille Desmoulins فى الجماهير فى الباليه روايال Palais Royal ، وفى حدائق التويلرى Tuileries القصر الملكى القديم تصادمت الجماهير المتظاهرة بقوات الأمير لامبيسك Lambesc فدقت النواقيس منذرة بالخطر ونهبت الجماهير دكاكين السلاح .

وفى ١٣ يوليو أعلنت الجمعية الوطنية تقديرها لنيكر والوزراء المقالين وأسفها لاقالتهم ، وتجددت المظاهرات العنيفة والبحث عن السلاح .

وفى ١٤ يوليو كان الزحف الكبير وكان سقوط الباستيل ، وهكذا أنقذت الجماهير الهادرة الجمعية الوطنية من الحل الذى كان رتبته لها لويس السادس عشر . وسحب الملك قواته من المنطقة بناء على نصيحة بعض النبلاء المعتدلين الراغبين فى انقاذ الملكية ، واغتنمت الطبقات المتوسطة ، فرصة انتصار الجماهير فى الباستيل وأقامت فى دار البلدية (الهوتيل دى فيل) مجلس ثورة أسمته كوميونة باريس Commune de Paris وانتخب بالى Bailly عمدة باريس ، وعين لافاييت Lafayette قائدا للمليشيا البورجوازية التى سميت « الحرس الوطنى » .

وتراجع الملك فاعاد نيكرو الى الوزارة فى ١٦ يوليو وقبل أن ينتقل من فرساي الى قصر التويلرى فى باريس تحت ضغط المظاهرات واستقبله العمدة بالى فى دار البلدية ، واهداه الكوكارد La Cocarde وهى الشارة المثلثة الألوان رمزا لوحدة الشعب والملك . وقال الملك فى لحظة انفعال : « يستطيع شعبى أن يعتمد على حبى له » .

وسنطت الارستقراطية سخطا شديدا على انهيار الملك أمام أحداث منتصف يوليو ١٧٨٩ ، فبدأت حركة هجرة النبلاء من فرنسا : فى فجر ١٧ يوليو هاجر الكونت دارتوا مع أسرته ومعيته الى هولندا ، وتبعه فورا البرنس دى كوندية Prince Condé وكل أسرته . وهاجر دوق ودوقة بولنيك Polignac الى سويسرا ، وهاجر المارشال بروجلى الى لكسمبورج . وتبعهم المئات ثم الآلاف من النبلاء .

.. وكما حدث فى باريس استفادت البورجوازية (أى الطبقات المتوسطة) من ثورات الشعب فى المدن فاستولت على السلطة وسيطرت على المجالس البلدية ونظمت فى كل مدينة ميليشيا بورجوازية تحت اسم الحرس الوطنى .

كان تعداد فرنسا أيام الثورة الفرنسية نحو ٢٥ مليون نسمة (فى تقدير نيكرو ٢٤٧ مليون وفى تقدير سوبول Albert Soboul نحو ٢٧٥ مليون نسمة) بينما كان تعداد انجلترا فى نفس الفترة ٩ ملايين نسمة وتعداد اسبانيا ١٠ مليون نسمة . وقد أدى تضخم السكان فى فرنسا الى غلاء أسعار الأغذية ولا سيما فى المدن المتضخمة .

وكان اقتصاد فرنسا قائما على الزراعة بصفة أساسية ، مما جعل الطبقة الحاكمة من كبار الملاك الزراعيين ، ولكن نمو الطبقات

المتوسطة المعروفة بالبورجوازية (الصغيرة والمتوسطة والعليا) عبر القرون غير مضمون المجتمع الفرنسي دون أن يحدث أى تغيير فى الهيكل السياسى أو القانونى أو الاجتماعى التقليدى المتوارث عن العصور الوسطى . فظلت الطبقات المتوسطة رغم استفحالها محرومة من المشاركة فى حكم البلاد . وهذا الصدع الكبير بين الشكل والمضمون مع انتشار حركة التنوير ويقظة الجماهير والضغط الاقتصادى الشديد الى حد الجوع أحيانا هو الذى فجر الثورة الفرنسية .

كان المجتمع الفرنسى حتى الثورة الفرنسية مجتمعا اقطاعيا أسسه من مخلفات العصور الوسطى . وكانت أهم هذه الأسس هى تكون المجتمع من ثلاث طبقات تسودها علاقات قانونية وفعلية قائمة على فلسفة تقول ان اختلاف الوظائف ينبع من فوارق أصيلة بين البشر وبالتالي يحتم انعدام المساواة بين البشر . وقد كرست الكنيسة هذه الفلسفة وهذا النظام لأنها كانا يدعمان سلطانها وامتيازاتها .

هذا التقسيم الطبقي فى العصور الوسطى جعل الناس كالآتى :

(أ) طبقة من يصلون وهؤلاء هم رجال الدين .

(ب) طبقة من يحاربون وهؤلاء هم النبلاء .

(ج) طبقة من يعملون لاطعام الباقين وهؤلاء هم « الشغالة » Laboratores . وهم الطبقة الثالثة . وقد اغتصب النبلاء الأرض من الشغالة لأنهم كانوا يعيشون بالسيف ولم يمتلكوا الأرض وحدها ولكن امتلكوا ما عليها من الشغالة فجعلوهم رقيقا أو اقنانا وفرضوا عليهم التزامات وواجبات محددة مثل الخدمة العسكرية ، ومثل العمل بالسخرة فى أرض النبيل الذى يوفر لهم الحماية ، ومثل

اقتسام المحصول مع النبيل فيما يزرعون من أرض ، وهو نوع من المزارعة بالأكراه أساسه ان حق الرقبة على الأرض ، أى الملكية ، للنبيل وحق الانتفاع بمقابل للفلاحين الأقنان .

وكان النبلاء يرثون أو يشترون الأرض ومن عليها من اقنان بقوة القانون مما ربط الفلاحين بأرض النبيل وشخصه وحدد حريتهم فى الانتقال وبعد ان كانت هذه الحيازات البشرية مجرد اغتصاب بقوة السيف . أصبحت لها وثائق مسجلة وأسانيد قانونية . كذلك كانت للنبلاء حقوق على المراعى وما فيها من قطعان وعلى الغابات وما فيها من صيد ، وفى بعض الأحوال . كانت لهم حقوق على نساء الأرقاء كما فى حالة فيجارو الشهيرة .

وكان الملوك والنبلاء يقطعون الكنيسة والأديرة أطيافا شاسعة ويهبونها حق جباية العشور ، وهو نوع من الزكاة المسيحية ، تحول الى فرض آتاوات ، لكى تقدر الكنيسة النظام الاقطاعى قائما على القوة القاهرة ، أو على سيف المعز وذهب كما نقول نحن فى بلادنا ، أصبح يقوم على الحق الالهى . وكان الملك هو الاقطاعى الأول ورأس الطبقة الارستقراطية (النبلاء) ، وكان يملك ويحكم بالحق الالهى .

وكان من حق الأرقاء أو الفلاحين الاقنان ان يشتروا قانونا عتقهم أو التزاماتهم أو أثقالهم المالية بالمال بموجب صكوك مسجلة .

وهكذا ولدت الطبقة أو الطبقات المتوسطة التى تسمى البورجوازية انسلخت من طبقة الشغالة . فكان قوام البورجوازية الرجال الأحرار فى المدن أو البنادر ممن يحملون وثيقة تحرير أو اعتناق . وأصبحت البورجوازية فى المدن هى « الطبقة الثالثة » فى المجتمع بعد النبلاء ورجال الدين (حرفيا : البورجوازية هى الطبقة

ساكنة « البورج » و « البورج » هو « البندر » . وكان أكثرها من التجار والحرفيين . وباتساع النشاط التجاري والحرفي منذ القرن الحادى عشر ظهرت مصادر جديدة للثروة المنقولة دعمت البورجوازية وجعلت منها طبقة ذات كيان اجتماعى واضح .

ومنذ تكون فرنسا كدولة بين ٩٠٠ و ١٠٠٠ ميلادية أخذت قوة الملك تتعاطم فسحب الملك سلطات النبلاء السيادية التى كانت تجعل من النبلاء أشباه ائداد له ، ولكنه ترك لهم امتيازاتهم الاقتصادية والاجتماعية ولم يدخل العامة الريفيون « الطبقة الثالثة » الا فى ١٤٨٤ عندما اشتركوا لأول مرة فى الانتخابات . ودرجة درجة تبلور نظام الطبقات الثلاث حتى أصبح نظام الحكم فى الدولة . وفى ١٧٥٦ عرف فولتير الطبقات الثلاث بأنها « أم داخل الأمة » بالمعنى القانونى فى « بحث فى عادات الأمم وروحها » ولم تكن هذه الطوائف الثلاث مجرد طبقات اجتماعية ، فقد كانت كل طائفة منها تنقسم الى فئات بعضها فى تناقض مع بعضها الآخر .

وفى القرن الثامن عشر كانت البورجوازية (الطبقات المتوسطة) هى أهم دول للدولة ، وتضال دور النبلاء ، فأصبح الواقع الاجتماعى والقانونى لا يتمشى مع الواقع الاقتصادى ، فاندلعت الثورة الفرنسية لأن النبلاء استمروا فى حكم البلاد ، رغم أن الكوادر الوسطى والسفلى من الادارة الحكومية كانت من أبناء البورجوازية هذا هو التفسير الذى يعطيه العلامة البير سوبول Albert Soboul فى كتابه الخطير : « الثورة الفرنسية » . هذا بالإضافة الى الانفجار السكاني وانتشار التعليم وفلسفة « التنوير » وتقدم طرق المواصلات الذى ربط بين اقطاعات فرنسا (اماراتها ودوقياتها وكونشياتها أو « سنجقيات ») التى حافظت على نظمها وتقاليدها البالية المتوارثة عن العصور الوسطى بما جعل من فرنسا عدة دويلات تعددت فيها

المقاييس والموازين والمكاييسل وقامت بينها الحواجز الجمركية وتضاربت فيها القوانين ، وبينما حافظ شمال فرنسا على تقاليد كان جنوبها يحكمه القانون الرومانى .

وعندما نتحدث عن انحطاط الارستقراطية (أى طبقة النبلاء) منذ ظهور الملكية المطلقة ، انما نقصد ان الملوك الأقوياء ، وكان اخرهم لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥) ، سحبوا من النبلاء أهم مصادر قوتهم السيادية مثل تحصيل الضرائب وتجنيد العسكر وسك العملة وتصريف العدالة ، ولكن ابقوا لهم على امتيازاتهم و « حقوقهم » الاقتصادية وعلى وضعهم الاجتماعى .

وكان عدد النبلاء قبل الثورة الفرنسية ٣٥٠.٠٠٠ نبيل (أى ١٣ من عدد السكان) وكانوا هم الطبقة الثانية تحت النظام الملكى بعد رجال الدين ، ولكنهم ظلوا الطبقة الأولى فى حكم البلاد . وكانوا يملكون خمس أراضى فرنسا ، ولكن نسبة أراضى النبلاء كانت تختلف من منطقة الى منطقة ، ففي الغرب بلغت نحو ٦٠٪ ، وفى بورجونيا نحو ٣٥٪ ، وفى الشمال ٢٢٪ ، وفى بيكاردى وأرتوا ٣٢٪ ، وفى الوسط ١٥٪ . ومن بين هؤلاء النبلاء كان هناك نحو ٤٠٠٠ نبيل كانوا نبلاء بلاط يعيشون فى فرساي فى معية الملك على كرم معاشاته وعلى مرتباتهم العسكرية حياة البذخ الشديد . ومن النبلاء من كانوا يتزوجون من بنات البنوك والبورجوازيين المليونيرات .

وكانت للنبلاء بعض الامتيازات الطبقية مثل حق حمل السيف ، وحجز مكان فى الكنيسة ، وحق الافلات من الاعدام اذا لم ينفذ حكم الاعدام شنقا ، وحق الاعفاء من بعض الضرائب المفروضة على عامة الناس ، وحق الاعفاء من سخرة الطرق ، وحق ايواء المحاربين ، وحق الصيد ، وحق الدخول على رؤساء الجيش والكنيسة

والادارة والقضاء . ومن كانت لهم اقطاعيات منهم كان لهم حق جباية بعض الضرائب من الفلاحين ومشاركتهم في محاصيلهم بدعوى ملكيتهم لحق الرقبة أبا عن جد . وكان هناك نبلاء بلا اقطاعيات كما ان بعض العامة كانوا يملكون اقطاعيات بعض النبلاء .

وكانت طبقة النبلاء منقسمة على نفسها منذ المناوشات البرلمانية التي حاول بها النبلاء الحد من سلطات الملك المطلقة أيام لويس الرابع عشر وفشلوا . وكان نبلاء الريف الرجعيون أكثر النبلاء حرصا على أحياء الاستقلال الاقطاعي ومقاومة الحكومة المركزية . وكان بعض نبلاء البلاط مستنيرين ومتفهمين لمصالح الشعب . أما الطبقة الثالثة بجميع شرائحها فكانت متحدة ضد الامتيازات الارستقراطية وضد معاشات النبلاء .

أما رجال الدين فقد كان عددهم ١٢٠.٠٠٠ وكانوا يلقبون انفسهم بالطبقة الأولى في المملكة وكانت لهم امتيازات سياسية وقانونية وضريبية وكانت قوتها الاقتصادية من تحصيل ضريبة العشور dime ، وهي نوع من الزكاة في الدين المسيحي كانت تدفع غينا أو نقدا أما للكنيسة وأما للنبلاء بحسب الحالة على غلة الأقطان أو ريع العقارات .

وكان رجال الدين (الكنيسة والأديرة والأفراد) يملكون أطيانا وعقارات كثيرة في الريف والحضر ويحصلون ايجارات تزداد قيمتها مع الزمن . وكانت أملاكهم في الريف تتجاوز أملاكهم في المدن . وقد قدر فولتير ريع أملاك رجال الدين بمبلغ ٩٠ مليون جنيه ، أما نيكرو ، وهو معاصر للثورة الفرنسية فقال أنه ١٣٠ مليون جنيه . وكانت أكثر هذه الأطيان قطعاً صغيرة قليلة المحصول ، وكانت مساحتها الاجمالية تقدر بنحو ١٠٪ من مساحة أرض فرنسا،

متراوحة بين ٢٠٪ و ٥٪ في مختلف أقاليم فرنسا . وكانت ضريبة « الديم » أى العشور ، نسبة من المحصول أو من البهائم تبلغ نحو ١٠٪ يدفعها الحائز لصاحب الحق فى العشور . وكانت تختلف من محصول الى محصول بحسب النوع ، وقدر دخلها بمبلغ يتراوح بين ١٠٠ و ١٢٠ مليون جنيه يضاف اليها ريع الأقطان والعقارات ، وهو نفس القدر تقريبا . أما مصاريف الكنيسة فكانت أساسا من رسوم تسجيل المواليد والوفيات والتعميد وشعائر الدفن ومختلف وجوه الحالة المدنية . ومن الاحسان ومن التعليم . وكان عدد الرهبان يتراوح بين ٢٠.٠٠٠ و ٢٥.٠٠٠ راهب ، أما عدد الراهبات فكان ٤٠.٠٠٠ راهبة . أما القساوسة فكان عددهم نحو ٥٠.٠٠٠ قسيس . وفى ١٧٨٩ كان هناك فى فرنسا ٧٤٠ ديرا للرجال و ٢٥٣ ديرا للنساء .

وقد بلغ من فساد الكنيسة انه كانت هناك اديرة مهجورة ينفق عليها بالاسم فقط . وقد ساءت سمعة كثير من رجال الدين بسبب خراب الذمة حتى داخل الكنيسة نفسها . وكان رجال الدين فيهم الفقراء كالقساوسة والوعاظ وفيهم الاغنياء كالأساقفة والكرادلة . ورغم معاناة أكثرهم وظهور تعاطفهم مع الطبقة الثالثة ظل رجال الدين فى مجموعهم منحازين لطبقة النبلاء .

كانت فرنسا قبيل الثورة الفرنسية لا تزال بلدا زراعيا بصفة أساسية ولذا كانت البورجوازية فيها اقلية واضحة ، أما العمود الفقرى للطبقة الثالثة فكان من الفلاحين واجراء المدينة . وقد قادت البورجوازية الفرنسية هذه الطبقات الشعبية فى الثورة الفرنسية واستفادت منها أكثر مما استفادت الجماهير نفسها ، وهذا معنى قولهم ان الثورة الفرنسية كانت ثورة بورجوازية ، أى ثورة الطبقات المتوسطة ، العليا والوسطى والصغيرة .

وكانت البرجوازية الفرنسية مكونة من :

١ - ذوى الأملاك التى يعيشون على ريعها ، وهذه كانت شريحة سلبية .

٢ - الاسطوات وأصحاب الدكاكين ، وهذه كانت البرجوازية الصغيرة والمتوسطة ، وكانت مرتبطة بالانتاج التقليدى والتوزيع التقليدى ، وهذه كانت تمثل ثلثى حجم البرجوازية .

٣ - رجال الأعمال ، وهم البرجوازية الكبيرة ، وكانت نشيطة تكسب بين ١٠٪ و ٢٠٪ من دخل البرجوازية ، ومعها المقاولون ومديرو المشروعات .

٤ - أصحاب المهن الحرة ، واكثرهم من رجال القانون .

٥ - الموظفون .

٦ - الضباط . (فى جرينوبل مثلاً كان هناك من ذوى الأملاك ٢١ر٩٪ ومن رجال القانون ١٣ر٨٪ ومن التجار ١٧ر٦٪ من حجم البرجوازية) .

أما البرجوازية الكبيرة فكانت بورجوازية المال والتمويل ، وكان منهم البنوك وموردو الجيش وموظفو المالية ومؤسسو الشركات المساهمة ومقرضو الدولة ، وملتزمو « العهدة » Fermiers Generaux الذين كانوا يشترون من الدولة حق تحصيل الضرائب غير المباشرة .

هذه الشريحة من البرجوازية كانت تصاهر الارستقراطية وكانت احياناً تحصل على الالقاب بقوة المال . وكان ملتزمو العهدة اول من ذهب الى المقصلة فى ١٧٩٣ بسبب تعاطفهم مع الارستقراطية ،

رغم انهم سايروا الثورة فى بداية الامر، فلما سيطرت عليها الطبقات الشعبية انقضوا عليها .

وكانت اقوى شريحة فى البورجوازية التجارية هم تجار الجملة فى الموانى المطللة على المحيط الاطلسى مثل بوردو نانت ولا روشيل ، بسبب تجارتهم مع أمريكا (الانثيل وسان دومينجو والمارتنيك) وتجار الجملة فى مرسيليا المطللة على البحر المتوسط ، بسبب تجارتهم مع الشرق ، ولا سيما مع الشام . هؤلاء جمعوا المليارات الفاحشة وكانوا يدعمون قادة « الطبقة الثالثة » فى صراعهم مع النبلاء اول الامر ، فقد كانوا من دعاة الملكية الدستورية ، ثم انحازوا الى الجيرونديين ، وهم الشوار المعتدلون ، فأصابتهم نكبة الجيرونديين عام ١٧٩٣ .

هذه الاجنحة البورجوازية المتعددة فى الثورة الفرنسية ، كانت فى بداية الثورة ، أى فى ١٧٨٩ ، متفقة على شىء واحد وهو ضرورة الغاء الامتيازات العرقية وتقويض النظام القديم . وما ان تم ذلك حتى ظهر التعارض بين مراميها من الثورة ، وانعكس ذلك فى اتجاهات الثورة المتصارعة كما بين البير سوبول ، وفى غزارة ما أريق من دماء .

٦ - ثورة الفلاحين

فلنتحدث الآن عن فقراء المدينة وفقراء الريف ابان الثورة الفرنسية .

فى ١٧٨٩ كان العامل الفنى يكسب ٢٠ سو Sou يوميا (فى الفرنك مائة سو) ، وقد يرتفع أجره اليومى الى ٣٠ سو و ٤٠ سو . وكان رغييف البعش زنة رطل واحد يساوى ٢ سو . وذلك يعنى أن اجر اليوم كان يساوى عشرة أرطال من الخبز ، أى نحو ٤ كيلو جرام ، فى عام الثورة الفرنسية .

وفى عام ١٧٨٨ عرفت فرنسا أسوأ محصول من القمح مما رفع أسعار القمح حتى فى الريف . وعرف الشعب الفرنسى الجوع والبطالة فى المدينة والريف على السواء ، بينما كانت هناك طبقات انتفعت من ارتفاع سعر القمح كملاك الأتليان الذين كانوا يأخذون

● نشرت بجريدة الامرام
بباريخ ١٩/٨/١٩٨٩ .

نسيبهم عيناً من المحصول وكجبة العصور والسادة الاقطاعيين والتجار وكان هؤلاء ينتمون الى الارستقراطية أو البورجوازية أو رجال الدين .

وفى ٢٧ ابريل ١٧٨٩ قامت المظاهرات العنيفة فى ضاحية سانت انطوان المجاورة لسجن الباستيل احتجاجاً على خطب انتخابية القاها رجل يدعى ريفيون Revellon صاحب مصنع ورق ملون وآخر اسمه هنريو Henriot صاحب مصنع بطاس ، نددا فيها بارتفاع اجور العمال وزعما ان العامل يستطيع ان يعيش مرتاحاً على ١٥ سو يومياً . وفى ٢٨ ابريل ازداد الشغب واحرق المتظاهرون بيت كل منهما . واسفرت المصادمات مع البوليس عن سقوط عدد من القتلى وكان هذا اول يوم من أيام الثورة سبق الهجوم على الباستيل ، وكانت أسباب الهياج المباشرة اقتصادية لا سياسية .

وكان فقراء المدينة مثل فقراء الريف يرون ان وقف الغلاء لا يكون الا بتحديد الأسعار جبرياً ، بينما كان التجار يرفضون مبدأ التسعيرة الجبرية من أساسه .

وفى عام ١٧٨٩ كان سكان فرنسا نحو ٢٧ مليون نسمة منهم نحو ٥ ملايين يعيشون فى المدن ونحو ٢٢ مليوناً يعيشون فى الريف ولم تكن ثورتهم مجرد ثورة اقتصادية وانما كانت أساساً لالغاء الامتيازات الاقطاعية التى كان يتمتع بها النبلاء ورجال الدين . وقد نجحت ثورتهم عندما قررت الجمعية الوطنية الغاء الامتيازات الاقطاعية فى جلسة ٤ أغسطس ١٧٨٩ .

وبوجه عام لم يكن الفلاحون الفرنسيون أسوأ حالا من نظرائهم فى البلاد الأخرى مثل بولندا وروسيا ووسط أوروبا . كان الفلاحون الفرنسيون يملكون نحو ٣٥٪ فى المتوسط من مجمل أراضى فرنسا (ما بين ٢٢٪ فى بعض المناطق و ٧٠٪ فى مناطق أخرى) .

فقد كانوا يكافحون عبر الأجيال ليشتروا حريتهم وجقوقهم
بالمال من النبلاء . ولكن أغلب أراضي الفلاحين كانت لا تدر كثيرا
لأنها كانت تقع في الغابات وفي الجبال وفي المراعي ولضآلة
مناحاتها المفتتة .

ومع وجود هذا الفلاح الحر المالك كان هناك مليون من رقيق
الأرض ، وكان أولادهم لا يرثون متاع الأب الا اذا دفعوا لمالكهم النبيل
فرضة . وفي ١٧٨٩ اتهم الارستقراط بالتآمر لتخزين القمح والغلال
لسمحق العامة .

وفي أول يوليو كتب مارا Jean-Paul Marat منشورا بعنوان
« بيان للشعب أو كشف القناع عن الوزراء » يقول فيه : « أي اخوتي
المواطنين ! لاحظوا دائما سلوك الوزراء لتحددوا سلوككم . ان
هدفهم هو حل جمعيتنا الوطنية ، وسبيلهم الوحيد هو الحرب
الأهلية . ان الوزراء ينفخون في نار الفتنة ! .. انهم يحيطونكم
بجهازهم الضخم من الجنود والحرب ! » .

وعلى غرار ثورة باريس التي انتهت بسقوط الباستيل انتشرت
الفتن في مدن الاقاليم طوال شهر يوليو في روان Rouen وفي أوك
وفي بوج Bourge وفي ديجون Dijon وفي مونتوبان
Montauban ثار الناس في كل بلد وطردوا أعضاء المجلس
البلدي كما حدث في استراسبورج Strasbourg أو قيبدو
حركاتهم بلجنة موسعة كما حدث في ديجون وغيرها .

استولت اللجان الثورية على البلديات في بوردو Bordeaux
ومتز Metz ونانسي Nancy وانجيه Anger ورين Rennes
وفي متز ونانسي وجدت اللجان الثورية مقاومة اجتماعية ، وفي
مونتوبان ونيم Nimes حاد من سيطرة اللجان الثورية العراك بين
البروتستانت والكاثوليك . وفي ليموج Limoges كانت المقاومة

شخصية ، وفي ليون Lyon و تروا Troyes جاءت المقاومة من الثورة المضادة . وفي بعض البلاد لم تحدث ثورة على المجالس البلدية لشقة الأهالي في اغضائها كما حدث في تولوز Toulouse ، أو لأن الجيش والمحاكم ساندت الثوار كما حدث في اكس Aix

وتشبهها بما حدث في بلدية باريس تكونت في كل مكان ميليشيات بوجوازية من الحرس الوطني لتخدم اللجان البلدية الثورية . وفي تولوز تكون حرس وطني دون ان تكون هناك ثورة بلديات ، وفي البى Albi أصبحت الميليشيات القديمة هي نفسها الحرس الوطني .

وايا كان شكل ثورة البلديات ، فالنتيجة كانت واحدة في كل مكان ، وهي انتهاء سلطة الملكية والحكومة المركزية ، وتسليم البلديات كل السلطات بعد ان كان الحكم المطلق قد قضى عليها . وتوقفت جباية الضرائب . وفي شهادة احد المعاصرين : « لم يعد هناك ملك ولا برلمان ولا جيش ولا بوليس » .

وكان مجدد الاضطرابات في كل مكان هو قلة القمح وغلاء ثمنه . فبدأت البلديات بفرض التسعيرة الجبرية ، وبجمع التموين ولو بالمصادرة ، ونهب الأهالي تجار الغلال وانتشرت الاشاعات عن غزو أجنبي : قيل ان الانجليز نزلوا في ميناء برست Brest على المحيط الأطلسي من جهة بحر المانش ، وان مملكة بيدمونت Piedmont في شمال غرب ايطاليا تتحرك لغزو فرنسا من جهة جرينوبل Grenoble وتحدث الناس عن مؤامرة ارسنقراطية لقمع حركة التحرير الشعبي ، فانتشر الرعب الأعظم في نهاية يوليو ١٧٨٩ وراقب الأهالي الطرقات ، وكان الحرس الوطني يحفظ النظام :

ومنذ اعلان الغاء « مجلس الطبقات » وانشاء « الجمعية الوطنية » في ١٧ يونيو وقسم ملعب التنس في ٢٠ يونيو وسقوط الباستيل

فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ ، سقطت السلطة تماما فى يد الطبقات المتوسطة التى كانت تتألف منها الطبقة الثالثة ، وسواء فى باريس أو فى الأقاليم سيطرت البورجوازية وحرسها الوطنى على البلديات ومن خلالها على مقدرات فرنسا .

فماذا اصاب الفلاحون من كل ذلك ؟ لاشىء . فقد بقيت الامتيازات والحقوق والقوانين والاعراف الاقطاعية على حالها ، فلم يلمس شىء منها .

ولم يكن الريف أقل بؤسا من المدينة فازداد فيه الشحاذون والجوع وانتشرت البطالة وعم الغلاء . وكثر اللصوص وقطاع الطرق ، وغدت الطرق غير آمنة . وحتى منذ الربيع بدأ تملل الفلاحين من نير النبلاء يأخذ شكلا ملموسا . فأخذ الفلاحون فرادى وجماعات يقتلون حمام النبلاء ويدمرون أبراجه لأن الحمام كان يلبثهم محصولهم من القمح والغلال . كذلك أخذوا يقتلون أرائب النبلاء التى كانت تخرب محاصيلهم ، وأخذوا يصطادون فى غاباتهم وكانت هذه من الجرائم الكبرى .

وكانت مطالب الفلاحين مركزة على إلغاء الامتيازات الاقطاعية . وحين ادركوا ان ثورة باريس والمدان الفرنسية لم تعد عليهم بشىء تصاعد عصيانهم الى تحد سافر للنبلاء . وسرت بينهم اشاعة تقول ان هناك مؤامرة ارسنقراطية لتجويع الشعب بتنظيم عصابات من المجرمين لحرق أجران الفلاحين وتدمير محاصيلهم وزراعاتهم . فساد الرعب الأعظم فى الريف الفرنسى ، وسلح الفلاحون أنفسهم بأدوات الزراعة وهاجموا قصور النبلاء وطالبوا النبلاء بتسليمهم الوثائق المزعومة لامتيازاتهم الاقطاعية لكى يحرقوها فى ميدان القرية ، فمن رفض منهم تسليم هذه المستندات أحرقوا قصره وشنقوه . وتكونت فى ريف فرنسا لجان وميليشيات من الفلاحين . ورغم تحذيرات

ديرايو للفلاحين من تصديق الاشاعات عمت الثورة كل ريف فرنسا باستثناء مقاطعات بريتانى والالزاس واللورين . وعرفت ثورة الفلاحين ومهاجمة قصور النبلاء باسم « جاكيرى » Jacquerie

كل هذا فى أواخر يوليو ١٧٨٩ . فلا غرابة اذن ان اصبحت طائفة من النبلاء بالرعب وعمدت طائفة أخرى الى مكر الثعالب لتفريغ غضب الفلاحين . وكانت ليلة ٤ أغسطس ١٧٨٩ ليلا انتهت فيها جلسة الجمعية الوطنية فى الساعة الثانية صباحا بقرار شامل بإلغاء الامتيازات الاقطاعية وإعلان حقوق الانسان والمواطن ، الذى جعلته الجمعية التأسيسية بمثابة ديباجة للدستور الذى كانت تضعه .

وقد ظهر أول تعارض فى المصالح بين الفلاحين من جهة وبين البورجوازية المدنية والريفية من جهة أخرى فى موقف الجمعية الوطنية والمجالس البلدية والحرس الوطنى من ثورة الفلاحين وحركة « الجاكيرى » لأن البورجوازية كانت تملك الأراضى مثل النبلاء ، ولذا تكفل الحرس الوطنى بقمع حركات الفلاحين بالسلاح .

أما الجمعية الوطنية فقد كانت ترغب فى قمع حركة الفلاحين ومنع استيلائهم على اطيان النبلاء ، لأن اعضاءها كانوا أيضا من ملاك الأراضى . ولكنها خشيت من استعمال العنف وخشيت من تكليف الملكيين والجيش الملكى بقمع ثورة الفلاحين تحسبا من عودة السلطة القديمة الى الحكم فقررت فى جلسة ٤ أغسطس ١٧٨٩ إلغاء الامتيازات الاقطاعية رسميا بوصفها امتيازات مغتصبة « ان الجمعية الوطنية تلغى النظام الاقطاعى إلغاء كليا » ولكنها عندما ناقشت « حقوق » النبلاء فى جباية نصيبهم من ربح الأطيان بحجة ملكيتهم لحق الرقبة ، اسندت عملية التحقق من هذه الحقوق الى الدوق ايجويون d'aiguillon اكبر ملاك المملكة وكان معروفا بميوله الليبرالية ، وبهذا تفرقت

صفوف النبلاء واخذوا يتبارون في التنازل عن امتيازاتهم في جلسة
٤ أغسطس .

قدم الدوق ايجويون اقتراحا ندد فيه بالاقطاع وبكى فيه على
الفلاح. وأشار بأن الحل هو ان يتنازل النبلاء عن حقوقهم في ملكية
أراضي فرنسا وجباية نصيبهم من ريعها على أن « يشتري » الفلاحون
هذه الحقوق وما يترتب عليها بشروط ميسرة أو « متهاودة » .

بدأت جلست ٤ أغسطس ١٧٨٩ بجملة اقتراحاته قدمها
الفيكونت ذى نواى Vicomte de Noailles هي :

١ - الغاء كافة الامتيازات الضريبية ٢ - الغاء السخرة وكافة
خدمات العبودية الشخصية « دون شراء أى دون دفع مقابل » .
٣ - شراء الحقوق الفعلية على الأرض وليس الحقوق الوهمية
أو الصورية . وأيده فى ذلك الدوق ايجويون بحرارة شديدة ،
ووافقت على ذلك الجمعية الوطنية . كذلك الغى حق النبلاء فى احتكار
حق الصيد فى الغابات وفى الأنهار كما تقرر ت إزالة أبراج حمام
النبلاء التى كانت تلتهم غلال الفلاحين ، والغيت حقوق النبلاء فى
اقامة العدالة فى مناطقهم . واقترح أحد النبلاء ان تتنازل الكنيسة
عن العشور التى كانت تجبيها من الفلاحين فأخرج بذلك رجال الدين
الذين ظهروا فى مظهر المتقاعس عن نجدة الشعب الجائع ، فأعلن
أسقف نانسى ان الكنيسة تتنازل عن العشور .

ووصل مائتان من النواب ليطالبوا الجمعية الوطنية بالموافقة
على مشروع قانون بالنص على ضرورة احترام الملكية « بتسكين اللام »
والوفاء بالالتزامات . وكان هذا بمثابة تهديد غير مباشر لحركة احراق
قصور النبلاء « البجاكيرى » ولكن الدوق ايجويون خطب فى حرارة
منددا بظلم الاقطاع ، بل وتسائل ان كان الفلاحون محرقو القصور

حقا مذنبين . لقد كان الدوق ايجيون كالمليونير الذكى الذى يضحى
بـ نصف ثروته لينقذ النصف الثانى .

وفى الساعة الثامنة مساء وافقت الجمعية الوطنية على الغاء
الاقطاع بعد ألف سنة من استقراره فى فرنسا .

وبعد ان انتهت كلمات النبلاء اخذ نواب الشعب الكلمة .
ووقف نائب من بريتانى اسمه كيرنجال Kerengal لم يسبق له
ان اعتلى المنصة قبل ذلك ولم يحدث له ان اعتلاها بعد ذلك ، وقرأ
نحو عشرين سطرا اتهم فيها الجمعية الوطنية بالتقصير لأنها لم تنتبه
مسبقا لاحتراق القصور ولم تحطم ما فيها من أسلحة مدمرة هى تلك
الوثائق والعقود الفظيعة التى تسوى البشر بالبهايم وتربط الانسان
والحيوان معا فى المحرثات قال :

فلنكن عادلين : اتونا بهذه الصكوك هذه الشواهد على همجية
ابائنا .

« من منا لا يضرم النار فى هذه الوثائق الدنيئة من باب
التكفير ؟ » . لاتضيعوا لحظة واحدة فكل يوم من التأخير سوف
يسبب حرائق جديدة ان سقوط الامبراطوريات لا يحتاج لكل هذه
الضجة للاعلان عنه . الا تريدون أن تشرعوا القوانين لفرنسا
المخربة ؟ »

واستقر النذير فى وجدان السامعين .

وقال نائب آخر من بريتانى أن هناك حقوقا اقطاعية عجيبة
وبربرية كحق النبيل فى أن يقرر بطن اثنين من رقيقه كلما عاد من
الصيد وأن يغوص بقدمه فى جسد هما الدامى !

ووقف نائب من الأرياف اسمه دي فوكو De Foucault لشرح النبلاء وطالبهم قبل الكلام في التنازل عن امتيازاتهم الاقطاعية ان يضمنوا بمعاشاتهم ومرتباتهم التي يتقاضونها من الملك وهي من دم الشعب ، وبدلا من ان يرفعوا ضياعهم يتركونها للخراب حتى يقيموا في بلاط الملك في فرنسا وبالفعل استجاب اثنان من النبلاء لدعوته واعلنا انهما على استعداد للتضحية بكل شيء ؟ .

وتحمس دي بوهارنيس De Beauharnais واقترح ان يسدئ النبلاء وعامة الشعب في العقوبة وان تكون الوظائف مفتوحة للجميع وطالب نائب بان تكون العدالة بالمجان ، وطالب دي روشفوكو De Rochefoucauld بمعاملة أكثر انسانية للعبيد من الزنوج . وهكذا . . وهكذا . .

وهنا لاحظ رئيس الجمعية الوطنية ان كل الطبقات تكلمت معلنة عن تنازلاتها الا رجال الدين . فتكلم اسقف نانسي باسم اساقفة فرنسا مطالبا الا تتول اموال شراء حقوق النبلاء الى النبلاء انفسهم بل ان تستثمر في مشروعات ذات جدوى . وطالب اسقف شارتر Chartres بالغاء « حق الصيد » كانت تنازلات الكنيسة كلها على حساب النبلاء . فقال دوق شاتليه لمن حوله مبتسما : « ان الاسقف يحرمنا من حق الصيد وأنا سأحرره من حقه في العشور وقد كان .

وحين رفعت هذه الجلسة التاريخية في الثانية صباحا اعلنت الجمعية الوطنية ان لويس السادس عشر هو معيد الحرية الى فرنسا كل هذا حدث في غمرة الحماس الذي يدعى بسخاء القلب وحب الحرية والمساواة والانحاء ولكنه في واقع الامر حدث تحت ضغط ثورة الفلاحين حتى يعود النظام الى الريف . ولم يكن خاليا من مكر الثعالب والمناورة للتقاط الانفاس .

كل هذا حدث شفويا ليلة ٤ أغسطس ولم تتم صياغة القوانين الا بين ٥ و ١١ أغسطس وعند الصياغة حدثت بعض التراجعات فناورت الكنيسة لتسحب تنازلها عن العشور . ورغم اتخاذ القرار : ان الجمعية الوطنية تلغى كلية النظام الاقطاعي الا ان الجمعية الوطنية لم تلزم النبلاء باثبات حقوقهم القانونية على الارض التي يأخذون بموجبها الفرضة من الفلاحين . بعبارة أخرى تحرر الفرنسي في ٤ أغسطس من التزاماته الشخصية ولكن أرضه لم تحرر .

وعندما ادرك الفلاحون ان الاقطاع الغى بالاسم فقط هاجت الخواطر ونظم الفلاحون المقاومة ورفضوا دفع حقوق الانتفاع الوهمية وكان على الفلاحين انتظار الجمعية التشريعية والمؤتمر الوطني ليجنوا ثمار ٤ أغسطس .

وفي جلسة ٤ أغسطس صباحا كانت الجمعية الوطنية قد قررت ان تسبق الدستور ديباجة هي اعلان حقوق الانسان والمواطن ، وذلك رغم اعتراضات المعتدلين . فالأب جريجوار l'abbé Grégoire امثلا طالب بانتهاء الدستور بوثيقة مماثلة هي اعلان واجبات الانسان وكانت مناقشة المبادئ بطيئة وعسيرة مثال ذلك مناقشة حرية الرأي والعقيدة ففي موضوع حرية العقيدة طالبت الكنيسة بان ينص على أن يكون للدولة دين رسمي هو المسيحية الكاثوليكية ، ولكن ميرابو عارض هذا بشدة على أساس أن هذا يتعارض مع حرية العقيدة . وكانت مناقشات « حقوق الانسان » متأثرة الى حد كبير بافكار فلاسفة التنوير ، فولتير Voltaire . ديدور Diderot ومونتسكيو Montesquieu ودالمبير D'alembert ألخ وبفلسفة روسو Rousseau ولذا جاءت مبادئ هذا الاعلان لتخاطب الانسانية جمعاء وليس مجرد المواطنين الفرنسيين .

وفي ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ وافقت الجمعية الوطنية على اعلان حقوق الانسان والمواطن « الذي كان « شهادة » وفاة النظام القديم » .

فهل انتهى كل شيء ؟ كلا لم ينته كل شيء على خير لأن الملك رفض التصديق على مشروعات قوانين ٥ - ١١ أغسطس ١٧٨٩ وعلى اعلان حقوق الانسان قائلا: أنا لن أوافق على تجريد كهنتي ونبلائي من ثروتهم . ولم يكن هناك ما يرغمه على التصديق الا اشتعال الفتن من جديد .

واعاد لويس السادس عشر نكر وزيرا للمالية ولكن نكر فشل في اصلاح مالية البلاد لتوقف الناس عن دفع الضرائب وطرح نكر قرضا بمبلغ ٣٠ مليون جنيه ولكن الاكتتاب لم يجمع بعد عشرين يوما الا ٢٥ مليون جنيه .

بدأت مناقشات الدستور بعد اعلان حقوق الانسان واقترح البعض انشاء مجلس نبلاء على غرار مجلس اللوردات الانجليزي وان يكون للملك حق الفيتو على مشروعات القوانين . ولكن سيز Sieyes اعترض على أي نوع من أنواع الفيتو حق الاعتراض قائلا لا يمكن لارادة فرد أن تتغلب على الارادة العامة . واذا امكن للملك ان يمنع اصدار القانون فان ارادته الخاصة تجعله ينتصر على الارادة العامة . ان اغلبية السلطة التشريعية يجب ان تعمل في استقلال عن السلطة التنفيذية . والفيتو المطلق أو المعطل للقوانين ليس الا خطاب كاشيه ، أي أمر اعتقال موجه ضد الارادة العامة .

٧ - زواج فيجارو أو حق الليلة الأولى

كان بين الامتيازات الطبقية التي يتمتع بها نبلاء فرنسا أو بعضهم قبل الثورة الفرنسية امتياز غريب اسمه « حق الليلة الأولى » Jus Prima Noctis ، وهو حق النبيل في ان يفض بكاره اية عروس من رقيق أرضه ليلة زفافها . وقد كان من واجبات كل نبيل - الى جانب حماية ارقائه وكسوتهم في ايام الأعياد - ان يدفع « الدوطة » (المهر) لكل من يتزوجون من ارقائه . وبالطبع كان كل زواج لا يتم الا بموافقة النبيل .

وقبيل الثورة الفرنسية عرضت في باريس كوميديا اسمها « اليوم المجنون أو زواج فيجارو Le Mariage de Figaro بقلم بومار شيه Beaumarchais صاحب المسرحية الشهيرة « حلاق اشبيلية » Le Barbier de Seville وقد بلغ من شعبية « زواج فيجارو » ان

● نشرت بجريدة الامرام بتاريخ ١٩٨٩/٨/٢٦ .

الموسيقار العظيم موتسارت ألف أو - على الأصح - لحن
اوبرا في موضوعها باسم « زواج فيجارو » عام ١٧٨٦ ، كما ان شهرة
« حلاق اشبيلية » جعلت الموسيقار الايطالى العظيم روسينى يضع
اوبرا « حلاق اشبيلية » عام ١٨١٦ . وفى الاحتفال بمرور مائتى
عام على الثورة الفرنسية فى ١٤ يوليو ١٩٨٩ كانت فرقة الكوميدى
فرانسيز تعرض « زواج فيجارو » فى باريس وفى فرساي معها
بالتبادل .

وحين عرضت « زواج فيجارو » فى باريس قبيل الثورة
الفرنسية واثناها ، كانت بمنزلة فضيحة كبرى للنظام الاقطاعى
وهيجت الخواطر على طبقة النبلاء ، واعتبرت اداة خطيرة لاثارة مشاعر
الناس على الارستقراطية المنحلة ، تماما كما كانت تفعله فى بلادنا
الافلام والروايات التى كانت تصور استغلال بعض الباشوات فى
عهد الملكية لمالهم وسطوتهم فى اقتراض اعراض الفلاحات الفقيرات
فى عزبهم وضياعهم . ولذا فقد لاقت « زواج فيجارو » منذ تأليفها
صعوبات كثيرة من السلطة حالت دون عرضها مرارا بل واستدعت
اجراء تعديلات فيها حتى بأذن الرقيب بتمثيلها .

أما مؤلفها - وهو بومارشيه فقد ولد - فى باريس عام ١٧٣٢
وتوفى عام ١٧٩٩ عن سبعة وسبعين عاما . وكان اسمه الاصلى بيير
أو اغسطين كارون . Pierre-Augustin Caron وكان الأب يعمل
ساعاتيا من طبقة الاسطوات ، وبعد ان تعلم ولده تعليما عاما بدأ
يعمل فى دكان ابيه فى ١٧٤٥ . وفى ١٧٥٣ اخترع بيير أو غسطين
جهازا لضبط الساعات عرضه على لابوت Lepaute ساعاتى الملك
لويس الخامس عشر فتقدم هذا به لأكاديمية العلوم على انه اختراع
من صنعه ، ولكن الأكاديمية اعترفت فى العام التالى (١٧٥٤) ان

الاختراع كان من عمل بيير أو غسطين كارون . وهكذا اشتهر اسمه
فتلقى طلبات عديدة من البلاط الملكي ، وقدموه الى ملكة فرنسا .

وفى ١٧٥٥ تعرف بومارشيه الى أسرة فرانكيه Franpuct
وكان فرانكيه هذا يعمل مراقبا فى مكتب الخاصة الملكية فباع لكارون
وظيفته لاشتداد وطأة المرض عليه . فلما مات فرانكيه فى العام التالى
(١٧٥٦) تزوج كارون من ارملة ، وغير اسمه فسمى نفسه كارون
دى بومارشيه Caron de Beaumarchais على اسم ضيعة بومارشيه
التي كانت تملكها زوجته ، وليندس فى مجتمع الارستقراط الذين
كانوا غالبا ما يحملون لقب اقليمهم أو مكان ضياعهم وفى ١٧٥٧
ماتت زوجته .

وفى ١٧٥٩ دعى بومارشيه لتعليم الموسيقى لبنات الملك لويس
الخامس عشر ، وعلمهن العزف على آلة الهارب التي كان يتقنها .
وفى نفس العام تعرف الى البنكير بارى ديفرنى فاتخذته شريكا له وفتح
له هذا باب الثراء . وفى ١٧٦١ اشترى وظيفة سكرتير ومستشار
للملك ، وبذلك دخل رسميا فى طبقة النبلاء وسمح له رسميا بان
يحمل لقب دى بومارشيه . ثم اشترى وظيفة «مدير الصيد» وكانوا
فى تلك الأيام يشترون الوظائف العامة . وفى أواخر عهد لويس
الخامس عشر سجن فترة وجيزة هو والدوق دى شون لشجارهما
على صداقة احدى الممثلات . وكذلك جرد فترة وجيزة من حقوقه
المدنية لمحاولته رشوة قاض كان ينظر فى نزاع مدنى بينه وبين
أحد شركائه حول استغلال احدى الغابات . وفى أوائل عهد لويس
السادس عشر عرضت له الكوميدي فرانسيز « حلاق اشبيلية »
فى ١٧٧٥ .

وفى الفترة من ١٧٧٦ حتى ١٧٨٠ قام بومارشيه بنشاط تجارى
مكثف مع أمريكا كان محوره توريد السلاح للثوار الأمريكين فى

وحقق العرض الأول أكبر إيراد في تاريخ المسرح الفرنسى وهو ٦٥١١ جنيها .

وهنا بدأ فصل جديد في هذه السيرة العاصفة لكوميديا « زواج فييجارو » . فثارَت المناقشات الحامية في الصحف وحرم كبير اساقفة باريس مشاهدتها أو قراءتها على المؤمنين كما حرم عليهم قراءة فولتير .

وفي ٦ مارس ١٧٨٥ نشر بومارشيه خطابا مفتوحا في « الجورنال دى بارى » Journal de Paris يرد فيه على احد نقاده واسمه سيوار Suard وهو عضو في الاكاديمى فرانسيز ، قائلا : انه لن يرد على الحشرات بعد أن استطاع قهر السباع والتمور . ونجح سيوار في اقناع السلطات بأن السباع والتمور التى يقول بومارشيه انه قهرها هم أكبر رهوس في البلاد ولاسيما الكونت دى بروفانس حفيد لويس الخامس عشر الذى أصبح لويس الثامن عشر بعلمه سقوط نابوليون في ١٨١٤ . فسجن بومارشيه في سان لازار لمدة خمسة أيام فقط عومل فيها معاملة المجانين أو الشباب الفاسد لتأديبه وقام خادم بضربه على عجزه حسب التقاليد .

وهنا كتبت الصحافة عن طغيان السلطة وطالب بومارشيه بمحاكمته فتراجع الملك ليعتذر دون ضياع لهيبته فمنح بومارشيه ٨٠٠٠ ر. ٨٠٠٠ جنيه تعويضا له عن خسارته في تجارته مع ثوار أمريكا . كذلك قدمت له قصر الثريانون مسرحية « حلاق اشبيلية » ، ومثلت فيها الملكة ماري انطوانيت دور روزين ومثل فيها الكونت دارتوا شقيق الملك الأصغر دور فييجارو . وفي ١٨ أغسطس ١٧٨٥ قدمت الكوميدي فرانسيز « زواج فييجارو » بعد ان توقف عرضها

منذ ٧ مارس وفي ١٧٨٧ قدم العرض المائة لها ، كما عرضت «زواج فييجارو» في عدد من مدن فرنسا الكبرى .

وهذا لم يمنع أن برلمان بوردو قرر في ٩ مارس ١٧٨٥ منع عرض « زواج فييجارو » وان هذا المنع استمر اربع سنوات أى حتى قيام الثورة الفرنسية في ١٧٨٩ . وكانت « زواج فييجارو » تعرض في لاهاي ولندن ووارسو كما انها ترجمت الى الهولندية والانجليزية والبولندية والروسية . وفي ١٧٨٦ قدمت أوبرا موزارت الشهيرة « زواج فييجارو » Les Noces de Figaro في فيينا .

فلما سقط الباستيل في أيدي الثوار في ١٤ يوليو ١٧٨٩ خرج بومارشيه في خمسة وعشرين رجلا مسلحا في اليوم التالي واقتحم الباستيل ثم تم تكليفه في الشهر التالي (أغسطس) بالاشراف على هدمه . ولكنه في نفس الشهر استبعد من الجمعية الوطنية من ممثلي كميونة باريس بسبب بعض الاتهامات ، غير أنه لم يلبث أن استرد عضويته في الجمعية الوطنية في سبتمبر بعد أن فند هذه الاتهامات . وفي ١٧٩١ قبلت الكوميدي فرانسيز مسرحية بومارشيه « الأم المذنبه » ولكنها لم تعرض الا في ١٧٩٢ .

وفي ١٧٩٢ توسط بومارشيه في توريد صفقة سلاح لحكومة الثورة من الخارج مكونة من ٦٠.٠٠٠ بندقية ولكنه لم ينجح في اتمام الصفقة واتهم بومارشيه في الجمعية الوطنية باحتكار صفقة السلاح بناء على اتهام وجهه اليه شابو Chabot وقبض على بومارشيه عدة أيام في أغسطس ١٧٩٢ ، ثم أفرج عنه وبذلك نجا من مذابح سبتمبر ١٧٩٢ وغادر فرنسا في نهاية سبتمبر مع تكليف بان يشحن من هولندا الى فرنسا صفقة السلاح وتردد بومارشيه بين هولندا وانجلترا وفي نوفمبر ١٧٩٢ وجه اليه المؤتمر الوطنى

شبقه • ولأنها تعلم أن فيجارو لن يستطيع الزواج من سوزان الا اذا وافق الكونت على هذا الزواج فهي لا تعتمد الى التحدى الذى يمكن أن يغضب الكونت وانما تلجأ الى الحيلة •

وترتب الكونتيسة مع سوزان وفيجارو مكيدة صغيرة توقع الكونت فى شر أعماله وتكون أقرب الى الملهاة منها الى المأساة : يرتب فيجارو عن طريق خطاب مدهسوس على الكونت تحديد موعد لقاء غرامى مع سوزان عند المساء قبل أن تبدأ أفراح العرس فى حضور الفلاحين والفلاحات •

ويحدد الكونت مبتهاجا ومشوقا موعدا فى مكان قصى من القصر تحيط به غابة من أشجار أبو فروة • وتلبس الكونتيسة ثياب سوزان وتصفف شعرها على طريقة الخدم ، وتلبس سوزان ثياب الكونتيسة وتصفف شعرها على طريقة النبيلات • وعندما يأتى المساء تلتقى الكونتيسة بزوجها فى الظلام وهى تصطنع صوت سوزان ولهجتها فى الحديث بينما يختبئ الباكون وراء الأشجار وبعد مطارحات الغرام يدخل الكونت بزوجته فى ذلك الجناح البعيد من القصر متوهما طول الوقت انه مع سوزان ولا يكتشف حقيقة الأمر الا بعد أن ينتهى كل شىء • وهنا تعنفه الكونتيسة على حنثه بقسمه القديم أيام غرام شبابهما انه قد تنازل نهائيا عن حق الليلة الأولى مع عرائس فلاحيه ، فيذوب خجلا ، ويبارك زواج فيجارو من سوزان ويعيش الكل فى « تبات ونبات » •

هذا تلخيص مغل لكوميديا « زواج فيجارو » وهو مغل لأن الكوميديا تقول أكثر من هذا فى الأحداث والأقوال • انظر مثلا الى مونولوج فيجارو فى الفصل الخامس (المشهد الثالث) ذلك المونولوج الذى أغضب لويس السادس عشر كثيرا • يقول فيجارو وهو يجول فى الظلام انتظارا لموعد الكونت مع سوزان •

« كلا يا سيدى الكونت . انك لن تغفر بها . . . لن تغفر بها أنت تظن انك عبقرى كبير لأنك سيد كبير ! . . . شرف المحتد والثروة وعلو المقام ، كل هذا مدعاة للفخار فماذا فعلت حتى تستحق كل هذه النعم ؟ كل مجهودك انك ولدت ، لا أكثر من ذلك . وفى كل ماعدا ذلك أنت رجل عادى . أما أنا ، أنا الضائع فى الجماهير المغمورة ، فبحق السماء أنا بذلت من المعرفة والحساب لمجرد البقاء على قيد الحياة أكثر مما بذل طوال مائة عام لحكم أسبانيا أو غيرها من الممالك . . . » النخ .

هذه التساؤلات الخطيرة حول شرعية الامتياز الطبقي الموروث كانت الألغام التى بثتها البورجوازية أو الطبقات المتوسطة فى طريق الارستقراطية وفى طريق العاطلين بالوراثة . نجدها فى بومارشيه الضاحك الباكي ونجدها فى كل كتابات الثوار الذين مهدوا للثورة الفرنسية .

وقد تابع العالم بكثير من التفكه تلك المبالغات الساذجة التي قامت بها السيدة مارجريت ثاتشر رئيسة وزراء انجلترا لتفسد أفراح الفرنسيين في احتفالاتهم بمرور مائتي عام على الثورة الفرنسية ، وخلصتها ان الثورة الفرنسية لم تأت بجديد بعد الماجنا كارتا Magna Carta « ١٢١٥ » و « قانون الحقوق » Bill of Rights « ١٦٨٨ » ، وهي مبالغات أوحث بها العنجهية الأنجلو سكسونية .

نص الاعلان

ان ممثلى شعب فرنسا - مشكلين فى هيئة جمعية وطنية ، وقد رأوا أن الجهل والاهمال واحتقار حقوق الانسان هى الأسباب الوحيدة للمصائب العامة ولفساد الحكومات - قد قرروا أن يطرحوا فى اعلان مهيب هذه الحقوق الطبيعية الثابتة التى لا يجوز الانتقاص منها : ان هذا الاعلان ، وهو مائل على الدوام فى أذهان أعضاء الهيئة الاجتماعية ، يجعلهم دائما يقظين الى حقوقهم وواجباتهم وان قرارات وتصرفات السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فى الحكومة وهى خليقة بأن تعد فى كل لحظة مساوية للغاية من المؤسسات السياسية ، مما يوجب المزيد من الاحترام لها ، وكذلك لأن مطالب المواطنين فى المستقبل التى تملئها مبادئ بسيطة لا تقبل الاعتراض عليها لكى تنحو دائما نحو الحفاظ على الدستور وعلى سعادة الجميع .

لذلك كله فان الجمعية الوطنية تعترف وتعلن أمام الكائن الاسمى ، راجية بركته وتأيده ، الحقوق المقدسة التالية للانسانية وللمواطنين :

١ - يولد الناس ويظلون دائما أحرارا ومتساوين فى الحقوق .
وبناء عليه فالامتيازات المدنية لا يمكن أن تبنى الا على المنفعة العامة .

٢ - ان غاية كل التنظيمات السياسية هي الحفاظ على حقوق الانسان الطبيعية التى لا يجوز المساس بها ، وهذه الحقوق هي الحرية ، والملكية « بكسر الميم » ، والأمن ومقاومة الطغيان .

٣ - الأمة فى جوهرها هي مصدر كل سيادة ، ولا يجوز لآى فرد أو مجموعة من الأفراد أن تزاوّل أية سلطة ما لم تكن نابعة من الأمة صراحة .

٤ - تقوم الحرية السياسية على القدرة على عمل أى شىء لا يضر بالآخرين . ومباشرة أى انسان لحقوقه الطبيعية لا حدود لها الا الحدود اللازمة لضمان مباشرة أى انسان آخر لنفس الحقوق مباشرة حرة . وهذه الحدود لا يقررها الا القانون .

٥ - لا يجوز للقانون ان يحصر شيئا ما لم يكن فيه اضرار بالمجتمع . ولا تجوز عرقلة شىء لم يحرمه القانون ، كما لا يجوز اكراه انسان على شىء لم يتطلبه القانون .

٦ - القانون هو التعبير عن ارادة الجماعة . وكل المواطنين لهم حق المشاركة فى وضع القانون أما بأشخاصهم أو عن طريق ممثليهم . ويجب أن يكون القانون واحدا مع الجميع سواء فى الحماية أو فى العقاب . وحيث ان الجميع متساوون أمام القانون ، فالجميع متساوون فى حق التكريم وتولى المناصب والوظائف بحسب قدراتهم المختلفة ولا امتياز لأحد على أحد الا بالفضائل والموهبة .

٧ - لا يجوز أن يتهم انسان أو يقبض عليه أو يعتقل الا فى الأحوال التى حددها القانون وبحسب الطرق التى رسمها القانون . ويجب عقاب كل من أصدر أو سعى الى اصدار أو نفذ أوامر تعسفية أو تسبب فى تنفيذها . وكل مواطن استدعى بالقانون أو قبض

للفقراء وانما صنع للأغنياء وللمضاربين وللمتعاملين في
البورصة ١١ » .

وربما كانت خير وسيلة لمعرفة هذه القوى البورجوازية
المحركة للثورة الفرنسية هي دراسة الأفكار الأساسية التي كانت
تملا أدمغة بعض زعماء الثوار في بداية الثورة الفرنسية عن مكونات
« الطبقة الثالثة » وآلامها وآمالها وغاياتها في الحياة . وقد تبلورت
هذه الأفكار الأساسية في الكراسة التي نشرها الأب سيز
L'abbé Sieyès « ١٧٤٨ - ١٨٣٦ » بعنوان « ما هي الطبقة
الثالثة ؟ » في يناير ١٧٨٩ وقد بيع منها عند صدورها ثلاثون ألف
نسخة في ثلاثة أسابيع مما يبين حالة الغليان التي كانت فيها
فرنسا . وقد كان سيز أصلا من رجال الدين ولكنه نحا منحى
فلاسفة عصر التنوير ولاسيما لوك Locke وكوندياك Condillac
قال سيز في « ما هي الطبقة الثالثة ؟ » :

« ان تخطيط هذه الرسالة بسيط للغاية فلدينا ثلاث مسائل
نفكر فيها » :

- ١ - ما هي الطبقة الثالثة ؟ كل شيء .
 - ٢ - ما وضعها في النظام السياسي حتى الآن ؟ لا شيء .
 - ٣ - ماذا تطلب ؟ ان تصبح شيئا .
- الطبقة الثالثة هي أمة كاملة .
- ما هو الضروري لاعاشة أمة ولرخائها ؟ . الأعمال الخاصة
والوظائف العامة .

. والأعمال الخاصة يمكن ان تقسم الى أربعة أقسام :

١ - الأرض والماء يعطيان المواد الأولية لاحتياجات الانسان .
والفئة الأولى فى هذا النظام هى جميع الأسر المرتبطة بالعمل فى الحقول .

٢ - من أول بيع للمواد حتى استهلاكها أو استخدامها تضيف الصناعات اليدوية المختلفة الى هذه المواد الأولية قيمة ثنوية قليلة أو شديدة التركيب بحسب الأحوال . فالعمل البشرى ينجح فى ترقية السلع الطبيعية ويضاعف قيمة المواد الخام مرتين ، بل عشر مرات ، بل مائة مرة . وهذا عمل الفئة الثانية .

٣ - وبين الانتاج والاستهلاك وكذلك بين مختلف مراحل الانتاج هناك عدد غفير من الوسطاء النافعين للمنتجين وللمستهلكين جميعا ، وهؤلاء هم التجار . . وهذه المجموعة النافعة هى الفئة الثالثة .

٤ - وبالإضافة الى هذه الفئات الثلاث من المواطنين المنتجين المشتغلين بمواد الاستهلاك والاستخدام ، يحتاج المجتمع الى مجموعة من الأعمال الخاصة والخدمات التى تنفعنا مباشرة أو تمتع أشخاصنا . وهذه الفئة الرابعة تضم كل شئ من أجل المهن الحرة والأعمال العلمية الممتازة الى أضال الخدمات المنزلية شأننا . هذه هى الأشغال التى تقيم عماد المجتمع . ومن هم القائمون بها ؟ هم أبناء الطبقة الثالثة .

« وبالمثل فان الوظائف العامة فى النظام الفائم يمكن تبويبها تحت الفئات الأربع المعترف بها ، وهى : السيف وروب القضاء والكنيسة والادارة . ومن المفيد أن نمر فيها تفصيلا لتوضح كيف أن الطبقة الثالثة تمثل $\frac{1}{3}$ من هذه الوظائف مع الفرق التالى ،

وهي انها مسئولة عن كل ما هو مجهود وشاق وكل الخدمات التي ترفض الطبقة الممتازة القيام بها . أما المناصب المجزية والتشريفية فيشغلها أعضاء الطبقة الممتازة . فهل نجدهم أهلا لذلك ؟ .. هذا يمكن تبريره لو ان الطبقة الثالثة رفضت أن تشغل هذه المناصب أو انها كانت ناقصة في القدرة على أداء وظائفها . وحقيقة الأمر معروفة ، ومع ذلك فقد اجترأوا على أن يضعوا الطبقة الثالثة في موضع المحظورين . قالوا لأبنائها : أيا كانت خدماتكم وأيا كانت مواهبكم فلن تتقدموا الا الى مدى معين لا تتجاوزونه . فليس من الخير لكم ان يسبغ عليكم التشريف .. اذا كان هذا الحرمان جريمة اجتماعية فهل يمكن تسويغه بقولنا انه يخدم الصالح العام ؟ .. فلنقل ردا على ذلك : أليست أثار الاحتكار معروفة ؟ فاذا كان الاحتكار يحبط المحرومين ، أليس أيضا يحرم اصحابه من الخبرة ؟ أليس معروفا ان كل عمل يحرم من المنافسة الحرة سيكون أكثر تكلفة وأقل اتقاناً ؟ ..

واضح من كلام سيبز انه يعبر عن أفكار الطبقات المتوسطة من المشتغلين (١) بالزراعة (٢) بالصناعة (٣) بالتجارة (٤) بالمهن الحرة وبالحرف . وكل من يشارك عن طريق « العمل » في انتاج خامات الطبيعة وتطويرها وتوزيعها للاستهلاك بين أبناء المجتمع .

هؤلاء هم أبناء الطبقة الثالثة وهم عنده « كل » الأمة . ومع ذلك فهم محرومون من تولى المناصب العليا ومن حكم البلاد ، لأن هذا وتلك كانا وقفا على الطبقة الارستقراطية التي توارثت الامتيازات العنقوية استنادا الى حق الفتح بالسيف الذي يدعيه أجدادها الأول أو الى شراء الألقاب كالنبلاء المحدثين . فحتى مناصب القضاة كان يشتريها النبلاء من البلاط ، وأبناء الطبقة الثالثة كانوا العمود الفقري في سلك الجندية وفي سلك القضاة وفي سلك الكهنوت

وفى ادارة الحكومة ولكنهم كانوا يشغلون كل المناصب الدنيا لأن المناصب العليا كانت حكرا لطبقة النبلاء . ولم يكن دورهم فى السلطة التشريعية « أى فى مجلس الطبقات » أفضل من دورهم فى الحياة العامة .

والحل عند سيز هو سقوط كل الحواجز الطبقية الموروثة وأيلولة الحكم والمناصب العامة الى « الأمة » فى كل مرفق من مرافق الحياة . وهكذا ترجم سيز الفلسفة الاقتصادية لمدرسة « الفيزيوقراط » « الطبيعية » الى فلسفة سياسية أساسها أن « العمل أساس القيمة » بعد موارد الطبيعة كما كان يقول آدم سميث. رسول الاقتصاد البورجوازي . الحل عند سيز كان حلول الحق الطبيعي محل الحق الالهي والحق الموروثة . الحل عند سيز كان الحكومة النيابية التى تجعل « الأمة مصدر السلطات » .

كان سيز مع ميرابو هما أكبر زعيمين للثورة الفرنسية فى مراحلها الأولى . وهما اللذان قادا الجمعية الوطنية الى وضع دستور للبلاد . فلما جنحت الثورة الفرنسية الى التطرف انزوى نسبيا لأنه رفض راديكالية اليقاقة ورفض مصالحات الجيرونده مع الارستقراطية الفرنسية وظل يشغل مكانة وسطا حتى ١٧٩٩ حين تمكن بوصفه زعيم « حزب السهل » من التآمر مع نابوليون بوناپرت. ليعود من حملته المصرية ويجرى انقلاب ١٨ برومير الذى استولى به على السلطة فى فرنسا ، وهذا وحده كاف للتدليل على أهميته فى تاريخ فرنسا . ورغم انتصار اليقاقة فى ١٧٩٣ وشحوب نجم سيز ، كان سيز من القلائل فى الثورة الفرنسية الذين حافظوا على رؤوسهم ومناصبهم طوال عشر سنوات بين ١٧٨٩ و ١٧٩٩ .

وكان أهم ما قام به سيز فى تلك الفترة هو :

١ - دعوته للتدريب العسكرى العام لكل المواطنين .

٢ - اعادة التنظيم الادارى لفرنسا للقضاء على التقسيمات
الاقطاعية القديمة . .

٣ - هيمنة اللوحة على الدين وعلى التعليم بعد ان كانت
الكنيسة هي المسئول الاول عن التعليم في فرنسا .

وبموجب دستور نابوليون فى السنة الثامنة من الثورة كان
سيين أحد القناصل ، أى المستشارين ، الثلاثة الذين تولوا حكومة
الادارة فى ظل نابوليون القنصل الاول . وبالطبع انكسف ضياؤه
أمام ضياء نابوليون ولكن بقيت له هيئته طوال عصر الامبراطورية .
فلما سقط نابوليون عام ١٨١٤ وعادت الملكية نفى سيين ، ولكنه
عاد الى فرنسا بعد ثورة ١٨٣٠ وعاش منسيا ست سنوات حتى
مات فى ١٨٣٦ .

والآن كلمة عامة عن « عرائض الشكوى » Cahiers de
Doléances التى تقدم بها نواب « الطبقة الثالثة » الى « مجلس
الطبقات » فى انتخابات ١٧٨٩ بقصد تقديمها لملك لويس السادس
عشر بقصد اصلاح احوال البلاد ، فكانت بمثابة نواة دستور للثورة
الفرنسية ، ومنها نعرف حالة الراى العام قبل الثورة الفرنسية
مباشرة . وقد كان من هذه العرائض نحو ٢٠٠٠٠ عريضة بعضها
تقدم به رجال الدين ، وهم الطبقة الاولى ، وبعضها تقدم به النبلاء ،
وهم الطبقة الثانية ، وبعضها تقدم به ممثلو « الطبقة الثالثة » .
ومن هذه العرائض نحو ٦٠٠ عريضة تمثل شكاوى عامة ، والباقي
مجرد شكاوى فردية . ولعل أهم « كراسه » شكاوى هى الكراسه
التي تقدم بها نواب « الطبقة الثالثة » عن دائرة فرساي الانتخابية ،
وهذه خلاصة محتوياتها عن التظلمات والمقترحات والمبادئ العامة .

« مترجمة عن « مقدمة للحضارة المعاصرة فى الغرب » (جامعة
كولومبيا ج - ١) .

فيما يتصل بالدستور : ان سلطة تشريع القوانين هي حق للملك وللأمة عن طريق نوابها الذين تتكون منهم الجمعية الوطنية ، ولا يعتد بقانون ما لم تضعه الجمعية الوطنية ويصدق عليه الملك .

حق وراثه العرش في النسل من الذكور وحق الابن البكر حقوق قديمة قدم النظام الملكي ويجب أن تحصن بقانون غير قابل للإلغاء .

القوانين الصادرة عن مجلس الطبقات والمصدق عليها من الملك يجب أن تكون ملزمة لجميع طبقات المواطنين ولجميع أقاليم المملكة .
يجب أن ينعقد مجلس الطبقات على الأقل مرة كل سنتين أو ثلاث .

يتمتع النواب بالحصانة فلا تجوز محاكمتهم في القضايا المدنية أثناء فترة نيابتهم ، ولا تجوز للسلطة التنفيذية مساءلتهم عن أية أقوال يدلون بها داخل الجمعية الوطنية ، وتكون مسئوليتهم أمام مجلس الطبقات وحده .

يجب اقرار الحرية الشخصية وحقوق التملك وأمن المواطنين بطريقة واضحة ودقيقة ولا مساس بها . ويجب إلغاء كل « الخطابات المختومة » (أى أوامر الاعتقال) الى الأبد .

يجب ادخال نظام المحلفين في القضايا الجنائية والمدنية للثبوت من الوقائع وذلك للحيلولة نهائيسا دون الاضرار بحقوق المواطنين الشخصية وبممتلكاتهم .

يجب الافراج بكفالة خلال أربع وعشرين ساعة عن كل من يقبض عليه في تهمة لا توجب عقوبة الاعدام ، كما يجب أن يصدر قرار الافراج عن المحلفين .

كل من يقبض عليه اشتباها ثم تثبت براءته يستحق أن يتقاضى تعويضا من الدولة ، اذا أثبت ان القبض عليه مس بشرفه أو بمصالحه .

يعطي المزيد من حرية النشر بشرط أن يعلن الكاتب هويته ويتحمل المسؤولية عما يكتب ولا تعد الكتابة قذفا الا بقرار من اثنى عشر محلفا منعا لاساءة القضاة والسلطات لحق المساءلة على ان ترسم الحدود بقانون .

لا يجوز فتح الرسائل .

يجب الغاء جميع الفوارق في العقوبات بالنسبة للطبقات المختلفة فالكل سواسية أمام القانون . والعقوبة شخصية ولا يجوز أن تنصب على أقرباء الجاني .

يجب أن تتناسب العقوبة مع الجريمة ، ويجب ابطال كل أنواع التعذيب . ولا يجوز تطبيق عقوبة الاعدام الا على الجرائم البوحشية .

يخضع العسكريون للقانون العام في جرائم القانون العام كسائر المواطنين .

كل ضريبة لا يقرها نواب الشعب ويصدق عليها الملك تعد غير قانونية . ولا يجوز أن تكون هناك امتيازات طبقية في الضرائب ، فالشعب الآن يتحمل العبء الأفدح بالقياس الى النبلاء .

في حالة الحرب أو الظروف الاستثنائية لا يجوز فرض ضرائب جديدة أو عمل قروض الا بموافقة نواب الأمة .

يجب إعادة النظر فى نظام المعاشات « كان رجال البلاط
ينهبون الخزانة بمعاشاتهم »

لما كانت الدولة متكلفة بالمخصصات الملكية فيجب نزع ملكية
أمالك الدومين « الأملاك الأميرية » من يد الملك وبيعها بعد تقسيمها
الى مساحات صغيرة لأعلى مشتر بالمزاد العلنى .

الوزراء مسئولون عن تصرفاتهم أمام مجلس الطبقات ويمكن
محاكمتهم بموجب قانون يوضع لذلك .

لا يجوز تغيير العملة الا بموافقة مجلس الطبقات كما لا يجوز
إنشاء بنك الا بموافقته .

يعاد تقسيم أقاليم فرنسا « مقاطعاتها » .

يجب أن تتمشى دساتير مقاطعات فرنسا مع دستور مجلس
الطبقات الرئيسى فى فرنساى حيث الحكومة المركزية ، وان تخضع
المقاطعات بلا تحفظ للقوانين التى يصدق عليها الملك .

يجب أن يكون جميع أعضاء المجالس البلدية والقروية
منتخبين .

يجب أن تكون الوظائف المدنية والدينية والعسكرية مفتوحة
لجميع على قدم المساواة .

كل أجنبى يستوطن فرنسا ثلاث سنوات يكون له الحق فى
اكتساب جنسيتها .

يجب إلغاء كل ما تبقى من الرق فى الأرض والرق الشخصى .
ويحل مجلس الطبقات على تحرير الزنوج والرقائق فى المستعمرات .

يجب الفصل بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية .

• يبطل نهائيا بيع مناصب القضاء ، وتلغى محاكم النبلاء .
• يلتزم القضاة بنص القانون دون تصرف من عندياتهم ، وتلغى كافة الامتيازات الطبقية .

• تلغى السخرة ويلغى معها اثنا عشر نوعا من الضرائب والرسوم التي كانت تثقل كاهل المواطنين . كما تلغى الحواجز الجمركية بين مختلف مقاطعات فرنسا بحيث لا يتبقى الا الجمارك عند الحدود .

• الا تدخل البنات الدير دون سن ٢٥ سنة ، وألا يدخل الرجال الدير دون سن الثلاثين .

• توزع الموارث بالتساوي بين الورثة من الجنسين ومن جميع الأعمار بغض النظر عن الحالة الاجتماعية . ولا يجوز شراء الألقاب ولا اكتسابها بالمناصب .

• الحرية التامة للتجارة والصناعة .

• التعليم العام مجاني .

مائة مادة ومادة في عريضة شكوى الدائرة الانتخابية في فرساي ، ولكن أهمها جميعا كان المطالبة بادماج الطبقات الثلاث في طبقة واحدة هي « الأمة » وان التصويت يكون بالفرد وليس بالطبقة أو الفئة ، وان رجال الدين من كبير الأساقفة الى أصغر قسيس لا يعيشون على الاتاوات أو الاحسان من المؤمنين بل يتقاضون من الدولة المرتبات الكافية ، وأنه نظرا لكفالة الدولة لنفقات الكنيسة والأذيرة تباع أملاك الكنيسة وأوقافها وتؤول حصيلتها الى خزانة

الدولة ، وانه من المحظور على رجل الدين فى فرنسا أن يرجع الى بابا روما فى التعيينات أو الترقيات أو الفتاوى أو الاستثناءات الدينية أو استصدار قرارات الحرمان أو صكوك الغفران ، باعتبار ان كل أسقف فى فرنسا يملك كافة السلطات الروحية فى منطقتة .

وهكذا وقف الفرنسيون فى ١٧٨٩ على أعتاب عهد جديد .
وقد اثبتت الأحداث ان اللاتفاهم الكامل بين النظام القديم والنظام الجديد جعل كل حوار منتج فى حكم المستحيل

٩ - الملكة رهينة

انتهت ثورة الفلاحين فى الريف الفرنسى بعد ثورة باريس فى ١٤ يوليو حتى اوائل اغسطس ١٧٨٩ بانتشار الرعب الأكبر بين النبلاء بسبب اقتحام الفلاحين قصور النبلاء وقيامهم باحراق الوثائق والصكوك الملكية الوهمية والحقيقية وكافة المستندات القانونية التى كانت تثبت حقوق النبلاء على الأرض وعلى رقيق الأرض وكافة العلاقات الاقطاعية احرقوها فى الميادين العامة وفى أفنية القصور . وكذلك لتوقف الفلاحين عن دفع ايجارات الأطيان والضرائب والعشور .

وانزعجت الجمعية الوطنية لانتشار الفوضى والعنف فى الريف وسعت للتدخل لوضع حد لها ، ولكنها فى الوقت نفسه خشييت من الاستعانة بالسلطة الملكية لقمع حركة « الجاكرى » فاكثفت باعلان ان كل ما يجرى فى الريف من شغب يجرى خارج

● نشرت بجريدة الامرام

بتاريخ ١٩٨٩/٩/٩ .

نطاق الشرعية • خشيت الجمعية الوطنية وأكثر أعضائها من ملاك الأراضي المتوسطى الحال ، ان ينتهى الاستيلاء على أملاك النبلاء بالاستيلاء على أملاك البورجوازية نفسها ، ولهذا عينت الجمعية الوطنية الدوق ايجويون ، وهو أحد كبار النبلاء المتعاطفين مع الفلاحين لفحص مسألة الصكوك لفرز ما هو قانونى فعلا وما هو مغتصب •

وفى ظل الرعب الأكبر كانت ليلة ٤ أغسطس ١٧٨٩ التى ألغيت فيها كافة الامتيازات الطبقيّة الموروثة وألغى النظام الاقطاعى نهائيا وصدر « اعلان حقوق الانسان والمواطن » الذى قدس حقوق كافة البشر فى الحرية والمساواة ، ولكنه قدس معها أيضا حق الناس فى التملك • ولأن أبحاث الدوق ايجيون ولجنته لم تسفر عن شىء فى تحديد ما هو مغتصب وما هو شرعى من حقوق النبلاء على أرض فرنسا كان من الممكن لألبير سوبول ان يقول بعد مائة عام فى كتابه عن « الثورة الفرنسية » ان « اعلان حقوق الانسان والمواطن » حرر فلاحى فرنسا كمواطنين ولكنه لم يحرر أرضهم من ربقة النبلاء • لقد كان واضحا ان جلسة ٤ أغسطس كان فيها من العواطف السبخية أكثر مما كان فيها من النوايا الصادقة • وكان واضحا ان مزايادات النبلاء كانت مناورة لكسب الوقت حتى يستجمعوا قوتهم من جديد •

وقد احتاج الأمر الى ستة أيام بين ٥ و ١١ أغسطس لصياغة قرارات ٤ أغسطس فى صيغة قوانين أرسلت الى الملك لويس السادس عشر ليصدق عليها • ولكن الملك رفض التصديق وكان رفضه تعبيرا عن ثورة النبلاء فى سبتمبر ١٧٨٩ • رفض الملك التصديق على قوانين إلغاء النظام الاقطاعى وعلى « اعلان حقوق الانسان والمواطن » قائلا : « أنا لن أوافق على تجريد كهنتى ونبلائى من أموالهم » ••

بدأت ثورة النبلاء أثناء مناقشات لجنة الدستور في الجمعية الوطنية ، وقد بدأت اللجنة أعمالها بعد اعلان حقوق الانسان مباشرة ، وكان لها مقرران هما مونييه Mounier ولى - تولاندال Lally-Tollendal اللذان اقترحا انشاء مجلس للنبلاء على غرار مجلس اللوردات في انجلترا ، يكون تابعا للملك مباشرة لأنه يعين أعضائه على ان يكون للملك حق الفيتو المطلق على قرارات الجمعية الوطنية ، وبهذا يكون مجلس النبلاء بمثابة قلعة للاستقراطية . واعترض سبيز بشدة قائلا : « ان ارادة فرد لا يمكن ان تعلو على الارادة العامة » واعترضت جماعة « الباليه رويال » Palais-Royal وهو قصر الدوق فيليب دورليان Philippe d'Orleans ابن عم الملك الذي اشتهر باسم « فيليب المساواة » Philippe Egalité واتخذت قرارا بأن « الفيتو ليس بحق رجل واحد ، بل حق ٢٥ مليون مواطن » وفي ٣١ أغسطس أرسلوا وفدا الى « الهوتيل دي فيل » (بلدية باريس) مطالبين بدعوة جمعية عمومية لجميع أقسام باريس « لمنع الجمعية العمومية من ايقاف مداولاتها في موضوع الفيتو حتى تبدى الأقسام والأقاليم رأيها في الموضوع » .

وفي الجمعية الوطنية قاد زعماء الحزب الوطنى وهم بارناف Barnave ودى بور Du Port والكساندر Alexandre وشارل دى لامبيت Charles de Lambeth معارضة انشاء مشروع مجلس النبلاء أو مجلس الأعيان . وفي ١٠ سبتمبر رفض هذا المشروع بأغلبية ٨٤٩ صوتا ضد ٨٩ صوتا في الجمعية الوطنية ، وامتنع غلاة اليمين عن التصويت . وفي ١١ سبتمبر اقترح بارناف الموافقة على ان يكون للملك حق الفيتو لا بصفة مطلقة ولكن لتعليق القوانين حتى يعاد النظر فيها ، ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح بأغلبية ٥٧٥ صوتا ضد ٣٥٢ صوتا . وكان هدف

الوطنيين من هذه المهادة اقنناع الملك بالتصديق على قوانين أغسطس .

غير ان الملك أصر على رفض التصديق وهنا رأى الزعماء الوطنيين تأليب الجماهير حين استحكمت الأزمة . وبدأت هجرة النبلاء بأموالهم الى الخارج ، فزاد ذلك من الضيق الاقتصادي وتأثرت صناعات الترف في باريس وانتشرت البطالة وشح الخبز ، فظهرت الطواير أمام أفران الخبازين ، وتظاهر العمال مطالبين بزيادة الأجور أو للشكوى من البطالة .

وباشيستداد أزمة الخبز كتب مارا Marat في جريدته « صديق الشعب » L'Ami du Peuple يضع المسئولية على لجنة التموين في بلدية باريس « الهوتيل دي فيل » :

« اليوم » الأربعاء ١٦ سبتمبر « أحس الناس من جديد بفظاعة الضنك ، فالمخابز محاصرة والشعب لا يجد الخبز . كل ذلك برغم ان المحصول كان وفيرا للغاية . وفي وسط هذه الوفرة نوشك ان نموت من الجوع . فهل بقى لدينا شك في اننا محوطين بخونة يريدون لنا الخراب ؟ . فهل جاءتنا هذه الكارثة من سعار أعداء الشعب ومن جشع الاحتكاريين ومن عدم أمانة الإداريين ؟ » .

وأصبح الباليه رويال مركز قيادة الكفاح السياسى وانتشرت الصحف الثورية مثل « رسالة باريس الى فرساي » Courrier de Paris à Versailles لجورساس Gorsas و « ثورة باريس » Révolution de Paris للوستاليه Loustalet و « صديق الشعب » L'Ami du Peuple لمارا Marat « سبتمبر ١٧٨٩ » و « الوطنى الفرنسى » Le Patriote Francais لبريسو Brissot وانتشرت المنشورات والكتيبات وكلها تتحدث عن مؤامرة الارستقراط على

الحرية وعن ضرورة تطهير الجمعية الوطنية من كبار رجال الدين ومن النبلاء الذين فقدوا مبرر تمثيلهم لطبقاتهم بعد انتهاء مجلس الطبقات . وأصدر كاميل ديمولان Camille Desmoulins « حديث المصباح الى أهل باريس Discours de la Lanterne aux Parisiens وهو يقصد صراحة عمود المشنقة في ميدان جريف Place de Greve بجوار بلدية باريس حيث كانت المشنقة قائمة . وشاعت المطبوعات المجهولة المؤلفين .

وفي نهاية سبتمبر بدا وكان الثورة أجهضت ، فالملك رفض دائما التصديق على قوانين أغسطس بإلغاء الاقطاع والامتيازات الطبقية وعلى « اعلان حقوق الانسان » ودخل في مرحلة الهجوم فحشد الجنود في فرساي . وتيقن النواب اليساريون انه لا مفر من صراع عنيف مع النظام القديم . ودعا مارا أهل باريس للتحرك قبل حلول الشتاء « صديق الشعب » (في ٢ أكتوبر) وحذرت « كرباج الوطن » Fouet national التي انشئت في سبتمبر ١٧٨٩ . أهل باريس من الاستقراط المتأهبين لاعادتهم للأصفاد . وللمرة الثانية انقذ الشارع الفرنسي « الجمعية الوطنية » .

وكانت حوادث أكتوبر ..

فجرها ان ضباط الحرس الملكي أقاموا في فرساي وليمة لضباط فرقة فلاندرز ، وفي هذا العشاء سكروا وداسوا بالأقدام الكوكارد La Cocarde « شارة الثورة المشاشة الألوان : الأزرق والأبيض والأحمر » في حضور الأسرة المالكة ، ووضعوا الشارة الملكية البيضاء ، فهاجت الخواطر في باريس . قالت « الكرباج » في برواز : « منذ يوم الاثنين والباريسيون الطيبون لا يجدون الخبز الا بصعوبة ولن يأتبهم بالخبز الا السيد عامود النور (يقصد مشنقة ميدان جريف ل . ع) ومع ذلك فالباريسيون يأنفون من اللجوء

الى هذا السيد الوطنى المخلص « (بقصد شتى الارستقراط
على عامود النور) كما يقول النشيد الثورى المعروف : « سنعلق
الارستقراط على عامود النور » .

وفى ٥ اكتوبر تجمعت نساء من سانت انطوان ومن الهال
Les Halles (سوق باريس) أمام الهوتيل دى فيل « بلدية
باريس » وطالبن بالخبز . وكان عددهن بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ امرأة .
وقررن الزحف الى فرساي تحت قيادة رجل يدعى ماريار Maillard
كان أحد فاتحي الباستيل ومعه بعض مكافحي ١٤ يوليو
منظمين عسكريا . ونحو الظهر دق الناقوس فتجمعت ميليشيا
الحرس الوطنى فى ميدان جريف ، واضطر المركيز دى لافاييت
Marquis de Lafayette ان يقود هذه الميليشيا وسط الهتافات
الى فرساي . ونحو الخامسة مساء سار الى فرساي نحو ٢٠.٠٠٠
مواطن ، وفى نفس الوقت وصلت نساء باريس الى فرساي وأرسلن
وفدا الى الجمعية الوطنية ثم للملك الذى وعد بالخبز والقمح .
ووصل الحرس الوطنى بعد العاشرة مساء . وأبلغ الملك الجمعية
الوطنية بتصديقه على قوانين أغسطس ١٧٨٩ لتهدئة الحالة من باب
المنافرة لكسب الوقت . وهكذا أنقذ الشوارع الباريسى الجمعية
الوطنية مرة جديدة .

وفى فجر ٦ اكتوبر اقتحمت جماعة من المتظاهرين قصر فرساي
حتى الغرفة المؤدية الى مخدع الملكة ماري انطوانيت ، وحدثت
مشاجرة مع حرسها الخاص فضها الحرس الوطنى الذى أدخل القصر
من المتظاهرين . وقبل الملك والملكة ان يظهر فى الشرفة مع
ولى العهد ومع الجنرال لافاييت ، وبعد تردد صفقت له الجماهير
هاتفة : « الى باريس » ، ووافق الملك . وفى الجمعية الوطنية قرر
الأعضاء ان البرلمان لايفصل عن الملك .

وهكذا انتقل الملك والملكة من قصر فرساي الذي يبعد
١٤ كيلو مترا جنوب غربى باريس الى قصر التويلرى Les Tuileries
فى قلب العاصمة « بجوار ميدان الكونكورد » .

وأصدر كاميل ديمولان جريدته « ثورة فرنسا وبلجيكا »
Révolution de France et de Brabant وفى العدد الأول منها أعرب
عن تفاؤله بانتقال الملك من فرساي الى التويلرى لانه بداية تواصل
كل المواطنين مع ملكهم ، وبداية عهد جديد من الازدهار . ولكن
بعض الزعماء كانوا محترسين من التفاؤل اليسير . ونموذج هذا
مارا الذى كتب يقول فى « صديق الشعب » (العدد ٧) : « هذا
عهد الباريسيين المخلصين ان يمتلكوا أخيرا ملكهم : فحضـور
الملك فى باريس سوف يغير وجه الأشياء سريعا . والشعب البائس
لن يـوت جوعا بعد الآن ، ولكن هذا الهناء سوف يتلاشى قريبا وكأنه
حلم اذا لم نوطد بقاء الأسرة المالكة بيننا حتى يتم وضع الدستور
والتصديق عـليه نهائيا . ان « صديق الشعب » تشارك مواطنيها
الأزواج افراحهم ولكنها لن تستسلم للنوم » .

بعبارة أخرى ، لقد أصبح الملك بانتقاله من قصره بضاحية
فرساي ، الى قصر التويلرى فى قلب باريس رهينة فى يد جماهير
باريس وزعمائهم المتطرفين .

كانت أحداث أغسطس هزيمة ساحقة للارستقراط من جهة
والديمقراطيين المعتدلين من أمثال مونييه Mounier ومالويه
Malnot ممن كان حزبهم يسمى « المونارشيان
Les Monarchiens » وفيها معنى « كلاب الملك » فانسحب حزبهم
من الصراع ، وتبع الفوج الثانى من المهاجرين الارستقراط رغم
انهم كانوا من دعاة الملكية الدستورية . كان عليهم ان ينتظروا حتى
اعلان القنصلية ليعودوا الى فرنسا فيجدوا النظام الذى يريدونه ،

كانوا دعاة ملكية دستورية فلما رأوا الثورة تنجرف الى الشارع تخلوا عنها . وقد أثبتت أحداث أكتوبر ١٧٨٩ انه كانت هناك علامة استفهام كبيرة حول مستقبل الملكية في فرنسا .

والآن فلنر كيف وصف ميشليه أحداث ٥ و ٦ أكتوبر ١٧٨٩ في كتابه العمدة « الثورة الفرنسية » (الكتاب الثاني ، الفصلان الثامن والتاسع) . قال :

« في ٥ أكتوبر كان هناك جمع من البؤساء الذين لم يذوقوا الزاد منذ ثلاثين ساعة . وكان منظرهم المحزن يفطر القلوب ، ومع ذلك لم يفعل أحد شيئا لمعالجة الموقف . كان كل الناس يتوارون في بيوتهم ويشكون قسوة الزمان . وفي مساء الأحد ٤ أكتوبر كانت هناك امرأة شجاعة لم تحتمل رؤية الجوع أكثر من ذلك ، فجرت من حي سان دنييس الى البالية روابال « حيث كان يسكن الدوق دورليان وتتجمع المعارضة ل . ع » وبرزت بين الجمهور الصاخب الذي كان يلقي الخطبة الرنانة ، وجعلتهم ينصتون اليها . كانت هذه المرأة في السادسة والثلاثين من عمرها ، حسنة المظهر ، طيبة القلب ، ولكنها كانت قوية البنية والشكيمة . وطالبت الجماهير ان تذهب الى فرساي وهي على رأسهم . وسسخر منها بعضهم فصفعت أحد الساخرين . وفي اليوم التالي سارت في مقدمة الجموع هاهرة في يدها سيفاً وأخذت من المدينة مدفعاً واعتلت المدفع كما يعتلى الجواد وجروه الى فرساي وكانت فتيلته مشتعلة .

(وكان بين الحرف المنقرضة من العهد القديم حرفة الحفر على الخشب لديكور المنازل والكنايس ، تحترفها كثيرات من النساء فأصابتهم البطالة) ومن بين هؤلاء ، كانت هناك فتاة اسمها مادلين شابري Madeleine Chabry وجدت نفسها عاطلة فاشتغلت ببيع الزهور في حي البالية روابال واشتهرت باسم لويزون

Louison وكان عمرها ١٧ سنة وكانت جميلة ذكية الفؤاد .
وبالقطع لم يكن الجوع هو الذى ساق هذه الفتاة الى فرساي .
لقد تبعت التيار العام لطيبة قلبها ولشجاعتها . ووضعتها النساء
فى مكان القيادة وجعلن منها خطيبتهن .

« وكان هناك غيرها ممن لم يحركهن الجوع . كانت هناك
تاجرات وبوابات ومومسات تعاطفن مع الجياع بقلب سخى ، كما
هو شأنهن فى كثير من الأحوال . وكان بينهن عدد غفير من نساء
العمال فى سوق باريس . وكانت هؤلاء النسوة من المتحمسات
للملكية ، ومع ذلك فقد كن راغبات فى اقامة الملك فى باريس بدلا
من فرساي . وحين راين الملك فى فرساي قلن : « ياله من رجل
مسكين ! حبيب الى القلوب . . ياله من أب عطوف » . أما الملكة
فقلن لها فى جهامة : « ياسيدتى ! ياسيدتى ! افتحى لنا صدرك . .
فلنفتح قلوبنا ولا نخفى شيئا ! لنقل بصراحة كل ما ينبغى علينا
قوله .

« ونساء الأسواق لسن من النساء اللواتى يشكون كثيرا من
البؤس لأنهن يتاجرن فى ضروريات الحياة . . ولكنهن يرين البؤس
أكثر مما يراه غيرهن ويشعرن به . ولأنهن يقمن دائما فى السوق
فليست تفوتهن كما تفوتنا مشاهد البؤس . وليس هناك من يرثى
للبنساء أو يعطف عليهم أكثر منهن . وهن بأجسادهن الغليظة
وكلامهن الخشن العنيف كثيرا ما يتميزن بقلوب من ذهب وطيبة
لا حد لها .

وفى ٥ أكتوبر فى الساعة السابعة سيعن النداء فلم تستطعن
المقاومة . أخذت فتاة صغيرة من رجال الحرس الترمبيطة ودقت
عليها دقات المارش . وكان ذلك يوم الاثنين ، وخلت السوق .
وخرجن وراءها . جميعا قائلات : سوف نعود بالخباز « أى الملك »

والخبازة « أى الملكة » . . . ونسعد بالاستماع الى خطبة صاحبتنا
ميرابو الصغيرة .

وسار وراء مظاهرة النساء ٢٠٠٠ رجل . ولما احتشدوا
حول قصر فرساي وافق الملك على التصديق على قوانين الغاء الاقطاع
وعلى اعلان حقوق الانسان ووعد بالخبز والقمح . وفى فجر اليوم
التالى « ٦ أكتوبر » تجمهر المتظاهرون من جديد وتسلقوا أسوار
قصر فرساي ، ومنهم من اتجه الى مخدع الملكة بنوايا عدوانية ومنهم
من اتجه الى جناح الملك ، ونادت الجماهير بانتقال الملك والملكة الى
قصر التويلرى بباريس واستغرقت المعارك داخل القصر حتى الواحدة
بعد الظهر ، ووافق الملك على مغادرة فرساي التى لم يعد اليها بعد
ذلك أبدا :

« وتقدم النهار فاقتربت الساعة من الواحدة . . لا بد من
الرحيل . . لا بد من مغادرة فرساي . . وداعا للملكية القديمة !

« كان حول الملك مائة من النواب وكان حوله جيش كبير ،
وجموع الشعب . وخرج من قصر لويس الرابع عشر الذى لم يعد
اليه بعد ذلك أبدا . . »

« وكان كل هذا الجمع مضطربا وهو عائد الى باريس ، قسم
منه يتقدم الملك وقسم يسير من ورائه . »

« انطلق الرجال وانطلقت النساء كل بحسب اجتهاده : على
الأقدام ، على ظهور الخيل ، فى عصابات الحنطور ، وعلى عربات
الكارو وعلى المدافع المجرورة ، وفى الطريق صادفوا بابتهاج قافلة
عظيمة تحمل الدقيق ، الخير والبركة للمدينة الجائعة .

ورفع بعض النساء على اسنة الرماح أرغفة الخبز ، ورفعت
الأخريات أغصان أشجار الحور الذابلة من خريف أكتوبر . . . وكن

فى فرح عظيم يتحدثن فى مودة ، فيما خلا بعض الالهانات الموجهة الى الملكة ، قائلات : لقد عدنا بالخبازة وبالعجان الصغير « يقصدون ولى العهد » .

« وكن يتصورن جميعا انهن لن يمتن من الجوع مادام الملك معهن . وكن جميعا من أنصار الملكية وفى ابتهاج عظيم لأنهن سيضعن هذا « الأب العطوف » فى أيد أمينة ، فقد كان محدود التفكير عاجزا عن التعبير ، ولكن ذلك كان بسبب زوجته . وحين يصل الى باريس سوف يجد العديد من النساء الطبيبات لينصحنه النصيحة النافعة .

« كل ذلك كان مبهجا وحزينا وعنيفا ومفرحا وملبدا فى وقت واحد » .

كان يوما ماينا بالامل ، ولكن السماء لم تشرك فى هذا الامل . كانت السماء قد أمطرت فمشى الناس ببطء فى الأوحال . ومن وقت لآخر اطلق البعض الأعيرة النارية من بنادقهم اما ابتهاجا واما لمجرد افراغها .

« وتقدمت المركبة الملكية ومن حولها الحرس ولافاييت عند بابها وكأنها نعش يتقدم .

وكانت الملكة قلقة . ترى هل كان واثقا من وصولها الى باريس ؟ وسالت لافاييت رايه فى ذلك ، فسأل لافاييت مورو دى سان ميرى Moreau de Saint-Méry الذى كان الرئيس فى بلدية باريس أيام الباستيل الشهيرة وكان يعرف الموقع معرفة جيدة ، فأجاب هذه الاجابة ذات الدلالة : « أشك فى ان الملكة يمكن ان تصل بمفردها الى قصر التويلرى ، ولكن اذا وصلت الى دار البلدية « الهوتيل دى فيل » ، فعودتها ممكنة » .

هذا هو الملك في باريس في المكان الوحيد الذي كان ينبغي ان يكون فيه ، في قلب فرنسا نفسه عسى ان يكون خليقا بمكانه في القلب .

لقد كانت ثورة ٦ أكتوبر ضرورة طبيعية وشرعية رغم أنها كانت تلقائية تماما وغير منتظرة وشعبية بكل معنى حقيقى ، وكان الفضل فيها لنساء باريس كما كان الفضل فى ١٤ يوليو لرجال باريس . الرجال استولوا على الباستيل والنساء استولين على الملك .

لقد كان ١ أكتوبر يوما أفسدته نساء فرساي « يوم ديست الشارة المثلثة الألوان بالأقدام » .

وكان ٦ أكتوبر يوما أصلحته نساء باريس «

ملاحظة : شاع فى تلك الأيام وردد بعض الساسة ان انتفاضة ٥ و ٦ أكتوبر ١٧٨٩ كانت بايعزاز أو تدبير من فيليب دوق أورليان ابن عم الملك لويس السادس عشر والطامع فى عرشه ، ولكن المؤرخ ميشليه يبرئه من كل علم سابق بما كان يعجرى . .

١٠ - عيد الاخاء الفيدرالى

لمدة عام كامل - تقريبا - برز الماركيز دى لافاييت كاهم : أقوى رجل فى فرنسا وأكثر الزعماء شعبية ، بين انتفاضة أكتوبر ١٧٨٩ والاحتفال الاسطورى بالاخاء الفيدرالى فى باريس فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ . ثم أفل نجمه فجأة فى اغسطس ١٧٩٠ بعد مذبحه نانسى . أفل نجمه كما أفل نجم ميرابو من قبل بعد ان كشف الناس علاقاته الخفية بالبلاط الملكى وارتشاءه منسبه لكى يدعم سلطة الملك على حساب سلطة الجمعية الوطنية .

فلافاييت هو الذى قاد الحرس الوطنى من بلدية باريس الى قصر فرساي يوم زحف نساء باريس على فرساي فى ٥ أكتوبر ١٧٨٩ . ولافاييت هو الذى عاد بالملك مخفورا من قصر فرساي الى قصر التويلرى فى قاب باريس فى اليوم التالى (٦ أكتوبر ١٧٨٩) .

● نشرت بجريدة الامم
بتاريخ ١٦/٩/١٩٨٩ .

ولا فاييت هو الذى أنقذ الملك والملكة من غضب المتظاهرين والمتظاهرات الذين اقتحموا أسوار فرساي واقتحموا جناح الملكة وجناح الملك وقيل ان منهم من أراد أن يفتك بالملكة ماري انطوانيت . وفى هبة ٥ أكتوبر صدق الملك على قوانين الغاء الاقطاع وعلى اعلان حقوق الانسان . وفى هبة ٦ أكتوبر قبل الملك ان يقيم فى قلب باريس وسط شعبه الجائع .

كان لافاييت ، مثل ميرابو ، من النبلاء الأحرار المؤمنين بالملكية الدستورية ، أى أن « الملك يملك ولا يحكم » . ولذا كانت سياسته - مثل سياسة ميرابو - سياسة الحلول الوسط والمصالحة بين الأضداد ، وقد فشلت هذه السياسة . كان المثل الأعلى عند لافاييت ، كالمثل الأعلى عند ميرابو ، هو نظام الحكم فى انجلترا الذى استقر منذ « الثورة المجيدة » . ثورة ١٦٨٨ ، ثورة « الحل الوسط الأعظم » بين الأحرار والمحافظين .

كان الخطأ فى سياسة الحل الوسط أو المصالحة الطبقية هو تصور ان الوضع فى فرنسا كان شبيها بوضع انجلترا فى ١٦٨٨ . ولكن الأمر كان مختلفا تماما . فانجلترا كانت قد سبقت فرنسا فى ثورتها البورجوازية على حكم الملكية المطلقة وحكم الارستقراطية بنحو مائة وخمسين سنة ، أى منذ ثورة البرلمان الانجليزى فى ١٦٤٠ على الملك المستبد شارل الأول ونبلائه والحرب الأهلية بقيادة كرومويل واعداد شارل الأول فى ١٦٤٩ .

١ - كانت الامتيازات الضريبية قد ألغيت فى انجلترا وكان نبلاء انجلترا يدفعون الضرائب كسائر أفراد الشعب الانجليزى ؛

٢ - كان النبلاء فى انجلترا قد انتهوا - كطبقة عسكرية - بينما كان نبلاء فرنسا لا يعرفون لهم حرفة الا حرفة القتال وكأنهم

طبقات من المالك يعيشون بالسيف وحده ولا ضيمان لرزقهم واستقرارهم الا امتيازاتهم الطبقية وخيرات الأرض المقتصبة وعرق رقيق الأرض وخدمات العبودية المتوارثة بين اقنانهم .

٣ - كان نبلاء انجلترا قد تحولوا الى رجال أعمال وصاهروا البورجوازية العليا ، وبذلك شاركوا فى التجارة والانتاج الصناعى فأصبحوا جزءا من نسيج الأمة ، بينما ظل نبلاء فرنسا متمسكين بمهنة الجندية ، فمن زاول منهم التجارة أو الصناعة فقد اعتبره الاجتماعى وسقطت عنهم نبالة الأرض والدم الأزرق . وقد ساعد نبلاء انجلترا على هذا التحول البورجوازي التوسع الاستعماري بانتصاراتهم فى حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) مع بروسيا على فرنسا والنمسا فانفردوا بكندا والهند ولوزيانا دون الفرنسيين .

هذه الفوارق الأساسية الثلاثة هى التى جعلت موقف لويس السادس عشر ونبلاء فرنسا موقفا يائسا شبيها بموقف شارل الأول ونبلائه فى انجلترا قبل الحرب الأهلية واجبط كل المصالحات الطبقية وسياسات الحلول الوسط .

كان لافاييت معبود البورجوازية الثائرة لأنه حماها من اليمين « الارستقراطية » ومن اليسار « الطبقات الشعبية » . والواقع ان لافاييت أصبح فى انتفاضة ٥ و٦ أكتوبر ١٧٨٩ منقادا رغم أنه فحين علم فى ٥ أكتوبر بخروج مظاهرة الخبز الى فرساي ودعى لقيادة الحرس الوطنى بوصفه رئيسا له قبل ذلك على مضض لأنه وجد نفسه فى موقف المواجهة للشعب وللملك أو فلنقل فى موقف الحارس للشعب وللملك معا .

وبانتقال الملك الى التويلرى انتقلت معه الجمعية الوطنية بناء

على اقتراح من ميرابو . وكانت تعقد اجتماعاتها فى « قاعة الألعاب » Salle du Manège « مراجيح اللونا بارك » ، بعد اعدادها . وكان النبلاء يجلسون فى يمين القاعة ، وكانوا يسمون « بالسود » Les Noirs على غرار الحزب الارستقراطى فى السنيورى بفلورنسا أيام دانتي اليجيىرى . وكان « الوطنيون » Les Patriotes وهم مجموع أنصار النظام الجديد ، يجلسون فى يسار القاعة . ومنذ ذلك التاريخ استقر اصطلاح « اليمين » للدلالة على المحافظين وأنصار القديم واصطلاح « اليسار » للدلالة على الأحرار والشوار وأنصار الجديد بصفة عامة . ولم تكن هناك تجمعات أخرى ، ولكن درجة درجة ظهرت الأحزاب المتعددة ، وكان من حق أصحاب العرائض ان يراقبوا أعمال الجمعية الوطنية من وراء درابزين الجمعية .

وكانت أغلبية « الوطنيين » تسمى نفسها « الدستوريين » Les Constitutionnels تحت قيادة لافاييت ، وكانوا جميعا مؤمنين بقوانين ١٧٨٩ التى انتزعت من الملك انتزاعا ، ويمثلون البورجوازية ، وكان أشهرهم ميرابو وسبيز . أما اليسار فكانت له قيادة ثلاثية مكونة من : بارناف Barnave وديبور Du Port ودى لاميت de Lameth ولكن هؤلاء الزعماء كانوا يجندون الى الملك . وعندما أفل نجم لافاييت فى نهاية ١٧٩٠ حلوا محله كمستشارين للملك . وفى أقصى اليسار كان هناك ثالوث آخرهم : بيزو Buzot وبتيون Pétion وروبسبير Robespierre وكانوا يدافعون عن مصالح الجماهير ويطالبون بالتصويت العام .

أخذت الحياة السياسية فى فرنسا الشائرة تتكون درجة درجة فتعددت « النوادى السياسية » التى كان يجتمع فيها نواب « الطبقة الثالثة » أو نواب « الجمعية الوطنية » . فبدأوا منذ مايو ١٧٨٩

يجتمعون في « النادي البريتون » Club breton لمناقشة قضاياهم السياسية ، ولكنهم بعد أحداث أكتوبر ١٧٨٩ أخذوا يجتمعون في « نادي اليعاقبة » Club jacobin في شارع سالت أونوريه Saint-Honoré وهو دير القديس سان جاك أي القديس يعقوب » بعد ان استأجروا قاعة الطعام فيه لاجتماعاتهم . وكانوا يسمون أنفسهم « جمعية أصدقاء الدستور » Société des Amis de la Constitution وكان هذا النادي يتراسل بانتظام مع فروع له في كل مدن فرنسا ، مما جعله بمنزلة المركز العصبى لاجورجوازية الثائرة المناضلة .

وفي ابريل ١٧٩٠ افتتح نادي الكوردلييه Club des Cordeliers الذى كان يجتمع في دير الرهبان الفرنسيسكان ويسمى نفسه « جمعية أصدقاء حقوق الانسان » ، وهو ناد ديمقراطى كان أبرز من فيه دانتون Danton ومارا Marat .

ومن نادي اليعاقبة انفصل « نادي الفوليان » Club des Feuillants برياسة لافاييت عندما أعلن اليعاقبة في ١٧٩١ بعد هرب الملك ومذبحة شان دى مارس Champ de Mars اتجاههم الديمقراطى الشعبى بقيادة روبسبير وكان الفوليان يجتمعون في نادي الرهبان البندكتين Benedictines ، وكان ناديهم يضم النبلاء الأحرار وأبناء البورجوازية العليا « كبار الرأسماليين » المتمسكين بالملك وبالدستور بدرجة متساوية . وقد ضاعف الفوليان رسوم اشتراك ناديهم ليستبعدوا من عضويته أبناء البورجوازية المتوسطة .

والغريب ان كل هذه التجمعات السياسية كانت تختار مقارا لاجتماعات خارج الجمعية الوطنية أبنية الأديرة ، وكانهم « رهبان الليل وفرسان النهار » ، أو كأنهم كانوا يحسون في أعماقهم انهم

بسبيل صياغة دين جديد . وربما ساعد على ذلك خراب العديد من أديرة فرنسا التي هجرها رهبانها فلم يبق من حياة الرهبانية المسيحية الا واجهات ظاهرية بغير مضمون دينى حقيقى .

وقد عبر كاميل ديمولان Camille Desmoulins عن هذا المعنى الغريب فى عدد ١٤ فبراير ١٧٩١ من جريدته « ثورات فرنسا والبرابانت » (بلجيكا وهولندا) بقوله : « ان نادى اليعاقة هو كنيسة اليعاقة ، ويبدو انه مدعو لنفس القيادة التى تتولاها كنيسة روما فى نشر المسيحية ، وذلك فى نشر الوطنية ، أى حب البشر . . وفى قلب نادى اليعاقة تأتى من كل جهة شكاوى المظلومين قبل عرضها على الجمعية الوطنية الموقرة » .

فى الظاهر ، فى الظاهر فقط . كان انتقال لويس السادس عشر من قصر فرساي الى قصر التويلرى انتصارا لشعب باريس . أما الحقيقة فهى ان الملك سرعان ما استرد بعض قوته بسبب سياسة الحل الوسط التى كان يمثلها لافاييت وميرابو ودعاة الملكية الدستورية ، رغم ان كلا من الرجائين كان يكره الآخر كراهية عميقة .

كان ميرابو يطمح فى ان يكون وزيرا فاخذ يناور بين الملك والجمعية الوطنية . وأفسد عليه لافاييت مخططة فاستصدر فى ٧ نوفمبر ١٧٨٩ قرارا من الجمعية الوطنية يحظر على أعضائها تقلد منصب فى السلطة التنفيذية أثناء فترة تمثيلها للأمة . وهنا اتصل ميرابو سرا بالبلاط الملكى ليحل مشاكله المالية . واستخدم الملك لافاييت ميرابو ليدافع فى لجنة الدستور عن حق الملك فى اعلان الحرب والسلم ، فاستصدر ببلاغته الرهيبه قرارا بذلك من الجمعية الوطنية ، فدعم بذلك مركز الملك بخراب ذمته ، بل أسبغ الشرعية على تحركات الملك ليتواصل سرا مع الدول الأجنبية لخصار فرنسا وغزوها .

كان مييرابو يكره لافاييت ويسخر من عسكريته لأنه استمد
كثيرا من شهرته من مشاركته في حرب الاستقلال الأمريكية ، وكان
يسميه « جيل سيزار » Gilles César بدلا من Jules César
أي « قيصر الصغير » .

ولم يهدأ نبلاء فرنسا بل استمروا في قاليب انصارهم في
الأقاليم على الثورة . وكان سلاحهم الخطير في ذلك هو تقوية الروح
الاقليمية لتمزيق اوصال البلاد والاستفادة من التقسيمات القطاعية
التقليدية الى امارات ودوقيات وكونتيات كانت لها برلماناتها وكان
لها ما يشبه الاستقلال الذاتي ، لتحريض الأقاليم على الحكومة
المركزية في باريس وعلى الجمعية الوطنية وقوانينها الجديدة .
وكان هدفهم الغاء الجمعية الوطنية وإعادة « مجلس الطبقات » ،
والغاء قوانين الغاء القطاع ، والغاء « اعلان حقوق الانسان والمواطن » .
كذلك كان من أسلحتهم الخطيرة منع نقل القمح والمواد التموينية
والسلاح من اقليم الى آخر لتجويع الشعب وشل قدرته على
المقاومة .

ورد الشعب على ذلك بحركة واسعة المناهضة الاقليمية ، عرفت
في التاريخ باسم حركة الاخاء الفيدرالي التي كان شعارها :
« فرنسا ا فرنسا ا لا اقليمية بعد اليوم ! » .

(تذكروا قصة « رابطة أبناء الصعيد » في أوائل ثورة ١٩٥٢
و « الصعايدة وصلوا » في عهد الرئيس مبارك ، و « جمهورية زفتى »
جمهورية المنيا « بعد ثورة ١٩١٩ ») .

بدأت حركة « الاخاء الفيدرالي » في جنوب فرنسا بالتقاء فرق
الحرس الوطني من ١٤ قرية ريفية حول مدينة جرينوبل عاصمة
مقاطعة الدوفينييه Dauphiné بجنوب شرق فرنسا في

٢٩ نوفمبر ١٧٨٩ ، وتعاهدوا على ان ينسوا اقليميتهم وألا يذكرها الا « الوطن » وان يكونوا أمناء على مبادئ الثورة . وكان ذلك ردا على موقف نائبهم مونييه Mounier الذي كان يشير فيهم عنجهية اهل الجنوب ، واستقال من « الجمعية الوطنية » فى ١٠ أكتوبر ١٧٨٩ بعد ما رآه من أحداث أكتوبر ونيقنه من فشل سياسة الحل الوسط التى كان يتبناها النبلاء الأحرار من دعاة الملكية الدستورية وقد انضم مونييه الى معسكر الارستقراطية والثورة المضادة ثم هاجر من فرنسا مع النبلاء فى ٢٢ مايو ١٧٩٠ .

واتسعت هذه الحركة واتسعت حتى شملت جميع أقاليم فرنسا فى ربيع ١٧٩٠ من بريتانى وبورجونيا والفلاندرز حتى البرانس فى جنوب غرب فرنسا . عشرات الآلاف من رجال الحرس الوطنى المسلحين يتحركون تلقائيا ليلتقوا بعشرات الآلاف من نظرائهم فى الأقاليم المجاورة ليقسموا معا يمين الاخاء الوطنى والولاء لمبادئ الثورة وأخيرا عقدوا مؤتمرهم العام فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ بساحة - الشان دى مارس - فى باريس حيث شارك فى احتفال « الاخاء الفيدرالى » نحو ٢٠٠.٠٠٠ شخص جياوا ليشهدوا بين باسى وشايو تجمع نحو ٥٠.٠٠٠ يحلفون اليمين ، منهم ١٤.٠٠٠ من رجال الحرس الوطنى من الأقاليم يضاف اليهم الحرس الوطنى الخاص بباريس وممثلو الجيش والبحرية وأكثرهم قطعوا مئات الكيلو مترات سيرا على الأقدام ليحتفلوا بوحدة فرنسا .

وأمام المدرسة العسكرية اقيمت منصة عالية جلس عليها الملك والملكة وأقيم شيء اسمه « مذبح الوطن » اجتمع حوله مائتان من القساوسة بقيادة تاليران Talleyrand أسقف أوتان Autin الذى كان يزك فى سميده وقد تحزموا بأحزمة من قماش وثلاثة الألوان ، وكان لافاييت على صهوة جواده الأبيض فترجل ليتلقى

أوامر الملك • وألقى لافاييت على المحتشدين من الحرس الوطنى ومندوبى الأقاليم الذين رددوا وراه هذا القسم :

« نحن نقسم ان نظل على ولاء دائم للأمة ولل قانون وللملك ، وان نحافظ بكل ما نملك من قوة على الدستور الذى تصدوره الجمعية الوطنية ويوافق عليه الملك ، وان نحمى - بموجب القوانين - الأشخاص والممتلكات وتداول الغلال والمواد التموينية داخل المملكة والشرائب العامة ايا كان شكلها وان نظل متحدين مع الفرنسيين كافة بعزى الاخاء التى لا تنقسم أبدا » .

هذا هو القسم الذى أقسمه رجال الحرس الوطنى ومندوبو الأقاليم بصوت عال فى ساحة « الشان دى مارس » وأقسمه الملك أمام المذبح بصوت خفيض لم يسمعه الا الكهنة • وفى هذا الوقت بالذات كانت تجرى المذابح فى جنوب فرنسا بترتيب من الملكيين والنبلاء وكان معوث الملكة مارى انطوانيت الخاص يستقبل فى نيس مدبر المذابح ويهنئه على نجاحه فى ترتيبها وكانت جيوش لبوبولد الثانى امبراطور النمسا منذ ١٧٩٠ ، تدق أبواب فرنسا •

وحين شاءت الاخبار فى فرنسا هاجت الخواطر واستعد الفرنسيون للدفاع عن وطنهم • كان فى فرنسا ٣ ملايين مواطن مسلح هم الذين أوفدوا الوفود التى حلفت يمين « الاخاء الفيدرالى » فى « الشان دى مارس » وكان هؤلاء يفوقون عددا كل ما يمكن للملك أوروبا ان يحشدوا من جيوش • وتطوعت أقاليم السين Seine وشارانت Charente والجيروند Gironde وغيرها وغيرها ان ترسل كل منها الى الحدود فرقة من ٦٠٠٠ مقاتل متكفلة بتسليحها وتمرينها • وفى مرسيليا بالذات - باب الجنوب - أقسم أبناؤها الا يعودوا اليها الا منتصرين وهكذا خرج جنودها زاحفين على تشيد

المارسيليز La Marseillaise الشهير الذي وضعه روجيه دى ليل
Roger de Lisle وأصبح منذ ذلك الوقت نشيد فرنسا القومى .

وفى الداخل تفاقمت المشاكل حيث تفجرت داخل الجيش
نفسه فكثر التحرشات بين الضباط الموالين للنبلاء وجنودهم
الموالين للنورة ، وانتهت هذه التحرشات بكارثة تعرف بمذبحة
نانسى .

طلبت فرقة جنود الملك فى نانسى وهم من الفرنسيين - من
ضباطهم ان يدفعوا لهم استحقاقاتهم ، فكان لهم ما أرادوا وأرادت
الفرقة السويسرية ان تقلدهم فطبقت عليهم الأحكام العسكرية
وقوانين الاقطاع السويسرى معا وعوقب عدد منهم عقابا وحشيا .
وحاولت الفرقة الفرنسية حماية السويسريين فاستصدر لافاييت
من الجمعية الوطنية فى ٦ اغسطس ١٧٩٠ قرارات رادعة . وكلف
ابن عمه الماركيز دى بوييه Marquis de Bouillé قائد عام
الموز Meuse والموزيل Moselle ان يفرض النظام .

واند فعل بذبح نصف الفرقة السويسرية وشنق العشرات ونفى
العشرات ، وكان الضباط الفرنسيون يتشفون فى ضحايا هذه
المذبحة ويهنئون ضباط الفرقة الألمانية التى أطلقها بوييه على
السويسريين بأمر من لافاييت ، وكأنما كان النبلاء يتشفون فى
اخماد ثورة العبيد .

لقد كانت الفرقة السويسرية التى ابيدت ، وهى فرقة
شاتوفيو Chateaufieux ، هى الفرقة التى كانت تقيم فى الانفاليد
يوم الباستيل وتركتم ثوار الباستيل ينهبون آلاف البنادق وبعض
المدافع فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ . ياله من انتقام رهيب من الضمير
الثورى فى فرنسا .

شيء آخر خطير حدث خلال العام التالي لسقوط الباستيل ،
هو ان توقف المواطنون عن دفع الضرائب العامة فى وقت افلاس
الخزانة العامة وهجرة النبلاء بثرواتهم على نطاق واسع ، وفشل
نيكر فى طرح قرض وطنى جديد ، زاد موقف الدولة المالى تازما ،
الى حد ان الملك نفسه اضطر الى ارسال الاوانى الملكية الذهبية
الى دارسك النفود . وفى ٢٩ سبتمبر قررت الجمعية الوطنية ان
تسلم الكنائس للخزانة كل الاوانى الفضية غير الضرورية حقيقة
للمطافوس الدينية ، وفى ١٠ أكتوبر ١٧٨٩ اقترح تاليران ، استنف
أوتان ، وضع أملاك الكنيسة تحت تصرف « الأمة » ، قائلا فى
بيانه للجمعية الوطنية :

« ان رجال الدين ليسوا ملاكا مثل الملوك الآخرين . ونحن
نعلم ان ذلك الجزء من أملاك الكنيسة والأديرة اللازم لضمان
معاشهم هو الوحيد الذى يخصهم . أما الباقي فهو ملك للفقراء .
فلو ان الأمة ضمنت لهم هذا المعاش ، فان ملكية المنتفعين لن تمس .
فالأمة اذن تستطيع أولا الاستيلاء على أملاك الهيئات الدينية التى
تستحق الالغاء مع ضمان معاش للأفراد الذين تتكون منهم هذه
الهيئات ، وتستطيع ثانيا الاستيلاء على المنافع التى لا وظيفة لها .
وتستطيع ثالثا تخفيض جزء ما من الايرادات الفعلية التى يتقاضاها
أصحابها ، بالاضطلاع بالمسؤوليات المرتبطة بهذه الاموال التى
نزعت ملكيتها من حيث المبدأ » .

و ثارت فى الجمعية الوطنية مناقشة عاصفة حول هذا الموضوع
فاكد الأب مورى Maury والأب كازاليس Casalès ان حق
الملك حق مصون ومقدس بموجب نصوص « اعلان حقوق الانسان »
وبالتالى لا يجوز المساس به ، فرد ميرابو والأب سيبز بأن المادة ١٧
من اعلان حقوق الانسان تبيح للدولة نزع الملكية اذا كان ذلك يخدم
المصلحة العامة ، بشرط دفع التعويض العادل . كذلك بين ميرابو

وسيميز ان الكنيسة في حقيقتها ليست « مالكة » وانما هي مجرد
مديرة لأملكها لتنفق ريعها في سبيل الخير ، على المستشفيات
والمدارس والملاجئ . وبما ان الدولة قد أصبحت مسئولة عن علاج
المواطنين وتعليمهم وعن ايواء العجزة والايتام وعن اغائة المحتاجين
فلا مناص من ان تنتقل اليها أملك الكنيسة والأديرة .

وقد كان . . . ففي ٢ نوفمبر ١٧٨٩ أصدرت الجمعية الوطنية
قانونا بمصادرة أملك الكنيسة والأديرة بأغلبية ٥٦٨ صوتا مقابل
٣٤٦ صوتا ، مع تكفل الدولة بمعاش القساوسة وباغائة المعوزين .
وهكذا بيعت أملك الكنيسة والأديرة ابتداء من مارس ١٧٩٠
فاشترها أبناء البورجوازية « الطبقات المتوسطة » والفلاحون
الميسورو الحال ، وكذلك بيعت أملك الدومين الملكي . ومن قبل
ذلك كانت الجمعية الوطنية قد ألغت الأديرة في فرنسا بقانون صدر
في ١٣ فبراير ١٧٩٠ . واستدعى كل ذلك اعادة تنظيم الكنيسة
فاصدرت الجمعية الوطنية في ١٢ يوليو ١٧٩٠ « الدستور المدني
لرجال الدين » .

ورغم ان أعضاء الجمعية الوطنية أعلنوا مرارا ان محركهم
لاصدار هذه القوانين لم يكن أى عداة للدين ، وانما كان رغبتهم في
انقاذ الدولة ، الا ان مصادرة أملك الكنيسة أضافت مزيدا من الوقود
لأشعال فتنة الثورة المضادة . . .

١١ - لافاييت المركيز المذبذب

كانت للماركيز دى لافاييت (١٧٥٧ - ١٨٣٤) Gilbert Marquis de La Fayette مأساة فى الثورة الفرنسية شبيهة بمأساة ميرابو ، فهو مثله قد دخل مسرح الأحداث صغيرا فقد كان فى الثانية والثلاثين من عمره عام ١٧٨٩ ، عام سقوط الباستيل ، وهو مثله خرج من مسرح الأحداث خروجا مشينا بعد عامين أو ثلاثة فى ١٧٩٢ ، فوجد نفسه فى قائمة الخونة الذين تطلب الثورة رأسهم ، مرفوضا من زعمائها مرفوضا من أعدائها .

لم يمت لافاييت فى شبابه أو رجولته الباكرة ، بل عاش حتى بلغ ٧٧ عاما . وشارك فى خلع ملكين ، هما لويس السادس عشر عام ١٧٩٢ ، وصديق شبابه شارل العاشر (الكونت دارتوا) فى ثورة ١٨٣٠ التى جاءت بلويس فيليب ملك الفرنسيين ، كما حدثنا

● نشرت بجريدة الأهرام

بتاريخ ١١/١١/١٩٨٩ .

رفاعة الطهطاوى الذى شاهد هذه الثورة ووصفها لنا فى « تخلص
الابريز » .

ومثل ميرابو كان لافاييت من طبقة النبلاء ومثل مرابو كان
النبلاء من أعداء الثورة يصفونه بأنه خائن لطبقته ، بينما كان
الكثيرون من الثوار يرون فيه منذ البداية خطرا على الثورة وانتهازيا
يمتطى الجماهير ، أحرق ، قليل الكفاءة ، عاشقا للدعاية لنفسه .
أما هو فقد كان فى شيخوخته يقول عن نفسه انه كان دائما جمهوريا
ولكن كراهيته لليعاقبة جعلت اتباع روبرتير يبغضونه .

ويبدو ان نشأة لافاييت كانت لها صلة بشخصيته المعقدة
المحيرة التى تميزت بالتمرد والذبذبة بين المتناقضات . فقد ولد
لافاييت فى قصر شافانياك Chavaniac من أعمال مقاطعة
الاوفرنى Auvergne ، ولم يكن واسع الغنى ولا من نبلاء الدرجة
الأولى ، وكان من الصعب عليه أن يثبت نبالة أسرته قبل عام ١٤٠٠
مثل آل زوهان Rohan وآل نواي Noailles وآل لاروشفوكو
La Rochefoucauld ، وبالتالي فلم يكن فى إمكانه أن يلتحق بالبلاط
الملكى فى فرساي ، حيث كانت هناك لغة خاصة وعادات خاصة
وسلوك خاص ، بل ومشية خاصة أشبه بالترحلق ، وحيث رضا
الملك ضرورى للترقية السريعة . كانت هناك ثلاث طبقات من
النبلاء : نبلاء البلاط ونبلاء الريف ونبلاء القضاء المعروفين بنبلاء
الروب ، وكان هؤلاء أغنياء ، ولكن كان يحتقرهم غيرهم من النبلاء .

كان جيلبر لافاييت ابنا لواحد من نبلاء الريف : مات أبوه
الضابط بقذيفة انجليزية فى ١٧٥٩ دون أن يرى ابنه جيلبير ، فتشأ
لافاييت الذكر الوحيد فى محيط من النساء فى قصر شافانياك ،
وسرعان ما تركته أمه فى ١٧٦٠ وعاشت فى باريس ، فكفلته جدته
لأبيه ، وكانت سيدة متدينة من الطراز القديم ، تصحب حفيدها دائما

الى الكنيسة كره منه ، ولكنه توقف عن اصطحابها عندما استطاع ذلك . أما دخل الأسرة فكان ٢٥٠٠٠ جنيه سنويا (فى الجنيه وقتئذ ٢٥ فرنكا بالأسعار الحالية ، أى ان دخل الأسرة سنويا كان ٦٢٥٠٠٠ فرنك بأسعار ١٩٨٣ عام نشر كتاب أوليفيه برنيه Olivier Bernier « لافاييت » فى طبعة مايو Payot ، ولم يكن هذا المبلغ كافيا للسطوع فى بلاط فرساي ، أو حتى لشراء الأورطة التى كان يقودها أى ضابط فى الجيش ، حتى ١٧٨٩ كان الملك يمنح الرتب العسكرية ، ولكن كان على النبيل ان يشتري الكتيبة التى يقودها .

وفى ١٧٦٨ ، حين كان لافاييت فى الحادية عشرة من عمره ، أرسلت أمه فى طلبه ليقيم معها فى باريس . وكانت تقيم فى جناح بقصر لو كسمبورج حيث كان يقيم آل لارييفير La Riviere ، وهم أسرة لافاييت لأمه ، وقد كانوا من نبلاء الطبقة الأولى ، نبلاء البلاط ، وكانوا يعودون بنسبهم الى سنة ١٠٠٠ ميلادية ، وكان منهم مارشال فى القرن الخامس عشر ، وكانت منهم محظية الملك لويس الثالث عشر ، ومؤلفة أول رواية فى اللغة الفرنسية . وقد ساعدت أم لافاييت أباه الضابط ان يحصل على رتبة كولونيل قبل مقتله فى ١٧٥٩ .

وكان غرض الأم من استقدام ابنها الى باريس هو ادخاله المدارس الراقية وتقريبه من المجتمع المتمدن ومن مركز السلطة وتعريفه بصدور الدولة . وكان لافاييت يشعر بشعور الريفى وسط كل هؤلاء الارستقراط المتمدنين ، ففى باريس لا أحد يعرف شيئا عن آل لافاييت . وحين صدر تقويم الأعيان فى ١٧٧٧ لم يرد فيه ذكر لآل لافاييت .

وكانت أمه شابة فى الثلاثين ، وأدخلته كلية دى بليسيس College Du Plessis بجوار السوربون ، وكان كل زملائه أرفع

منه ارستقراطية ، فأحس بالغربة ولم يخالط أحدا ونشأ صموتا ومنزويا وربما ماكرا يظهر ما لا يبطن ، أو على الأقل مزدوج الشخصية مذبذبا متارجحا بين المتناقضات . هذه النشأة بذرت في نفسه بذور التمرد على طبقته وحب الحرية والمساواة والاحساس بحقوق الانسان من جهة ، دون تفريط في النبالة والامتياز من جهة أخرى .

وفي ١٧٧٠ مرضت أمه وماتت في سن الثانية والثلاثين ، ثم تبعها جده لأمه وعم له بالزواج . وبهذا أصبح لافاييت من أغنى الشباب في فرنسا لأنه كان الوريث الوحيد لكل هؤلاء وهو في سن ١٢ سنة : ورث أطيان جده في بريتاني وعلى نهر اللوار ، وأصبح دخله ١٢٠.٠٠٠ جنيه سنويا أي نحو ٣ ملايين فرنك بالإضافة الى ما كان قد ورثه عن أبيه . واشترى له جده رتبة ملازم في الأورطة التي كان أبوه يقودها . وبدأ لافاييت خدمته العسكرية في ١٧٧١ وهو في سن ١٤ سنة . ولكنه استمر في الدراسة عاما آخر .

وكانوا في تلك الأيام يخطبون للشباب وهم بعد صبية ، فرتب له جده قبل ان يموت ان يزوجه من أدريين Adrienne بنت الدوق أيان Duc Dayen قائد الحرس الملكي وحفيده المارشال الدوق نوادي Duc De Noailles كانت دوطتها ٤٠٠.٠٠٠ جنيه أي ١٠ ملايين فرنك . . والتحق لافاييت بأكاديمية الفرنسيان في سن ١٦ سنة ، وكان نجم الأكاديمية هو الكونت دارتوا ، ووجد لافاييت نفسه فجأة في البلاط الملكي تحت جناح عديله الفيكونت دي نواي . وتزوج لافاييت في ١٧٧٤ قبل ان يبلغ الثامنة عشرة من عمره . وفي هذا العام ارتقى لويس السادس عشر وماري انطوانيت عربة فرنسا . وفي عمر ١٨ سنة رقى لافاييت الى رتبة كابتن ، ثم احيل الى الاستبداع في سن ١٩ سنة . وكان شقيا في حياة

البلاط فقد وجدها موزعة بين الرقص والأزياء والترنرة التافهة
الذكية والخيانات الزوجية والنفاق ، الخ . . فاعرض عنها وتركزت
أحلامه في الجندية .

وفي ١٧٧٧ سافر الى أمريكا ليقاقل مع الثوار في حرب
الاستقلال الأمريكية تحت امرة واشنطنون ، وكان برتبة لواء ولغم
انه كان لايزال في العشرين من عمره ، فقد كانوا في تلك الأيام
يشترون الرتب . ومع ذلك فقد أبلى بلاء حسنا في حرب الاستقلال
الأمريكية ، وكان آخر عمل عسكري قام به في أمريكا عام ١٧٨١
مساعدة واشنطنون على الانتصار في يوركتاون Yorktown
وبعدها عاد الى فرنسا متوجا بأكليل الغار وسمى يومئذ ببطل
العالمين ، القديم والجديد . وصفح عنه الملك لأنه قام بمغامرته
الأمريكية ضد ارادة الأسرة وضد الأمر الملكي ، واستقبله بالحفاوة
الكبرى لأن مغامرته الأمريكية جعلت منه نجما في صالونات باريس
وفرساي وشخصية رومانسية تسحر خيال الشباب والنساء
والجماهير .

وبعد عودته الى باريس انتخب ممثلا للنسلاء في مجلس
الطبقات ، فكان من أوائل الدعاة لاعلان حقوق الانسان . وفي يوم
الباستيل اختير قائدا للحرس الوطني . وبلغ قمة مجده في عيد
الآخاء الفيدرالي (١٤ يوليو ١٧٩٠) . ولكن نجمه أفل بعد مذبحه
ناتسي وسقط كزعيم سياسي ولم يبق منه الا « الجنرال » المستول
عن جانب من الجبهة عندما غزيت فرنسا . وفي محاولة هرب الملك
كان له دور غريب في محاولة انقاذ الملك والملكية ، فتألبت عليه
كافة القوى الديمقراطية وصدر قرار من الجمعية التشريعية في
١٠ أغسطس باتهامه بالخيانة فلجأ الى النمساويين الذين اعتلقوه
وعاد الى فرنسا بعد انقلاب ١٨ برومير (١٧٩٩) الذي استولى به

يونابرت على السلطة واعتكف فى الريف فى ظل الامبراطورية لأنه لم يجد له مكانا فى نظام نابوليون .

كان لافاييت دائم التودد للجمعية الوطنية ، وكأنه يريد ان يقنع الجميع بأن قاعدته مدنية وليست عسكرية . وفى ١٩ يونيو ١٧٩٠ اقترح على الجمعية الوطنية الغاء جميع الألقاب فأغضب الملك ، ولكنه لم يلبث ان اعتذر للملك عن ذلك فى ٢٧ يونيو . وهذا هو نفس الرجل الذى اقنع الجمعية الوطنية باتخاذ اجراءات رادعة مع الحامية المتمردة على ضباطها الارستقراط فى نانسى ، فأسفر ذلك عن مذبحه نانسى الرهيبة فى أغسطس ١٧٩٠ .

وبعد مذبحه نانسى قامت مظاهرات الاحتجاج فى التويلرى ففرقها لافاييت برصاص الحرس الوطنى بأمر من بالى عمدة باريس وبقرار من الجمعية الوطنية التى كانت تخشى اشتراك العامة فى الحياة السياسية . ومنذ ذلك الحين شجب نجمه عند الجماهير . ورغم ان لافاييت حذر الحرس الوطنى من الخطر على « النظام العام » من « الفوضى » و « الحرية المعربة » فقد أخذت الجماهير تستمع لكلام زعماء « اليسار » : مارا Marat وبريسسو Brissot ودانتون Danton . وفى عدد ١٣ سبتمبر ١٧٩٠ من « صديق الشعب » هاجم مارا « ذلك الرجل » واتهمه بأنه جليل الحرس الباريسى باليسار بموافقته على « مذبحه الوطنيين فى نانسى » . ولم يوزع هذا العدد ولكن بعد وقت نشر كاميل ديمولان Camille Desmoulins مقالا يقول فيه ان لافاييت ليس من قماش واشنطون فهو ينتظر اللحظة التى يمكنه فيها أن يقوم بدور الجنرال مونك Monck وهو الجنرال الذى أعاد الملكية فى انجلترا عام ١٦٦٠ بعد جمهورية كرومويل .

وفى صيف ١٧٩٠ أصدر مارا منشورا بعنوان « ما يفعلونه بنا » قال فيه ان حشودا من القوات الأجنبية بقيادة الكونت دارتوا تستعد

لغزو فرنسا ، ولكن لا أحد يتكلم عن ذلك خوفا من الوزراء ومن ببالى
عمدة باريس ، ومن قائد الميليشيا الباريسية الذى تربطه مع البلاط
روابط تدعو للأسف الى الانزعاج ، ودعا مارا الشعب ليزحف الى
ضاحية سان كلو Saint-Cloud حيث يقضى الملك والملكة أجازة
الصيف ويعيد الملك الى باريس ويضع النمىوية فى السجن
ويقبض على قيادة الجيش ، واختتم بقوله : « خمسمائة أو ستمائة
رأس يفصم وتكونون قد ضمنتم بها أمنكم وحریتكم وسعادتكم .
ان الرحمة الزائفة قد شملت سواعدكم وأوقفت ضرباتكم ، وهى
ستكلفكم حياة الملايين من اخوتكم . فلو نجح اعداؤكم لحظة لسالت
دماؤكم أنهارا ، لذبحوكم بغير رحمة ، وبقرؤا بطون زوجاتكم ،
ولا تنتزعوا بأيديهم الدموية قلوب أطفالكم من أحشائهم لكى يشفؤكم
تماما من حب الحرية » .

وفى صباح ١٨ ابريل ١٧٩١ أراد لويس السادس عشر
وأسرته ان يغادروا قصر التويلرى ليقضوا عيد القيامة فى قصر
سان كلو ، فمنعه الحرس الوطنى من مغادرة التويلرى . لقد كان
واضحا ان الأسرة المالكة كانت سجيننة التويلرى ، واستقال لافاييت
من قيادته الحرس الوطنى ، ولكنه عاد وسحب استقالته .

وفى ٢٠ يونيو ١٧٩١ هرب الملك وأسرته من قصر التويلرى
قاصدين حدود فرنسا الشرقية ليكونوا فى حماية ليوبولد الثانى ،
امبراطور النمسا شقيق ماري انطوانيت ، وجيوشه المتأهبنة مع
حلفائها لغزو فرنسا وتثبيت لويس السادس عشر على عرشه واعادة
النظام الاقطاعى وسحق كل مكتسبات الثورة الفرنسية .

ولم يعرف لافاييت بهرب الملك الا فى اليوم التالى (٩) وبدأت
ورحلة حقيقية لأن الخبر كان على كل لسان والخواطر هائجة .
فاجتمع لافاييت فورا ببالى Bailly عمدة باريس وبالكساندر دى
بوهارنبه Alexandre De Beauharnais الذى كان رئيس الجمعية

الوطنية ، وسألها : ما رأيكما هل القبض على الملك وأسرقته ضرورى
لتجنيب البلاد الحرب الأهلية ؟ « فاجابا بالايجاب . فقال لافاييت :
« اذن ستأخذ على عاتقى هذه المسئولية » .
وكتب لافاييت على ورق الحرس الوطنى :

« أمر : بما ان أعداء الثورة قد اختطفوا الملك ، فحامل هذا
مكلف باخطار المواطنين الصالحين ، وهو مكلف باسم الوطن الذى
يكتنفه الخطر . باستخلاص الملك من أيديهم واعادته الى قلب
الجمعية الوطنية ، وهى سوف تجتمع ، ولكنى آخذ على عاتقى كل
المسئولية عن النظام الحالى » . وأرسل لافاييت الرسل وراء
الملك الهارب .

وفى ٢١ يونيو أعلنت الجمعية الوطنية نبا خطف الملك وبعض
أفراد أسرته بأيدي « أعداء الشعب » للتأمر على الحرية الفرنسية .
وكان كل هذا الكلام غبيا لأن الملك ترك وراءه فى التويلرى وثيقة
تندد بالثورة ولكل أعمالها ، ولأن الكونت دى بروفانس ، ولى العهد،
كان قد هرب أيضا . وفى أثناء تغيير الجياد فى فارين Varennes
قبض على لويس السادس عشر وأسرقته وأعيدوا مخفورين الى باريس
فوصلتها فى ٢٥ يونيو ١٧٩١ .

وفى باريس خطب دانتون فى نادى اليعاقبة قائلا : لقد
حلف لنا القائد العام للحرس الوطنى برأسه ان الملك لن يغادر
التويلرى ، ونحن الآن نطالب بشخص الملك أو برأس القائد العام .
واعترض الكسندر دى لاميت De Lameth على هذا الاقتراح
فرفض .

لم يصدق أحد هذه الكذبة الغبية ، ولكنها كانت الطريقة
الوحيدة التى أنفذ بها لافاييت والجمعية الوطنية الملك والملكية فى

فرنسا مؤقتا ، فلو انهم تحدثوا عن هرب الملك الى معسكر الأعداء
لكان من الواجب خلعه ومحاكمته واعدامه ، بل وعلان الجمهورية .
واكتفى بإيقافه عن وظائفه . وقد نجح الملكيون الدستوريون بقيادة
لافاييت فى وقف المد الجمهورى واستمرار لويس السادس عشر على
عرش فرنسا .

وفى ١٦ يوليو ١٧٩١ قامت المظاهرات فى شأن دى مارس
تطالب بخلع الملك ووقعت العرائض التى أعدها اتيساع فيليب
أورليان لذلك . وفى ١٧ يوليو بدأ الشعب فى الشأن دى مارس .
وكانت أغلبية الجمعية الوطنية ضد الدوق أورليان وضد النظام
الجمهورى ، فطالبت بإقرار النظام وأغلقت نادى الكوردلييه وعطلت
صحف اليعاقة وطالب بالى عمدة باريس لافاييت باستخدام قوة
الحرس الوطنى ، وأعلنت الأحكام العرفية وجرت محاولة فاشلة
لاغتيال لافاييت . ورغم نجاح لافاييت فى قمع المظاهرات الا ان هذه
كانت نهاية شعبيته وسيطرته على جماهير باريس . وقد سمى
بالسفاح لأنه أطلق الرصاص على الجماهير فاردى خمسين قتيلاً كذلك
انتهت سلطة الجمعية الوطنية ، ولم يعد لأحد سلطة فى باريس
الا اليسار ، وهم اليعاقة والجيروند . وفى سبتمبر ١٧٩١ أعيد
الملك الى عرشه . وفى ١٣ سبتمبر أعلن العفو العام بناء على اقتراح
الملك . وفى ١٨ سبتمبر صدر الدستور المنقح . وفى ٣٠ سبتمبر
انفضت الجمعية الوطنية بعد ان أصدرت قانونا يحرم على أعضائها
الاشتغال بالسلطة التنفيذية . فاستقال لافاييت من قيادة الحرس
الوطنى الذى أهدها سيفاً مقبضه من ذهب . وسكت الجمعية
الوطنية له ميدالية بصورته .

كانت مذبحه الشأن دى مارس (١٧ يوليو ١٧٩١) بداية
صفحة جديدة فى تاريخ الثورة الفرنسية ، فقد أفضت كذبة
« اختطاف الملك » الى تبرئة لويس السادس عشر عن تهمة الخيانة

العظمى ، وبذلك استرد سلطاته الدستورية وعاد الى الجلوس على عرشه والى قيادة الارستقراطية فى المناورة للاطاحة بكافة مكاسب الثورة الفرنسية . وكانت وسيلتهم الى ذلك اشعال الحرب الخارجية وفتح الطريق أمام الجيوش الأجنبية بقيادة النبلاء المهاجرين التى كانت تدق أبواب فرنسا لتثبيت الملك على عرشه واعادة النظام الاقطاعى الى البلاد .

كذلك كانت وسيلتهم الثانية هى اشعال الفتن الداخلية بالاستعانة برجال الدين الغاضبين بسبب مصادرة أملاك الكنيسة والأديرة وبسبب قطع كل صلة بينهم وبين بابا روما والفاتيكان وتحويلهم الى كنيسة قومية ينظمها دستور مدنى .

كذلك كانت وسيلتهم الثالثة هى الاستفادة من مخاوف الجمعية الوطنية ثم الجمعية التأسيسية حامية مصالح البورجوازية ، أى الطبقات المتوسطة المالكة ، بعزل الطبقات الشعبية عن المشاركة فى الحياة السياسية بحرمانها من حق الانتخاب ومن الاشتراك فى الحرس الوطنى .

وقد ساعد لافاييت على تدهور الموقف بسياساته المذبذبة بين الارستقراطية والجماهير .

ولم يكن الملك ونبلاؤه وجنرالاته وحدهم دعاة حرب ، بل كان الثوار المعتدلون من الجيرونديين وبعض المتطرفين من اليسار دعاة حرب أيضا أملا فى أن يلهبوا بالاشتعال الوطنى روح الثورة فى مواجهة الملك ونبلائه ، فاعلنت الحرب على النمسا فى ٢٠ ابريل ١٧٩٢ ووقف روبسبير وحده يندد بالحرب .

وفى أول مايو ١٨٩٢ خطب روبسبير فى اليعاقبة يقول :
« كلا ! انا لا أثق بتاتا فى الجنرالات ، فباستثناء قلة منهم شريفة

فانى أقول انهم جميعا على وجه التقريب أسفون على ضياع النظام القديم وعلى ضياع المزايا التي كان البلاط يغدقها عليهم . كلا . انا لا أعتمد الا على الشعب ، على الشعب وحده » لقد كان روبسبير يخشى خيانة الجنرالات . قال روبسبير : « حظموا لافاييت تنقذوا الأمة » أما دانتون فقال في اليعاقبة في ١٨ يونيو ١٧٩٢ : « ليس من شك في ان لافاييت هو زعيم أولئك النبلاء المتحالفين مع كل طغاة أوروبا » .

وكان لافاييت يقود الجيش في الحدود الشمالية الشرقية (بلجيكا) وكان ظهيره الجنرال روشامبو Rochambeau وكان الجنرال لوكنز Lackner يقود جيش الراين قرب مِتز Metz . وكان لافاييت وضباطه النبلاء مشغولين بالسياسة أكثر من اشتغالهم بالحرب ، ثائرين للحصار الذي فرضه اليعاقبة في باريس على الملك الهارب ، فأثاروا روح التمرد في جنودهم . وكان لافاييت يخطط للزحف على باريس ليقم مذبة لليعاقبة . كما كتب هو في خطابه للجمعية التشريعية في أول أكتوبر ١٧٩١ . وفقا لدستور ١٧٩١ :

« أفلا نأبى أن نحارب الأجانب الذين يتدخلون في خلافاتنا فهل يعفينا هذا من انقاذ وطننا من الطغيان الداخلي ؟ »

« يجب ان تبقى سلطة الملك غير متقوضعة لأن الدستور يضمنها يجب ان تكون مستقلة ، فاستقلال سلطة الملك دعامة من دعائم حريتنا . يجب ان يكون الملك موقرا لأن الملك يجسد الجلالة القومية . يجب ان يتمكن الملك من اختيار وزارة لا تقيد بها اصفاة أى حزب من الأحزاب . فان وجد متآمرون فيجب ان يهلكوا بالسيف وحده » (خطاب لافاييت الى الجمعية التشريعية في ١٦ يونيو ١٧٩٢) .

اما أولئك المتآمرون الذين كان يتحدث عنهم لافاييت فى خطابه فهم « حزب اليعاقبة الذين يشيرون كل القلائل . انه الحزب الذى اتهمه بصوت مرتفع . هو الحزب المنظم وكأنه امبراطورية مستقلة داخل العاصمة وفى فروعها المختلفة ، يقوده قيادة عمياء بعض الزعماء بدافع من طموحهم الشخصى . هذه الطائفة تشكل نقابة واضحة داخل الشعب الفرنسى » .

بل ان لافاييت تركه مكانه فى جبهة القتال وعاد الى باريس ، ليردد بشخصه نفس الكلام أمام الجمعية التشريعية فى ٢٨ يونيو ١٧٩٢ فاستتمعت الجمعية التشريعية لخطابه فى فتور واضح ، ففقل راجعا الى ميدان القتال ، وبدأت الجمعية التشريعية تتشكك فى ولاء جنرالاتها للثورة . وتوالت الهزائم العسكرية فى جبهة القتال .

وفى ١٥ يوليو ١٧٩٢ اقترح النائب باسير Basire اداة لافاييت بتهمة الخيانة فرفضت الجمعية التشريعية اقتراحه .

وفى ٢٠ يوليو طالب روبسبير مرة أخرى بالقبض على لافاييت . وفى ٤ أغسطس ١٧٩٢ أيدت لجنة اقتراح روبسبير ، ولكن الجمعية التشريعية رفضت اقتراح روبسبير بأغلبية ٤٠٦ أصوات ضد ٢٤ صوتا . وبعد ستة أيام اقتحمت الجماهير الثائرة قصر التويلرى من جديد فلجأ الملك الى الجمعية التشريعية ليحتسب بها . وبعد مناقشة طويلة قررت الجمعية اعتقال الأسرة المالكة وأرسلتها مخفورة الى السجن - وعينت القائد ديموريز Dumouriez بطل معركة فالى Valmy الذى أمر باعتقال لافاييت ، ولكن لافاييت هرب من سيدان Sedan التى أقام فيها مقر قيادته الى معسكر الأعداء مع ثلاثين من ضباطه فى ١٩ أغسطس ١٧٩٢ .

هذا ما فعلته خمرة العقائد أو الطموح الشخصى أو المصالح

الطبقية بجندى باسل خرج منذ خمس عشرة سنة ليحرر الأمريكيين من ربة الانجليز ، ولكن أمره انتهى بعجزه عن تحرير وطنه من ربة النمساويين والجيش المتحالفه . اليس فى مأساة لفاييت وجه شبه من مأساة كريولانوس فى شكسبير ؟

لم يقاتل لفاييت بسبب مبادئه ، فى صفوف أعداء بلاده النمساويين والبروسيين كما فعل غيره من نبلاء فرنسا المهاجرين ، بل أثر ان يعيش معتقلا فى بلاد الأعداء حتى أفرج عنه القائد المظفر نابليون بونابرت عام ١٧٩٧ على الا تطاء قدماء أرض فرنسا ، ولكن هذه قصة أخرى .

قال لفاييت . بالسيف سوف تهلكون . وقال الشوار : بالمقصلة سوف تهلكون لقد انتهت حرب الكلام وبدأت حرب النضال . لقد أدخل لفاييت الثورة الفرنسية فى مرحلتها الدموية .

١٢ - فارين : هروب الملك واعدامه

عندما هرب الملك لويس السادس عشر من باريس مع أسرته ليلحق بجيش النبلاء وبجيش الاعداء المرابط على حدود فرنسا الشمالية الشرقية « بلجيكا » ، أعلن لافاييت ومن بعده الجمعية الوطنية ان اعداء الشعب « اختطفوا » الملك والعائلة المالكة ، لأن اعلان « هرب » الملك كان بالضرورة يستدعى محاكمة لويس السادس عشر وخلعه وربما اعدامه ، ولو غيابيا ، واعلان الجمهورية باعلان دستور جديد غير دستور ١٧٩١ الذى كان مؤسسا على مبدأ الملكية المقيدة وهذه حقيقة ما حدث :

فى ليلة ٢٠/٢١ يونيو ١٧٩١ ، نحو منتصف الليل خرج لويس السادس عشر من باب جانبي بقصر التوليرى تصحبه أسرته ، وكان الملك متخفيا فى زى خادم خاص . وكان لافاييت فى الوقت

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١٩٨٩/١١/٢٥ •

نفسه يتفقد الحراسة على أبواب القصر لكنه منذ وقت طويل قد ترك بلا حراسة أحد أبواب القصر ، ليسمح للكونت اكسيل فيرسن Axel Fersen صديق الملكة ماري انطوانيت بالدخول والخروج عند الملكة كما يريد . وكان يشاع عنه أنه عشيق الملكة .

وكان الكونت اكسيل فيرسن سويدي الجنسية ، وكان سفيرا لبلاده في باريس مقربا ولامعا في البلاط الفرنسي بسبب وسامته وولائه لماري انطوانيت ، فلما انتهت مدة سفارته آثر ان يقيم في البلاط الفرنسي بسبب صداقته للملكة وبسبب مباحث الحياة في فرنسا .

وكان اكسيل فيرسن قد أعد خصيصا للهرب مركبة ضخمة يمكن للأسرة المالكة ان تتكسب فيها ومعها حقائب أكثر من المعتاد . تحت ستار ان المركبة كانت تحمل خزائن من العملات الذهبية المرسلة الى الجنرال بوييه Bouillé لتمويل حاميته في نانسي وضعت نقط حراسة من الفرسان على طوال الطريق من باريس الى سانت منيهو Sainte-Menehould عن طريق سستالون Chalons-Sur-Marne وأرجون Argonne وهكذا كان من المقرر أن يبلغ لويس السادس عشر مونميدى Montmédy وكانت تحف بها من الجانبين كوكبة من الفرسان . وتأخر رحيل العربة الملكية من قصر التويلري خمس ساعات .

ولما تأخر وصول العربة الملكية الى شالون انصرف الفرسان في نقط الحراسة التالية لشالون . ووصل الملك الى فارين Varennes في ليلة ٢٢/٢١ يونيو ، ولم يجد فرسان الحراسة ، وتوقف فيها ليغير جيار عربته في فندق في سانت منيهو كان يديره صاحبه واسمه درويه Drouet يديره كمحطة لتغيير الجياد . وفي سانت منيهو تعرف ابن صاحب الفندق على الأسرة المالكة حيث كانت العربة

واقفة ، وأقام المتاريس على كوبرى بنهر اير Aire ليمنع مرور العرب . ولما أراد الملك العبور وجد الكوبرى مسدودا . ودق ناقوس البلدة فتجمع الفلاحون فى حالة استنفار وانضم اليهم الفرسان نفسه يتفقد الحراسة على أبواب القصر لكنه كن منذ وقت طويل الهوسار ممن كانوا يحرسون العرب متضامين معهم .

وفى صباح ٢٢ يونيو عادت العائلة المالكة فى طريقها الى باريس فى حراسة بارناف Barnave وبيتون Pétion تحفها من الجانبين كوكبة من الحرس الوطنى جاءوا من كل القرى المجاورة وعمى الملك والملكة معاملة السجناء الفارين . وعرف الجنرال بوييه بالأمر ولكنه وصل بعد رحيل الملك بساعتين . وفى مساء ٢٥ يونيو دخل الملك باريس وسط الصمت الرهيب ، يحف به من الجانبين الجنود حاملين بنادقهم مقلوبة الى أسفل ، وكانهم يسرون فى « جناز الملكية » .

كان البيان الذى كتبه لويس السادس عشر موجها الى الشعب الفرنسى وتركه فى قصر التويلرى قبل هروبه واضحا تماما فى اعرابه عن نوايا الملك ، فقد أعلن انه ينوى اللحاق بالجيش النمساوى المربط فى بلجيكا ، وانه ينوى العودة الى باريس ليحل الجمعية الوطنية والنوادر السياسية وليوطد الحكم المطلق . وقد كانت جميع سياسات لويس السادس عشر السرية تستهدف تدخل اسبانيا والنمسا لصالحه . ومنذ أكتوبر ١٧٨٩ كان قد أرسل مبعوثا سرا من رجال الدين هو الأب دى فونبرون L'abbé de Fonbrune الى كارلوس الرابع ملك اسبانيا ليحرض أمراء الازاس على فرنسا .

كلا . . لم يكن لويس السادس عشر ذلك الرجل البسيط الذى يصوره لنا بعض المؤرخين لاعفائه من المسئولية عما حدث ،

بل كان على شيء من الذكاء وقد سخر ذكائه لخدمة عناده الكبير وإيمانه المطلق باسترداد سلطته المطلقة ولو كان في ذلك خيانة لأمته ..

فماذا كانت نتائج هرب الملك الى فارين ؟

في الداخل اتقسمت الأمة الفرنسية الى قسمين لامهاندنة بينهما : الديمقراطيون المتجمعون زعماءهم في نادي الكوردلييه ، وقد طالبوا الجمعية بإعلان الجمهورية أو على الأقل عدم البت في مصير الملك دون رجوع الى القواعد الشعبية ، والبورجوازية الحاكمة بقيادة الثالث البورجوازي : بارناف Barnave ولاميت Lameth وديبورت Duport يظهرونهم لافاييت بحرسه الوطني ، وهذه كانت تخشى دخول الجماهير الشعبية في الصراع السياسي خوفا على أملاكها ، فابتكرت اكذوبة اختطاف الملك .

ولعل أوضح تعبير عن موقف البورجوازية الحاكمة كان قول بارناف في خطبته بنساذي الكوردلييه في ٢١ يونيو ١٧٩١ : « الدستور : هذا هو رائدنا . الجمعية الوطنية : هذه هي مركز تجمعنا » . أو قوله في الجمعية الوطنية في ١٥ يوليو ١٧٩١ : « فهل ننهي الثورة ؟ هل نبدأها من جديد ؟ .. خطوة أخرى تكون عملا اسيفا ومدانا . خطوة أخرى في اتجاه الحرية تكون تحطيم الملكية ، وفي اتجاه المساواة تكون تحطيم الملكية الفردية » ..

ظلت الثورة الفرنسية البورجوازية الحاكمة هي ثورة الطبقات المالكة رغم خيانة الملك وخطر الارستقراطية . عند البورجوازية الحاكمة لقد انتهت الثورة .

وهكذا حدث صدمع كبير في نادي الكوردلييه في ١٦ يوليو ١٧٩١ فخرج منه دعاة الملكية الدستورية : بارناف ولاميت وديبورت

بقيادة لافاييت ، واسسوا نادى الفوليان ، وخرج منه اليعاقبة بقيادة دانتون وروبسبير ومارا .

وحدثت المواجهة بينهما فى اليوم التالى مباشرة « ١٧ يوليو » فى مذبحه الشان دى مارس Chamo de Mars حيث اجتمع فى الميدان الفسيح عشرات الآلاف من المتظاهرين ليوقعوا العرائض مطالبين باعلان الجمهورية ، ففرقهم لافاييت برصاص الحرس الوطنى وترك على الأرض خمسين قتيلًا ومئات الجرحى واعتقل المئات . واغلق نادى الكوردلييه وعطلت الصحف . كل ذلك بتكليف من الجمعية الوطنية لعمدة باريس ان يحفظ النظام وبتكليف من عمدة باريس للافاييت ان يتخذ الاجراءات اللازمة .

وتم تعديل الدستور بحيث قصر فيه حق الانتخاب على الملاك او المستأجرين الذين لا تقل قيمة ملكيتهم او ايجارهم عن ١٥٠ او ٢٠٠ أو ٤٠٠ يوم عمل بحسب المهنة . وقد صدر الدستور المعدل فى ١٣ سبتمبر ١٧٩١ . وهكذا استبعد ثلاثة ملايين من أبناء الطبقات الشعبية من مزاوله حق الانتخاب . وكان روبسبير منذ بداية الثورة يطالب بالتصويت العام المباشر .

وفى ٢٨ يوليو و ١٩ سبتمبر ١٧٩١ وضع نظام للحرس الوطنى بحيث لايجوز أن ينضم اليه الا المواطنون الايجابيون actifs ويحظر على المواطنين السلبيين Passifs الانضمام اليه أو حمل السلاح . وكان تعبير « الايجابى » و « السلبي » هو من ابتكار سيسيز Sieyes تعبيراً مهذباً عن قواهم « من يملكون » و « من لا يملكون » . وهكذا تحول الحرس الوطنى لفترة الى ميليشيا للبورجوازية المسلحة فى مواجهة شعب اعزل .

أما النتائج الخارجية لهرب الملك الى فارين فكانت غضب ملوك أوروبا وانزعاجهم لما يجرى فى فرنسا ، واسفرت أولاً عن بيان

بيلنيتز Pillnitz الذي وقعه ليوبولد الثاني امبراطور النمسا وفريدريك وليسم ملك بروسيا مهددين الثوار الفرنسيين في ٢٧ أغسطس ١٧٩١ بأنهما سيتدخلان عسكريا اذا وافق بقية ملوك أوروبا على التدخل الأوروبي لنصرة الملك والنبله .

ومات ليوبولد الثاني ، أخو ماري انطوانيت ، فجأة في أول مارس ١٧٩٢ وتولى مكانه فرانز الثاني وفي ٢٠ ابريل ١٧٩٢ تقدم الملك الى الجمعية التشريعية وأعلن الحرب على « المجر وبوهيميا » أى على دولة النمسا من دون دول الامبراطورية النمساوية الهنغارية ووافق كل النواب على اعلان الحرب « ٧٤٥ نائبا » ولم يعترض الا عشرة نواب رغم تنديد روبسبير بالحرب منذ البداية ، قائلا انها مؤامرة ملكية ارسنقراطية لتحطيم الجيش الفرنسى وغزو فرنسا من الخارج لاعادة الملكية المطلقة والنظام الاقطاعى .

كان الجيش الفرنسى فى ايدى ١٢٠٠٠ ضابط من النبلاء هاجر نصفهم على الأقل وانضموا الى اعداء البلاد أو رحلوا الى انجلترا . وكانت القيادة العليا فى ايدى المارشال روشامبو Rochambeau العجوز الذى بنى سمعته العسكرية فى حرب الاستقلال الأمريكية ، والمارشال لوكنر Luckner الالماني الأصل العاقل من الكفاءة والجنرال لافاييت الذى كان يشتغل بالسياسة أكثر مما يشتغل بالحرب . وكانت هناك أزمة ثقة بين القادة وجنودهم بسبب الصراعات السياسية والاجتماعية التى مرت بها فرنسا منذ ١٧٨٩ . ولم يكن لدى النمسا فى الجبهة البلجيكية الا ٣٥ ألف مقاتل أما الجيوش الفرنسية فكان قوامها ١٥٠.٠٠٠ مقاتل من الجيش النظامى والمتطوعين وبالفعل فى أول مواجهة ، عندما أمر الجنرال ديموريز Dumouriez الجيوش الثلاثة بالاستيلاء على بلجيكا كلها ، أمر الجنرال ديلون Dillon والجنرال Biron

جنودهما بالانسحاب فى اول مواجهة • وأحس الجنود بخيانة قيادتهم وتشستوا وقتلوا الجنرال ديلون •

وتوالت الهزائم • فالهب ذلك الشعور الوطنى فى الداخل ولا سيما بين الجماهير الشعبية المحرومة من المشاركة السياسية وفى الانخراط فى سلك الحرس الوطنى ، كما اجج ذلك مشاعر الجماهير الشعبية ضد الطبقات الحاكمة لانها لاتدرك أن الوطن ملك لكل من يعيشون على أرضه وأن الطريق للدفاع عنه هو مساواة جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات بما فى ذلك حق الانتخاب وواجب الدفاع الوطنى •

وفى بداية يوليو ١٧٩٢ جاءت الأنباء بأن الجيش البروسى المربط فى كوبلنتز Coblentz بقيادة الدوق برنسويك Brunswick يتأهب لعبور الحدود الفرنسية من الشمال الشرقى ، ومن ورائه جيش النبلاء الفرنسيين المهاجرين بقيادة البرنس كونديه Condé فاتفق روبسبير مع بريسو Brissot زعيم حزب الجيرونند المعتدلين Le Gironde على توحيد الصفوف لدرء هذا الخطر الوطنى • وفى ١١ يوليو اصدرت الجمعية التشريعية بياناً تقول فيه : « ايها المواطنون ، ان الوطن فى خطر » وكان ذلك بمبادرة من بريسو • فاستقالت الحكومة ، وكانت من حزب الفوليان ، اتباع لافاييت ، بعد ان اتهمها فيرنيو Vergniaud بالتقصير •

ولكن بريسو والجيرونند المسيطرين على الجمعية التشريعية دخلوا فى مفاوضات مع القصر لتولى السلطة • وغير بريسو موقفه فى الجمعية التشريعية فادان الاضطرابات الشعبية ورفض اقتراحا بخلع الملك قدم فى ٢٦ يوليو ، ورفض التصويت العام الذى كان يقترحه روبسبير ، بل وهدد « بسيف القانون » زعماء الثورة وسواهم بزعماء الثورة المضادة ، رغم ان الملك أصر على الفيتو الملكى

Veto برفض قانون ابعاد رجال الدين الرافضين ليمين الولاء لتبعية الدين للدولة .

وكانت ماري أنطوانيت قد طلبت من ملوك أوروبا اصدار بيان تهديدى لثوار فرنسا ، فاعد هذا البيان أحد المهاجرين ووقعه دوق برنسويك وعرف ببيان كوبلنتز . وهدد البيان الحرس الوطنى وكل من تسول له نفسه مقاومة الغزو بالاعدام ، وهدد شعب باريس « لو مس العائلة المالكة بأذى ضرر فانه سيجلب على نفسه انتقاما رهيبا لا يمحي من الذاكرة ، لانه سيجر على مدينة باريس الاعدام العسكرى والتخريب الشامل » .

وعرف أهل باريس ببيان كوبلنتز فى أول أغسطس ١٧٩٢ وسرعان ماتوا لت العرائض من أقسام « أحياء » باريس مطالبة بخلع الملك . وحددوا للجمعية التشريعية يوم ٩ أغسطس كأجل أقصى لخلع الملك . فلما انفضت الجمعية التشريعية دون اتخاذ قرار اقتحم الشعب قصر التويلرى فلجأ الملك الى الجمعية التشريعية المجاورة . ولما انتصر الثوار وافقت الجمعية التشريعية على إيقاف الملك عن منصبه كما وافقت على عقد المؤتمر الوطنى المنتخب بالتصويت العام كما اقترح روبسبير ليحل محل الجمعية . واقتيد الملك مخفورا الى سجن التامبل Temple هو وزوجته وبنوه .

وهكذا انقلب العرش ، وسقط حزب الفوليان والنبلاء الأحرار الذين ساعدوا على قيام الثورة ثم حاولوا احتواءها ، وسقط معهم حزب الجيرونده المعتدل الذى كان يمثل مصالح البورجوازية العليا ويرفض اشتراك الطبقات الشعبية فى الحياة السياسية : اكتسحهم الشارع السياسى بقيادة دانتون Danton ومارا Marat وروبسبير Robespierre هذا الثالوث الثورى الذى شكل كتلة عرفت بحزب الجبل اشد تطرفا فى الثورية من ثالوث بريسو Brissot ورولان

Roland وفيرنيو Vervyniaud فى الجمعية التشريعية وبقية
الجيروند الذى اضطرهم خوفهم من دخول الطبقات الشعبية مسرح
السباسة الى مهادنة الملك وطبقة النبلاء واللجوء الى السلام الأوروبى
بعد أن كانوا دعاة حرب .

فى ٣٠ يوليو ١٧٩٢ اصدرت الجمعية التشريعية تحت ضغط
الخطر الخارجى قانونا بفتح باب الحرس الوطنى أمام « المواطنين
السلبين » أى « من لا يملكون » ، بعد أن كان مقصورا على « المواطنين
الايجابيين » وحدهم أى « من يملكون » . وبهذا أؤتمن الفقراء على
حق حمل السلاح . وبعد ان حصل الفقراء على حق الانتخاب بصدر
قانون التصويت العام فى ١٠ أغسطس سقطت الحواجز نهائيا من
طبقات المجتمع ودخل « الشعب » فى بنية « الأمة » ، ودخلت « الطبقة
الرابعة » المسرح السياسى .

وفى تاريخ الثورة الفرنسية يسمى ١٠ أغسطس ١٧٩٢
« الثورة الثانية » ، ففيه دقت النواقيس ليلا ودعا سكان حى سانت
انطوان بقية أقسام « أحياء » باريس الى التجمع فى دار بلدية باريس
وهناك اقاموا « الكوميون الثورى » الذى حكم الحياة السياسية فى
فرنسا مباشرة ومن خلال المؤتمر الوطنى نحو عامين ، أى سقوط
روبسبير ، وهى الفترة التى تسمى فى تاريخ الثورة الفرنسية
« عهد الارهاب » وهو عهد الثورة المضادة وعهد الحرب الأهلية ،
وعهد الخيانات الوطنية ، وعهد الاعدامات بالجملة . باختصار :
كان عهد المذابح و « القديسة جيلوتين » .

وفى وسط هذه الهستيريا الوطنية والشعبية التى نجمت عن
غزو فرنسا من الخارج وتحرك الثورة المضادة فى الداخل ، أوفدت
الجمعية التشريعية ١٢ مبعوثا من اعضائها فى ١٠ أغسطس لجبهات
القتال لايقاف الجنرالات والضباط والموظفين العموميين من عسكريين

ومدينين ايقافا مؤقتا لداعي الاشتباه . وأرسل المجلس التنفيذي الى الأقاليم قومسين من الكوميون الثورى فى باريس ، اختارهم دانتون ، وكانوا مزودين بسلطة القبض على المشبوهين .

كذلك انشأ الكوميون فى الأقاليم لجان « مراقبة » مع سلطات التطهير وطالب كوميون باريس بانشاء « محكمة جنایات » استثنائية منتخبة من أحياء « أقسام » باريس للنظر فى جرائم الثورة المضادة . وفى ١٧ أغسطس ١٧٩٢ وافقت الجمعية التشريعية على ذلك على مريض . وقبل ذلك كانت الجمعية التشريعية قد كلفت البلديات بالبحث عن جرائم أمن الدولة ، وفرضت على جميع المواطنين ، بما فيهم رجال الدين ان يقسموا يمين الولاء للحرية والمساواة . وفى ٢٦ أغسطس قررت الجمعية التشريعية نفي كل رجال الدين الذين يرفضون أداء اليمين خلال ١٥ يوما الى البلاد التي يختارونها ، والا أبعدها الى مستعمرة الجويان Guiane فى أمريكا الوسطى . وفى ١٨ أغسطس قررت الجمعية التشريعية بضغط من كوميون باريس تفتيش المنازل بحثا عن السلاح فى حيازة المشبوهين .

وفى ٢٦ أغسطس ١٧٩٢ جاءت الأخبار بسقوط لونجوى Longwy وببدايات ثورة مضادة فى اقليم الفانديه La Vendée فاشتد فزع الجماهير . وحين تدهور الموقف العسكرى أمام الغزاة فكر رولان ، رئيس الوزراء ، وهو من حزب الجيرونديين ، فى نقل الحكومة من باريس ، فحذره دانتون قائلا : « رولان ، اياك ان تتحدث عن الهرب . حذار ان يسمع الشعب كلامك » . . . وقبض على ٣٠٠٠ مشبوه ثم افرج عن الكثيرين منهم . وفى ٢ سبتمبر كان هناك فى سجون باريس ٢٨٠٠ معتقل ، كان أقل من نصفهم معتقلا منذ ١٠ أغسطس . وفى ٢ سبتمبر جاءت الأنباء بأن فردان Verdun محاصرة ، وكانت آخر معقل بين الحدود وباريس . وفى ٢ سبتمبر أيضا قتل المساواة الذين رفضوا أداء يمين الولاء للحرية والمساواة

ورفضوا الدستور المدني للكنيسة ، قتلهم حراسهم المارسيليون والبريتون في سجن الدير Abaye وهم من الحرس الوطني واصحاب الدكاكين والاسطوانات من نجارين وجزمجية ، كما قتلوا القساوسة المسجونين في سجن كارم Carnes وفي الأيام التالية « ٢ - ٦ سبتمبر » قتل سجناء سجن لا فوريس La Force والكونسيير جري Conciergerie والشاتليه Châtlet وغيرها . وتعرف هذه المقتلة « بمذابح سبتمبر » . وكان مجموع من قتلوا ١١٠٠ سجين أكثر من ثلاثة ارباعهم من سجناء القانون العام . ولم تتدخل السلطات لانقاذهم . كان دانتون وزيرا للعدل . وكان الجيروندي مرتعبين ، وروت مدام رولان ان دانتون قال لزوجها « رئيس الوزراء » : « أنا لا يهمني شيء من أمر السجناء » (بلغة أكثر بذاة) .

وفي ٢٠ سبتمبر كان انتصار فالمي Valmy وانعقد المؤتمر الوطني وفي ٢١ سبتمبر الغيت الملكية في فرنسا .

وقد تأخر اتهام لويس السادس عشر عدة شهور بسبب رغبة الجيروندي في انقاذه . وفي ١٦ أكتوبر ١٧٩٢ احيل الموضوع الى لجنة التشريع في المؤتمر الوطني فأفتت في ٧ نوفمبر بأن في امكان المؤتمر ان يحاكم الملك . ولم يشترك حزب الجيروندي في المناقشة . قال الفقي سان جوست Saint-Just وهو من حزب الجبل في ١٣ نوفمبر ١٧٩٢ :

« نفس الرجال الذين سيحاكمون لويس لديهم جمهورية يؤسسونها : ومن يعلق بعض الأهمية على العدل في عقاب الملوك لن يكون في امكانه تأسيس جمهورية . . أما أنا فلست أرى طريقا وسطا : هذا الرجل إما ان يحكم وأما أن يموت . الملك لا يمكن تقلده في براءة : هذا الافتراض محض جنون . كل ملك خارج و « مقتصب »

« انه سفاح الباستيل ، سفاح نانسي ، سفاح الثبان دى مارس .
سفاح تورناي ، سفاح التويلرى . اى عدو ، اى اجنبى انزل بكم
شرا أكثر من ذلك ؟ »

وقد اكتشف فى قصر التويلرى دولا ب سرى من الحديد بنى
داخل الحائط بأمر من لويس السادس عشر ، وفيه أوراق تثبت
اتصاله بالأعداء . وقدمت هذه الوثائق الى المؤتمر فى ٢٠ نوفمبر
فجعلت من المستحيل تأجيل القضية . وفى ٣ ديسمبر استأنف
روبسبير منطق سان جوست : « الملك ليس متهما ، وأنتم لستم
قضاة . ليس لديكم تصدرونه له أو عليه ، وإنما لديكم اجراء يتخذ
للأمن العام ، عمل يعمل لحماية الوطن » .

ورغم مناورات الجيرونديين لانقاذ الملك ، قرر المؤتمر الوطنى فى
٦ ديسمبر ١٧٩٢ تشكيل لجنة تضع بيانا بجرائم لويس كاييه ،
Louis Capet المدعو لويس السادس عشر ، وأعد قرار الاتهام
لنديه Lindot وبدأت المحاكمة فى ١١ ديسمبر بقراءة عريضة
الاتهام ، ومحورها ان لويس السادس عشر كان دائما مخادعا
بوجهين فى كل الفترات المرحجة التى مرت بها الثورة . وترافع دى
سيز de Seize محاميا عن الملك ، فقرأ دفاعا جميلا صادقا محوره
ان ذات الملك مصنونة لاتمس بموجب دستور ١٧٩١ .

وطالب الجيرونديون لانقاذ الملك بعرض الأمر للاستفتاء العام ،
لأن الشعب وحده يملك تجريد الملك من حصانته الدستورية . فوجه
الجمهوريون ان فى مبدأ الاستفتاء محاولة لاشعال الفتنة الأهلية من
جديد . وكتب روبسبير فى يناير ١٧٩٣ رسالة الى « ناخبيه » عن
سيادة الشعب قال فيها :

« ان الشعب نطق بالحكم قبلا على لويس : المرة الاولى حين
حمل السلاح ليخلعه من عرشه . . . والمرة الثانية عندما فرض ادانته

كواجب مقدس بطريقة تجعل منه عبرة من أجل سلامة الوطن ،
وليكون عظة للعالم . . . وتعرض الدولة لهذه الأخطار خلال أزمة
نظام اقتراب الأعداء المتحالفين ضدنا ، ليس له معنى الا الرغبة في
اعادتنا الى النظام الملكى من خلال الفوضى والقلق . »

وفى ١٤ يناير ١٧٩٣ أسفرت المداولة عن طرح هذه الاسئلة
الثلاثة على المؤتمر الوطنى للأجابة عليها : « لويس كاييه ، هل
اقترف جريمة التآمر ضد الحرية العامة لتهديد سلامة الوطن ؟ . .
أهناك رجوع الى الأمة فى الحكم الصادر ؟ . . وماهى العقوبة التى
توقع على لويس ؟ »

وجاءت الادانة باجماع الأصوات الا بعض من امتنعوا عن
التصويت . ورفض مبدأ الرجوع الى الأمة بأغلبية ٤٢٦ صوتا ضد
٢٧٨ . وهكذا هزم الجيرونده ، وصدر الحكم باعدام لويس السادس
عشر ، بأغلبية ٣٨٧ صوتا ضد ٣٣٤ . وكان التصويت بنداء الأسماء
فاستمر ٢٤ ساعة بدأت مساء ١٦ يناير . وصوت ٢٦ نائبا للاعدام
مع وقف التنفيذ . وفى ١٨ يناير جرى التصويت على وقف التنفيذ
فرفض الاقتراح بأغلبية ٣٨٠ صوتا ضد ٣١٠ اصوات .

وفى ٢١ يناير ١٧٩٣ الساعة ١١ صباحا اعدم لويس السادس
عشر على المقصلة فى ميدان الثورة وسط حراسة مشددة وجماهير
غفيرة .

أما مارى انطوانيت فقد قبض عليها مع الملك فى ١٠ أغسطس
١٧٩٢ وسجننت معه ، ثم نقلت بعد اعدامه الى الكونسير جري .
ثم حاكمها المؤتمر الوطنى بناء على اقتراح من بيو Billaud-Varenne
وماتت على المقصلة فى ١٦ أكتوبر ١٧٩٣ وقت محاكمات الجيرونده .

وقد اشتهر الجمهوريون المتطرفون المؤمنون باشتراك الجماهير الشعبية في الحياة السياسية وفي الدفاع الوطني باسم « حزب الجبل » لأنهم كانوا يجلسون في قمة مدرج المؤتمر الوطني .

ترك اغدام الملك أثرا عميقا في فرنسا واصاب أوروبا بذهول عميق ، فقد كان شخصه مقدسا بموجب نظرية حق الملوك الالهى . فأعلنت أوروبا على فرنسا الثورية حربا لاهوادة فيها استمرت أكثر من عشرين عاما ولم تنته الا بسقوط نابوليون في ١٨١٤ . وباعدام الملك قطع المؤتمر الوطني الكبارى من ورائه وغدا مسرحا لصراع رهيب بين حزب الجبل وحزب الجيروندي ، صراع حياة أو موت عرف بعهد الارهاب لأن « القديسة جيلوتين » كانت راعية هذا البيت الكبير .

كان أمل الجيروندي ان يصلوا الى تسوية سلمية مع أوروبا . قال بريسو : « نحن في مناقشاتنا لانرى أوروبا كثيرا » فأجابه روبسبير : « سوف يقرر النصر ما اذا كنتم عصاة أم أصحاب فضل على الانسانية » .

وهكذا اقترب الجيروندي - أصحاب المصالح الحقيقية - بسبب ميلهم للسلام ، من وجهة نظر طبقة النبلاء الذين ما قامت الثورة الفرنسية الا لتجردهم من امتيازاتهم . .

١٣ - الأحرار

لم اجد كلمة اتعبنى تعريبها مثل كلمة « صان كيلسوت »
Sans-Culotte الفرنسية التي شاع استعمالها ابان الثورة
الفرنسية . وهى كلمة تعنى ، كما نقول فى العامية المصرية «عريان»
أو حرفيا « الى بلا سروال أو بنطلون » أو أى شىء يستر العجز .
وهى كلمة زراية قصد بها فى فترة الثورة الفرنسية ان تصف
الطبقات الشعبية الشديدة الفقر ، أو « الرعاع » أو « الغوغاء » ،
أو « الدهماء » بلغة صدقى باشا ، من عمال أو صنايعية أو أنفاس
أو باعة سريحة وكل من يكسب قوته بعرق جهده اليومى ان وجد
عملا . وكانت هذه الطبقات فى ذلك الزمان تلبس طاقية حمراء
وزنارا أحمر ، وتلبس مكان البنطلون المألوف البنطلون الحريرى
الارستقراطى « المحزق » ، سراويل من التبل المخطط بخطوط
رأسية زرقاء وبيضاء وحمراء ، كبنطلون البيجاما .

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١٩٨٩/١٢/٢ .

ولذا رأيت أن أعرب هذه الكلمة باصطلاح «أبوسروال ملون» ،
وجمعها « أصحاب السراويل الملونة » ، وهو تقريب للزى المعروف
فى مصر بين الطبقات الكادحة بعد أن تخلع الجلباب أو تطويه عند
النصر . والاصطلاح اصلا باريسى .

هذه الطبقات « الشعبية » التى تعيش « من اليد الى الفم »
كما يقول التعبير الانجليزى ، وعددها بالملايين ، كانت كما رأينا
مصدر رعب الطبقات المالكة الموسرة التى كانت تخشى على أموالها
وأموالها ، وربما أشخاصها ، لو تحررت سياسيا ودخلت طرفا فى
الصراع السياسى . وقد صدق حدسها ، لأن هذه الطبقات الشعبية
وقد اسلمت قيادها للبورجوازية المتوسطة ، أقرب الطبقات المستنيرة
اليها ، وأكثرها احساسا بنقضها واحتياجاتها ، بزعامة مارا ودانتون
وروبسبير ، فاطاحت بالنظام الملكى وأعلنت الجمهورية ولجأت الى
المصادرات والتأميمات والحراسات ، والى تعبئة الموارد لاطعام الشعب
والتعبئة العامة للدفاع الوطنى وتوفير السلع التموينية الأساسية
كالخبز والسكر والشمع والصابون ، وطاردت التجار المكتنزين
الجشعين لحماية جماهير المستهلكين من جشعهم .

فى بداية المؤتمر الوطنى كانت هناك هدنة بين حزب الجيرونديين
وحزب الجبل . فالغى المؤتمر الوطنى الملكية وأعلن الجمهورية باجماع
الأصوات يوم ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ بناء على اقتراح قدمه كولو ديريوا
Collot Dherbois وزكاه الأب جريجوار L'abbé Grégoire
جاء فى ديباجته : « ان الملوك كالوحوش وبلاط الملوك هو مصنع
للجرائم وبؤرة للفساد وماوى للطغاة » وتاريخ الملوك هو تاريخ
الشعوب الشهيدة » .

أما رئيس الوزراء ، رولان ، وهو من حزب الجيرونديين ، فقد

أرسل منشورا الى رجال الادارة يقول فيه : « احرصوا أيها السادة على أن يكون اعلان الجمهورية هو نفسه اعلان الأخاء » .

وفى اليوم التالى « ٢٢ سبتمبر » قرر المؤتمر الوطنى بالاجماع الغاء التقويم المسيحى « الميلادى » من جميع وثائق الدولة ، بناء على اقتراح من بيرو فارين Billaud - Varenne رتاريخ كافة الوثائق العامة ابتداء من العام الأول للجمهورية .

وفى ٢٥ سبتمبر وافق المؤتمر الوطنى بالاجماع بعد مناقشة دلويلة على اقتراح قدمه كوتون Couthon بالصيغة الآتية : « ان الجمهورية الفرنسية وحدة واحدة وغير قابلة للتجزئة » ، تأسيسا على ان مبدأ الاتحاد الفيدرالى مبدأ أخذه الجيرونديون عن لافاييت الذى كان متأثرا بالتجربة الأمريكية التى كانت تبقى الباب مفتوحا أمام انسلاخ الولايات . وفى ١٦ ديسمبر وافق المؤتمر الوطنى على توقيع عقوبة الاعدام « على كل من يحاول هدم وحدة الجمهورية الفرنسية أو ان يسلخ اجزاء من كيائها لضمها الى اقليم أجنبى » .

ثم انتهت الهدنة ، وبعد أيام أعلن حزب الجيروندي الحرب على حزب الجبل وزعمائه ، مارا ودانتون وروبسبير . وبدأ الهجوم على «مقل حزب الجبل ، وهو باريس . كانت فرنسا مقسمة اداريا منذ الثورة الى ٨٣ اقليما بدلا من الاستقلال أو شبه الاستقلال الاقطاعى القديم . وكان الجيروندي يعلمون ان حزب الجبل يعتمد بسفة خاصة على الشارع الباريسى . فقدم النائب الجيروندى لاسورس La source اقتراحا سخيفا غير قابل للتحقيق بالا يكون لباريس نفوذ خاص يتجاوز واحدا على ٨٣ أسوة ببقية الأقاليم .

وفى ٢٥ سبتمبر أيضا اتهم الجيروندي مارا بالديكتاتورية فرحب مارا بهذا الاتهام ، وكتب فى جريدته « صديق الشعب » :

الثورة الفرنسية - ١٦١

« نعم — أنا أعتقد انى كنت أول كاتب سياسى ، وربما الوحيد فى فرنسا منذ الثورة ، الذى اقترح اقامة حكم عسكرى أو ديكتاتورية أو حكومة ثلاثية Trimvirat بوصفها الطريقة الوحيدة لسحق الخونة والمتآمرين » . ثم مضى مارا يذكر الجيرونديين بآلامه فى السجن وتضحياته فى التشريد خلال ثلاث سنوات ، قائلا : « نعم ! أنا باق معكم لاتصدى لجنونكم » . وانتهت الهجمة مؤقتا .

أما دانتون فقد نجحت معه حملة الجيرونديين الذين غدروا به رغم كثرة قبوله للمصالحات والمحاول الوسط ، قاقيل من منصبه كوزير للعدل فى ٩ أكتوبر ١٧٩٢ وحل محله جارا Garaي وهو من الجيرونديين . وفى اليوم التالى « ١٠ أكتوبر » كان عليه أن يقدم كعادة كل وزير يخرج من السلطة كشف حساب عن تصرفاته المالية اثناء توليه السلطة . وربما استطاع دانتون أن يبرر بذخه فى الانفاق اثناء توليه الوزارة ، ولكنه ارتبك فى تفسير انفاق ٢٠٠٠ ر. ٢٠٠٠ جنيه انفقها وزارته فى « المصروفات السرية » .

وفى ١٨ أكتوبر اعيد فتح الموضوع فى المؤتمر الوطنى ، وعجز دانتون عن تقديم تفسير مقنع . قال : « عن أغلب هذه المصروفات اعترف بأنه ليس لدينا أية ايصالات من الناحية القانونية » وفى ٧ نوفمبر جدد الجيرونديون الهجوم على دانتون وحجب المؤتمر الوطنى عنه ابراء ذمته المالية . وفيما بعد ذلك كان الجيرونديون يستثمرون موضوع نزاهته المالية لتحطيمه سياسيا ، فعبدل عن سياسة المصالحة .

أما روبسبير فقد كانت التهم الموجهة اليه هى الافراط فى الطموح والسعى لاقامة الديكتاتورية . وفى ٢٥ أكتوبر قال لوفيه Louvet فى المؤتمر الوطنى : « روبسبير ! انى اتهمك بأنك

مشغول دائما بأن يعبدك الناس . انى اتهمك بممارسة الطغيان بكل ألوان الدسائس والارهاب على مجموع الناهبين فى منطقة باريس . انى اتهمك اخيرا بالسعى لتكون لك السلطة العليا .

ونفى روبسبير ذلك عن نفسه قائلا بأنه كان دائما يحارب الطامعين فى السلطة وانه لا يتحرك الا بدافع من وطنيته . وفى ٥ نوفمبر رد على لوفيه بدفاعه عن تحريك الجماهير فى ١٠ أغسطس وعن قيادته للعمل الثورى بقوله فى المؤتمر الوطنى :

« كل هذه الأشياء كانت خارج اطار الشرعية كما ان الثورة ذاتها خارج اطار الشرعية ، وسقوط العرش وسقوط الباستيل كانا خارج اطار الشرعية كما ان الحرية ذاتها خارج اطار الشرعية : نحن لا نستطيع أن نريد ثورة دون القيام بثورة » .

وقد خرج روبسبير من هذه المعارك اقوى مما كان : خرج زعيما لحزب الجبل . وانهزم الجيرونده للمرة الثالثة . وانتهت هذه التحرشات ببدء الحرب بين الجيرونده والجبل .

ولم تكن لحزب الجبل المتطرف فيه أغلبية . وانما كان هؤلاء وأولئك يظفرون بالأغلبية من تأييد الوسط وهو كتلة كبيرة من نواب الأقاليم الذين كان يسميهم كامبل ديمولان فى جريدته « منبر الوطنيين » La Tribune des Patriotes حزب الفاترين « Les Flegmatiques المترددين فى الصعورد والهبوط بين روبسبير وبريسو وأخيرا انشق على الجيرونده انكارسيس كلوتز Anachatrixis Cloutz فى جلبة حين أصدر منشورا بعنوان « لامارا ولا رولان » وأنشأ كتلة ثالثة فى أوئل نوفمبر ١٧٩٢ .

وهكذا ضاعت الأغلبية من الجيرونده فى المؤتمر الوطنى

وضاعت منهم رئاسة المؤتمر في ١٦ نوفمبر وفي نفس اليوم انتخب نائب مستقل هو الأب جريجوار Labbé Grégoire رئيسا للمؤتمر . . . لقد احست كتلة الوسط الكبيرة ان الجيرونديين يضيعون وقت المؤتمر الوطني في تسوية حساباتهم القديمة مع حزب الجبل .

ولم يكن في المؤتمر الوطني أحد من الملكيين أو أنصار العهد البائد أو دعاة الملكية الدستورية . كذلك لم يكن فيه عضو واحد من « الصان كيلوت » « أصحاب السراويل الملونة » الذين كانوا يسيطرون على أحياء باريس .

ولم تكن في المؤتمر الوطني أحزاب بالمعنى المحدد وإنما مجرد تيارين أو اتجاهين واضحين في السياسة والاقتصاد هما تجمع الجيرونديين La Gironde أو الجيرونديين Les Girondins أو التجمع اليميني ، وهو يمثل اقتصاديا الطبقة البورجوازية العليا ، من ملاك ورجال أعمال في التجارة والصناعة والخدمات . هؤلاء كانوا دائما يتحدثون عن الشرعية وسيادة القانون ، وكانوا يؤمنون بالحرية الاقتصادية ويقدمون الملكية الفردية ، ويعارضون تدخل الدولة في تحديد الأسعار أو اتخاذ اجراءات استثنائية لصيانة الأمن العام . كانوا يؤمنون بالفوارق والامتيازات الطبقية « المكتسبة » بالثروة أو الذكاء أو العمل أو العلم ، ولكنهم لم يؤمنوا كالنبلاء بالامتيازات الطبقية « الموروثة » ولعل أصدق معبر عن فلسفتهم كان قول فونيو Vergniaud للمؤتمر الوطني في ١٣ مارس ١٧٩٣ : « المساواة في الحياة الاجتماعية ليست الا المساواة في الحقوق » ، أي ما يسميه الانجليز تكافؤ الفرص . وقد كان زعمائهم بريسو Brissot ورولان Roland وبيتيون Pétion وأكثرهم من أغنياء الثورة .

أما تجمع الجبل Les Montagnards فكانوا يمثلون الطبقة البورجوازية المتوسطة ، وكانوا أكثر تعبيرا عن مصالح

الطبقات الشعبية والأجراء أو « الصان كيلوت » أو « أصحاب السراويل الملونة » وكانوا يرون أن الحرية إذا أسىء استخدامها قد تصبح كلمة جوفاء وستارا للاستغلال بل ومبررا لخيانة الوطن . ولهذا نجدهم يجنحون الى النظر الى الملكية الخاصة على أنها وظيفة اجتماعية لا على أنها حق مقدس من حقوق الانسان ، ولذا فهي خاضعة للمصادرة والحراسة والتأميم والانتقاص . وكانوا يتحدثون كثيرا عن انقاذ الوطن وانقاذ الثورة وانقاذ الجمهورية ولو بمصادرة حرية أعداء الحرية .

وبين هاتين الكتلتين كانت هناك كتلة ثالثة هلامية من الوسط عرفت في التاريخ باسم « السهل » La Plaine وكان نوابها من الجمهوريين الصادقين في الدفاع عن الجمهوريين الثوريين الصادقين في دفاعهم عن الثورة . وكانوا يؤمنون بالحرية الاقتصادية وكانوا في سريرتهم يخافون من الطبقات الشعبية . ولكن وطنيتهم وإيمانهم بالثورة جعلهم يدركون أهمية دور الشعب طالما كان الوطن في خطر أو الثورة في خطر . وهكذا قبلوا الاجراءات الاستثنائية « مؤقتا » وحتى النصر . وانضم بعضهم ، مثل بارير Barère وكامبون Cambon وكارنو Carnot ولانديه Lindet الى حزب الجبل وأيد سياسته في الأمن العام . هذه الكتلة اتضحت معالمها في نوفمبر ١٧٩٢ ، فانفضت عن حزب الجيروندي وقبلت قيادة حزب الجبل .

اشتد الصراع بين الجيروندي والجبل بعد اعدام لويس السادس عشر . فبعد انتصارات فرنسا في فالمي كان استيلاؤها على بلجيكا والألب والراين ونيس والسافوا في سبتمبر ١٧٩٢ . وبعد اعدام الملك أعلن البلاط الانجليزي الحداد على لويس السادس عشر ، وزاد وليم بت William Pitt من اجراءاته العدوانية ضد فرنسا .

فأعلن المؤتمر الوطني الحرب على انجلترا وهولندا معا في أول فبراير ١٧٩٣ ، بناء على تقرير من بريسو ، زعيم الجيرونديين ، فقد كان من مقاصد الجيرونديين الاستيلاء على بنك امستردام . وفي ٧ مارس أعلن المؤتمر الوطني الحرب على اسبانيا ، وتلا ذلك إعلان الحرب على ملوك ايطاليا : أولا على البابا ثم ملك نابولي ثم ملك توسكانيا ، ثم ملك البندقية وفي خلال شهور وجدت فرنسا في حالة حرب مع كل ملوك أوروبا ، فيما خلا دول اسكنديناوة والحيالف السويسري . وكانت انجلترا تقوم بقيادة الحلفاء ضد فرنسا وتربط نفسها بسلسلة من المعاهدات الثنائية بين مارس وسبتمبر ١٧٩٣ .

وكان نجاح الحلفاء في الحرب ضد فرنسا ونشوب الحرب الأهلية في الفاندييه La Vendée من العوامل الرئيسية في تدمير حزب الجيروندي .

كذلك اشتد الغلاء نتيجة للتضخم الناتج عن التوسع في إصدار العملة الورقية Assignats ومالبس سان جوست Saint-Just المؤتمر الوطني بتقييد إصدار العملة الورقية في خطبة ٢٩ نوفمبر ١٧٩٢ باعتبار انها أساس التضخم ، ولكن الجيرونديين لم يلتفتوا الى كلامه . واستمر كامبون رئيس اللجنة المالية ، في إصدارها . وفي بداية أكتوبر ١٧٩٢ كان حجم العملة الورقية المتداولة ٢ مليار جنيه ، وفي ١٧ أكتوبر زادها كامبون الى ٢ مليارا . وبعد اعدام الملك هبطت قيمتها الى ٥٠٪ من قيمتها الاسمية .

وبعد مذابح سبتمبر ١٧٩٢ أصدر المؤتمر الوطني قانونا يبيع حصر الغلال والاستيلاء عليها . ولكن رولان ، رئيس الوزراء تجاهل هذا القانون لأنه كان من دعاة حرية التجارة . وفي ٨ ديسمبر ألغى المؤتمر الوطني قانون تنظيم تجارة الغلال استنادا لمبدأ « الحرية

الكاملة « فى تداول الغلال والدقيق ، مع الحكم بالاعدام على من يقوم بتعطيل هذا التداول .

وجاءت المقاومة من كوميون باريس ومن أقسامها . وفى أول ديسمبر ١٧٩٢ ألقى الأب جاك رو Jacques Roux أحد زعماء « المسعورين » Les Enragés خطبة عنيفة مطالباً بمطاردة الجشعين والخونة « وفى ليون دعا شالييه Chalier ولكير Leclerc إلى فرض ضرائب على الأغنياء لدعم أسعار الضروريات وإلى الاستيلاء على الغلال وتنظيم المخازن . وفى ١٢ فبراير ١٧٩٣ قدم وفد يمثل ٤٨ قسماً من أقسام باريس عريضة إلى المؤتمر الوطنى بهذه المطالب، وتقول هذه العريضة : « ليس بكاف أننا أعلننا أننا فرنسيون جمهوريون ، بل يجب أن يكون الشعب سعيداً أيضاً . يجب أن يوجد الخبز : فحيث لا يوجد الخبز لا يوجد القانون ولا توجد الحرية ولا توجد الجمهورية » . وتندد أصحاب العريضة « بالحرية المطلقة فى تجارة الغلال » . وكان روبسبير ومارا يشتبهان فى مصدر هذه « القلاقل » . قال روبسبير : « انها مؤامرة حيكت ضد الوطنيين أنفسهم » و « كان أولى بالشعب ان يثور ليصرع اللصوص من ان يثور من أجل حفنة من السكر » . وقد فرض الأهالى على البقالين أسعاراً محددة للسكر والصابون والشمع .

وتدهور الموقف العسكرى على طول جبهات القتال مع اعداء فرنسا فى الخارج واعداء الثورة فى الداخل . وقد انتهت الحروب الخارجية الخاسرة بخيانة الجنرال ديموريز Dumouriez وانضمامه إلى الأعداء ، كما أدت الحرب الأهلية التى استمرت فى الفاندييه إلى التشدد فى اجراءات الأمن وإلى سقوط الجيرونديين .

فى ١٠ مارس ١٧٩٣ أنشأ المؤتمر الوطنى « محكمة الثورة » ،

وهي محكمة بلا استئناف ولا نقض ، رغم معارضة الجيرونديين . وكان اختصاص هذه المحكمة : « النظر في كل أعمال الثورة المضادة وكل عدوان على الحرية والمساواة ووحدة الجمهورية وتكاملها ، والسهر على الأمن الداخلي والخارجي للدولة ، والكشف عن كل المؤامرات التي تسعى لاعادة النظام الملكي » . واحتفظ المؤتمر الوطني لنفسه بحق تعيين القضاة والمحلفين ، وبحق الاتهام على وجه الخصوص . وكان الجيروندي يقول ان هذه ديكتاتورية ، فأجابهم دانتون بقول : « فلننتفع من أخطاء اسلافنا ، ولنفعل ما لم تفعله الجمعية التشريعية . فلنحكم بالأرهاب لنعفى الشعب من الأرهاب » .

وفي ٢١ مارس ١٧٩٣ انشئت لجان المراقبة الثورية بعد معركة نيرويندن Neerwinden بهولندا . وقد عمم المؤتمر الوطني نظاما كان معمولا به بى كوميون باريس وأقسامها الأجانب ، وسرعان ما اتسع نشاط هذه اللجان فشمل اصدار بطاقات تحقيق الشخصية وفحص أوراق المجندين ، واعتقال كل من يضبط بغير شارة الكوكارد المثلثة الألوان « الأزرق والأبيض والأحمر » . ثم كلفت هذه اللجان باعداد قوائم المشبوهين وتوجيه الاتهام لهم . وكان أكثر أفرادها من الصان كيلوت « أصحاب السراويل الملونة » المعروفين بالوطنية والثورية . وقد كانوا السلاح الضارب الذي استخدمه حزب الجبل ضد الارستقراط والجيرونديين « البورجوازية العليا » .

وفي ٢٨ مارس ١٧٩٣ شدد المؤتمر الوطني قوانين المهاجرين ، فاعتبر مهاجرا كل فرنسي ترك أرضا فرنسا منذ أول يوليو ١٧٨٩ ، ولم يعد إليها حتى تاريخ ٩ مايو ١٧٩٢ ، وكل من لا يستطيع تبرير عدم الإقامة المتصلة فى فرنسا ، منذ ذلك التاريخ وقضى القانون بالنفى المؤبد للمهاجرين من الأراضي الفرنسية وبالموت

المدنى وبمصادرة أملاكهم لصالح الجمهورية ، وقضى بالاعدام على من يخالف هذا القانون .

وفى ٥ و ٦ ابريل ١٧٩٣ أنشئت « لجنة الانقاذ القومى » لتحل محل « لجنة الدفاع العام » المنشأة فى أول يناير ١٧٩٣ ، والتي ثبت أنها عديمة الجدوى . وكانت « لجنة الانقاذ القومى » مكونة من ٩ أعضاء يختارهم المؤتمر الوطنى ، ويتجدد اختيارهم كل شهر ، وكانت مداولاتها سرية ، وكان على المجلس التنفيذى تنفيذ قراراتها دون ابطاء . ووصف الجيروندي قيام هذه اللجنة بالديكتاتورية ، فأجابهم مارا : « نعم ، انما بالعنف نحقق الحرية . وقد أن الأوان لننظم طغيان الحرية لنسحق طغيان الملوك » .

ودخل دانتون « لجنة الانقاذ القومى » مع كامبون وبارير اللذين انضموا الى حزب الجبل .

وفى ٩ ابريل ١٧٩٣ أوفد المؤتمر الوطنى « ممثلى الشعب المبعوثين لدى الجيوش » (٣ مبعوثين لكل جيش ، وعدد الجيوش ١١ جيشا) لمراقبة أعمال ممثلى المجلس التنفيذى وتصرفات الموردين والمقاولين المتعاملين مع الجيوش ، ولمراقبة القواد والضباط والجنود . . ثم عدل هذا القانون فى ٣٠ ابريل وجعل من اختصاص هؤلاء المبعوثين القبض على الجنرالات .

وبالنسبة للاجراءات الاقتصادية والاجتماعية فى خدمة الجماهير اشتد الصراع بين حزب الجيروندي وحزب الجبل . وفى ١١ ابريل ١٧٩٣ حدد المؤتمر الوطنى سعر صرف اجبارى للعملة الورقية مع عقاب من يرفضون التعامل بها .

وفى ٤ مايو ١٧٩٣ حدد المؤتمر الوطنى سعر الغلال والدقيق ، وقرر حصر الاتجار فيها فى سوق كل قسم من الأقسام .

وفي ٢٠ مايو ١٧٩٣ فرض المؤتمر الوطني قرضا اجباريا على الأغنياء بمليار جنيه لتمويل الدفاع الوطني . بعد ان طالب روبسبير اليعاقبة في ٨ مايو بأن يجعلوا « ذوى البنطونات المذهبة » يدفعون رواتب « ذوى السراويل الماونة » (الصان كيلوت) : « ان لديكم شعبا ضحما من الصان كيلوت كلهم أنقياء وأقوياء ، وهم لا يستطيعون ترك أعمالهم التي يعيشون منها ، فاجسأوهم يتقاضون أجورهم من الأغنياء » .

وقد وافق حزب السهل على كل القوانين الاستثنائية الخاصة بالانقاذ العام التي طرحها حزب الجبل .

وفي ٣ ابريل ١٧٩٣ بدأ روبسبير الهجوم المركز على الجيروندي في المؤتمر الوطني : « أنا أعلن أن أول اجراء يتخذ للانقاذ القومي هو اصدار قرار اتهام ضد كل المواطنين مع ديموريين ، ولاسيما بريسو » .

وفي ٥ ابريل أصدر اليعاقبة تحت رئاسة مارا منشورا الى فروع ناديهم مطالبين باسقاط العضوية عن أعضاء المؤتمر الوطني من أصناب النداء الى الشعب الفرنسي لانقاذ الملك من الاعداء ، مع تجريدهم من أملاكهم . وبعد مناقشة عنيفة قرر المؤتمر الوطني تقديم مارا لمحكمة الثورة بأغلبية ٢٢٦ صوتا ضد ٩٣ وامتناع ٤٧ من التصويت ، لأنه وقع هذا المنشور بوصفه رئيسا لنادى اليعاقبة وليس بوصفه عضوا هاما لكتلة برلمانية . فتقدم للمحاكمة بوصفه « رسول الحرية وشهيدها » ، وبرأته محكمة الثورة في ٢٤ ابريل ١٧٩٣ ، فانتصر انتصارا مبينا . فمئذ ١٥ ابريل قدم ٣٥ قسما من ٤٨ قسما من أقسام باريس عريضة للمؤتمر الوطني تهدد باتخاذ اجراءات حاسمة مع أهم ٢٢ عضوا من قيادات الجيروندي .

ومن العيث أن نبحث فى قضية مارا أمام محكمة الثورة عن ضمانات للعدالة بالمعنى القانونى ، فالقضية من أساسها قضية سياسية وقد كان واضحا منذ البداية أن محكمة الثورة كانت تحس بضغط الشارع السياسى الباريسى أى بضغط « الصان كيلوت » .

وفى ١٧ مايو ١٧٩٣ هاجم حزب الجيرونديز فى المؤتمر الوطنى قلعة حزب الجبل وهى كوميون باريس وسماه « السلطة الفوضوية » ، فشكوا لجنة من اثنى عشر عضوا كلهم من الجيرونديز . . . وقررت اللجنة فى ٢٤ مايو القبض على هيبير Hébert صاحب جريدة « الأب دوشين » Le Père Duchesne أشهر جريدة ثورية فى تاريخ الثورة الفرنسية ولسان حال الصان كيلوت ، بسبب مقال كتبه فى العدد ٢٤٩ انهم فيه زعماء الجيرونديز بالتآمر لاعادة الملكية والفتك بزعماء حزب الجبل واليعاقبة وكوميون باريس الذى كانت جريدة « الأب دوشين » لسان حاله وكن سيبير محاميه .

وطالب كوميون باريس بالأفراج عن هيبير ، ودعا روبسبير للثورة . وفى ٢ يونيو ١٧٩٣ أحاط الحرس الوطنى « ٨٠٠٠ ر٨٠ جندى » ، بقيادة هنريو Henriot بالمؤتمر الوطنى الذى كان منعقدا برياسة هيرودى سيشيل Herault de Séchelles وحاول مجموع الأعضاء كسر الحصار والخروج من القاعة ، وهنا صاح هنريو فى رجاله : « يا رجال المدفعية ! الى مدافعكم ! » فعاد أعضاء المؤتمر الوطنى الى مجلسهم ، ووافقوا على اعتقال ٢٩ نائبا من زعماء الجيرونديز ومعهم وزيران .

وهكذا انتهت المبارزة بين الجيرونديز وحزب الجبل التى بدأت فى الجمعية التشريعية . .

١٤ - الحرب والحرب الأهلية

فى ٢٦ ابريل ١٧٩٢ أنشد روجيه دى ليل Roger de Lisle نشيد الحرب لجيش الراين المعروف بالمارسيليز La Marseillaise أى نشيد أبناء مارسيليا ، وهو من تأليفه وسرعان ما أصبح هذا النشيد الملهب بالحماس الوطنى وبالحماس الثورى نشيد الحرب والثورة لكل المحاربين والثوار الفرنسيين داخل فرنسا وخارج فرنسا .

وفى ربيع ١٧٩٢ كانت الثورية والوطنية كلمتين مترادفتين بسبب خيانة الطبقة الارستقراطية التى اختلطت عليها مصالحها الطبقيّة بمصالح الوطن فتعاونت مع أعداء فرنسا لتسترد امتيازاتها الضائعة حتى أقطاب حزب الجيرونديين المعتدلين بريسو وفيرنيو ورولان ، كانوا يعرفون ان البلاط الملكى يشجع ثورة الجنرالات على الثورة وفى ٢٣ مايو ١٧٩٢ نددوا باللجنة النمساوية التى

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١٩٨٩/١٢/١٦ .

بديرتها المائكة ماري أنطوانيت ونعد لانتصار أعداء فرنسا ولانتصار الثورة المضادة فيها .

وبتأثير بريسو وفيرنيو اتخذت الجمعية التشريعية طائفة من القرارات المتعاقبة كاجراءات وقائية ضد الثورة المضادة كان أهمها :

١ - قرار ٢٧ مايو ١٧٩٢ بإبعاد القساوسة الذين رفضوا أداء يمين الولاء للدستور المدني أى بتبعيةهم لدولة فرنسا بشهادة عشرين مواطناً من أقاليمهم .

٢ - قرار ٢٩ مايو بحل الحرس الملكي الذى كان مليئاً بالضباط الملكيين .

٣ - قرار ٨ يونيو بإنشاء معسكر من ٢٠٠٠ من الحرس الوطنى فى باريس للاشتراك فى قمع أى تحرك للثورة المضادة وقد رفض الملك التصديق على هذا القرارات الثلاثة .

وفى ١٠ يونيو ١٧٩٢ وجه رولان ، رئيس الوزراء ، انذارا للملك بضرورة التصديق على هذه القرارات خشية أن يظن الناس انه يؤيد بقلبه النبلاء المهاجرين للقتال مع الأعداء . فأقال الملك الوزراء الجيروندي من الوزارة فى ١٣ يونيو . واستقال الجنرال ديمورييز Dumouriez وزير الحربية فى ١٥ يونيو برسافر ليتسلم القيادة فى جيش الشمال خشية ان يقال انه كان ضالعا فى أزمة الجيروندي . وعاد الفوليان Peuillants حزب لافاييت الى الحكم وهم من دعاة الملكية الدستورية وفى ١٨ يونيو أعلن لافاييت ان الدستور الفرنسى يتهدده المنحزبون فى الداخل والأعداء فى الخارج .

وطالب الجمعية التشريعية بان نبطلس باليعاقبة وكان واضحا ان الملك يعد برنامجا سياسيا وفنى لفتح لامنت Jamet بتصفية

اليعاقبة والديمقراطيين عامة وتعديل دستور ١٧٩١ بما يقوى سلطات الملك وانتهاء الحرب بعقد صفقة مع الأعداء .

وتكونت جبهة من البعاقبة والجيروند وقادت مظاهرة شعبية في ٢٠ يونيو ١٧٩٢ بقيادة سانثير *Santerre* أحد أبطال الباستيل للاحتجاج على سلبية الجيش وعلى عدم التصديق على قرارات مايو ١٧٩٢ وعلى اقالة وزارة الجيرونديين . وتجمع الشعب أمام الجمعية التشريعية واقتحم قصر التويلري فلبس الملك الطاقية الحمراء رمز الصنان كيلوت ، وشرب نخب الأمة ولكنه رفض التصديق على القرارات أو استدعاء الوزراء الجيرونديين .

وفي ١١ يوليو ١٧٩٢ أعلنت الجمعية التشريعية ان الوطن في خطر ودعت المواطنين للتطوع وحمل السلاح ونددت بخيانة الملك ووزرائه . واستقالت وزارة الفوليان . وأراد الجيرونديين استرداد السلطة فدخلوا في مفاوضات سرية مع القصر انتهت بأن بريسو أعلن في ٢٦ يوليو انه ضد التصويت العام الذي كان يطالب به روبسبير واليعاقبة وانه ضد خلع الملك ، رغم ان ٤٧ من ٤٨ قسما من أقسام باريس أعلنت خلع الملك .

وكان الملك والنبلاء يدفعون ببلاذهم الى الحرب بأمل أن يهزم الجيش الفرنسي أمام بروسيا والنمسا وتعاد الملكية المطلقة والنظام الاقطاعي بالتدخل الأجنبي وفي نفس الوقت كان الملك يرسل الى الأعداء خطابات للجيش الفرنسي وفي ١٠ أغسطس ١٧٩٢ خلع الملك وأرسل منهفورا الى السجن .

وفي ٢ سبتمبر سقطت فردان في أيدي البروسيين واغتال المكيون قائد المتطوعين الثوري وفي ٨ سبتمبر اقترب البروسيون من غابة الأرجون *Argonne* ولكنهم اشتبكوا في كل مكان مع جيوش ديمورييز . وفي ١٢ سبتمبر وصل النمساويون فانسحب

ديموريينز جنوبا تاركا طريق باريس مفتوحا . ولكن في ١٩ سبتمبر وصل كيلرمان Kellermann قائدا حامية ميتز Metz ، وانضم الى ديموريينز فأصبح التفوق العددي للفرنسيين . (٥٠.٠٠٠ جندي مقابل ٣٤.٠٠٠ جندي) .

لم تكن معركة فالمي Valmy التي صمد فيها الفرنسيون بقيادة ديموريينز في ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ انتصارا استراتيجيا بل كانت مبارزة بالمدفعية دامت طوال النهار حتى السادسة مساء تحت الأمطار الغزيرة التي ظلت تنهمر أياما .

رفع كيلرمان قبعته فوق سيفه وهتف « عاشت الأمة » ، وتقدم الهجوم فاندفعت وراءه قوات الصان كيلوت وتقهقر الجيش البروسي مهزوما تحت المطر ووسط الأوحال يناوشه فلاحو اللورين وفلاحو اقليم شامبانيا الذين كانوا يطاردون الغزاة وجيش النبلاء المهاجرين المؤيدين لهم . وتعقب ديموريينز الجيش البروسي ولكن في بلاء شديد ، ولم يحاول سحقه مستغلا متاعبه . كلا لم تكن فالمي انتصارا استراتيجيا وإنما كانت انتصارا معنويا ، فمن بعدها تحررت فيردان Verdun في ٨ أكتوبر ثم لونجوى Longwy في ٢٢ أكتوبر .

وكان جوته Goethe يتابع معركة فالمي عن كثب ، فقال لايكerman : « من اليوم ومن هذا المكان يبدأ عهد جديد في تاريخ العالم » لقد كان جوته كعامة شباب جيله متعاطفا مع الثورة الفرنسية .

ومنذ انتصار ديموريينز في فالمي وجاماب emnappes وجدت الجيوش الفرنسية نفسها تحتل السافوا Savoie بقيادة مونتسكيو Montesquieu (٢٦ سبتمبر ١٧٩٢) ونيس بقيام الجنرال انسيلم Anselme (٢٦ سبتمبر ١٧٩٢) ونهر الراين

بقيادة الجنرال كوستين Custine وشبير Soire في ٢٥ سبتمبر
وويرمز Worms في ٥ أكتوبر ومايانس Mayence في ٢١
أكتوبر وبعد يومين فرانكفورت Frankfurt (وبعد فالى رفع
النمساويون الحصار عن ليل Lille في ٥ أكتوبر فدخلها ديموريز
ثم دخل بلجيكا على رأس ٤٠.٠٠٠ مقاتل وكان أكبر انتصار له
في جاماب في ٦ نوفمبر واخلى البلجيكيون بروكسل Bruxelles
في ١٤ نوفمبر وانفرس Anvers في ٣٠ نوفمبر باختصار وجدت
فرنسا نفسها تحتل الألب والراين وبلجيكا وهنا ظهرت نظرية
دانتون : ان حدود فرنسا السياسية هي حدود الجغرافيا الطبيعية :
المحيط الأطلسي غربا ونهر الراين وجبال الألب شرقا وجبال البرانس
والمتوسط جنوبا وبحر المانش شمالا .

وطلبت البلاد المفتوحة (نيس والسافوا والراين) من المؤتمر
الوطني الذي حل محل الجمعية التشريعية يوم انتصار فلى بالذات
(٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) الانضمام الى فرنسا فوضعت هذه البلاد
المؤتمر الوطني أمام مشكلة كبرى هي : الحرب مكلفة ، فكيف تمويل
الحرب : هل هي حرب غزو أم حرب تحرير ؟ وجاءت الاجابة في
١٩ نوفمبر ١٧٩٢ من المؤتمر الوطني الذي أعلن : « ان المؤتمر
الوطني يعلن باسم الأمة الفرنسية انه سوف يقدم الاخاء والمعونة
لكل الشعوب الراغبة في استرداد حريتها .

وتوالت الاقتراحات : اقترح بيسنو في ٢١ نوفمبر ١٧٩٢
انشاء حزام من الجمهوريات حول فرنسا لأنه لا هدوء مع بقاء
اليوربون . وبشر الأب جريجوار بأوربا بلا قلاع ولا حدود . ودرجة
درجة تكشفت الحقيقة ، وهي ان فرنسا لا تستطيع أن تدفع
بمفردها فاتورة تحرير جيرانها من الملكية المطلقة ومن النظام
الاقطاعي اللذين كانا سائدين في كل أوربا خارج فرنسا وانجلترا
تكشفت الحقيقة العارية هي أن التحرير هو الاسم الآخر للتوسع .

الثورة الفرنسية - ١٧٧

وفى ١٠ ديسمبر ١٧٩٢ قال كامبون Cambon عضو اللجنة المالية فى المؤتمر الوطنى للمؤتمر كلما تقدمنا فى بلاد الأعداء جرت الحرب علينا الخراب ولاسيما بمبادئنا وسخائنا . . . يقولون بلا انقطاع اننا نحمل الحرية لغيراننا . ولكننا نحمل ايضا تمويننا وغذاءنا فهم لا يقبلون عمالتنا الورقية ! » .

وفى ١٥ ديسمبر ١٧٩٢ أصدر المؤتمر الوطنى بناء على طلب كامبون قرارا بتأسيس ادارة ثورية فى البلاد المدروحة تضح املاك رجال الدين وأعداء النظام الجديد تحت الحراسة . كضمان للعملة الورقية ، مع الغاء « العشور » التى كانت الكنيسة تجبئها من المؤمنين والغناء الحقوق الاقطاعية واستبدالها بفريضة جديدة على الأغنياء أصبح الشعار الجديد : « الحرب على الفسور والسلام للاكواخ ! » .

وهكذا أصبح « الضم » هى السياسة الوحيدة المؤهولة لمنع الثورة المضادة وفى ٢٧ نوفمبر ١٧٩٢ ، وافق المؤتمر الوطنى بناء على تقرير من الأب جريجوار على ضم اقليم الميسافوا الى فرنسا باجماع الأصوات الا صوتا واحدا . وفى باجينا تم التصويت على الانضمام الى فرنسا بلدا بلدا ومقاطعة مقاطعة خلال مارس ١٧٩٣ ، وفى ١٧ مارس ١٧٩٣ عقد اجتماع مايننس Mayence تقرر فيه انضمام حوض الراين وصدق المؤتمر الوطنى على هذا القرار . وفى ٢٣ مارس انضمت اسقفية بازل Bâle بدورها .

وعند اعدام الملك لويس السادس عشر فى ٢٠ يناير ١٧٩٣ أعلن الحداد فى البلاط الانجليزى وفى اول فبراير ١٧٩٣ بناء على تقرير من بريسو أعلن المؤتمر الوطنى الحرب على انجلترا وهولندا فى وقت واحد وقد سبب سقوط انغيس فى أيدي الفرنسيين انزعاجا شديدا فى « السيتى » City حتى المل بلندن ، وكان وليم بت William Pitt رئيس وزراء انجلترا هو المعبر الطبيعى

عن مضالح « السنيىى وكان التجار الفرنسىون يعتمدون فى النقل البحرى على المراكب الانجليزية فى المقام الاول مما آثار حفيظة الفرنسيين ولذا كانت الحرب بين فرنسا وانجلترا حربا بين امتين لا حربا بين حكومتين .

وبالمثل فقد آثار اعدام لويس السادس عشر ثائرة البلاط الاسباني الشديد التمسك بالكاثوليكية فرفض ملك اسبانيا استقبال القائم الفرنسى بالأعمال وعدت فرنسا ذلك اهانة فسهجته وأعلنت الحرب على اسبانيا فى ٧ مارس ١٧٩٣ . ثم قطعت صلتها بالبابا وأعلنت الحرب على ملوك ايطاليا (ملوك نابولى وتوسكانيا والبندقية) . وبين مارس وسبتمبر ١٧٩٣ عقدت انجلترا سلسلة من المعاهدات الثنائية مع كل أعداء فرنسا أى مع كل دول أوروبا فيما عدا اسكنديناوة وسويسرا . وهكذا ظهرت التحالفات الاولى منذ فبراير - مارس ١٧٩٣ ، وكانت انجلترا بمنزلة القلب .

وكان ديمورييز ضابطا محترفا من فقراء النبلاء اشترك فى حرب السنوات السبع وبلغ فيها رتبة كابتن ثم عين ملحقا فى مدريد ثم عين عميلا سرىا للملك لويس الخامس عشر فى بولندا والسويد . وكان خرب الذمة يسمح للموردين أن يسرقوا الجيش ولذا كان عدد الجنود الفرنسيين فى ميدان القتال يتناقص لسوء التغذية وسوء الملابس وكان الجنود يتعقدون على القتال بالمعارك فما ان تنتهى المعركة حتى يتركوا القتال بموجب حقهم القانونى . وهكذا انخفض عدد القوات المسلحة من ٤٠٠.٠٠٠ فى ديسمبر ١٧٩٢ الى ٢٤٠.٠٠٠ فى فبراير ١٧٩٣ .

وكان هناك نوعان من الجنود : النظاميون والمتطوعون وكان الجنود المتطوعون يلبسون حللا زرقاء وينتخبون ضباطهم وكانت رواتبهم أعلى من رواتب الجنود النظاميين رغم انهم كانوا أقل تدريبا

وانضباطا منهم ، كما انهم كانوا يتعاقدون بالمعاريك . أما الجنود النظاميون فكانوا يلبسون بنطلونات بيضاء ، وكان ضباطهم مفروضين عليهم كما ان خدمتهم العسكرية كانت لمدة اطول . وكانوا يحتقرون المتطوعين ويحسدونهم في آن واحد .

وفي ٢١ فبراير ١٧٩٣ أصدر المؤتمر الوطني قساوان الادماع لوضع حد لهذه الازدواجية في القوات المسلحة وعرف بقانون ديوبوا كرانسيه Dubois-Crance . وبموجبه تقرر ان تدمج اورطتان من المتطوعين في اورطة واحدة من الجيش النظامي ، وكان القصد من هذا الادماع ان يعطى الجنود المتطوعون المسيسون حسهم المدني والثوري وحماستهم الايديولوجي للجنود النظاميين ، بينما يعطى الجنود النظاميون حرفيتهم وخبرتهم واحترامهم للنظام للجنود المتطوعين . واخذ بمبدأ اختيار الجنود لضباطهم باستثناء الثالث الذي يبقى بالاقدمية .

وكان الجيروندي يعارضون قانون الادماع ، ومع ذلك فقد حالت الضرورات العسكرية دون تطبيق الادماع حتى شتاء ١٧٩٣ - ١٧٩٤ ولكن منذ صيف ١٧٩٣ توحد الزي والراتب وتوحدت اللوائح وفي المؤتمر الوطني كان سان جوست Saint-Just اكبر داعية لقانون الادماع قال : « ان وحدة الجمهورية تحتتم وحدة الجيش . ليس للوطن الا قلب واحد . »

وفي ٢٤ فبراير ١٧٩٣ صدر قانون بتجنيد ٣٠٠.٠٠٠ جندي موزعين على الاقاليم ولكن حصيلة هذا التجنيد لم تتجاوز نصف هذا العدد بكثير .

وفي فبراير ١٧٩٣ بدأ هجوم ديموريز الفاشل على هولندا بعد ان اعتمدت خطته رغم وضوح تخلف القوات الفرنسية .

وفي ١٦ فبراير ١٧٩٣ تقدم ديمورييز من الفرس ودخل هولندا على رأس ٢٠.٠٠٠ مقاتل واستولى على بريدا Bréda في ٢٥ فبراير . ولكن في اول مارس ١٧٩٣ هجم الجنرال كوبورج Cobourg القائد الاعلى للجيش النمساوى على الجيش الفرنسى المرابط في بلجيكا وشنته فكانت كارثة وأخلت اكس لاشابل Aix-la-Chapelle في ٢ مارس ثم أخلت لياج Liège في فوضى شديدة .

وفي باريس تصاعدت حمى الوطنية وبدأت اجراءات الانقاذ القومى ودمرت مطابع صحف الجيرونديين : « لاكرونيك دي بارى » La Chronique de Paris و « لو باتريوت فرانسيز » Le Patriote Francais

وفي ١٠ مارس ١٧٩٣ أنشئت محكمة الثورة لمحاكمة عملاء الأعداء قال دانتون : « أنا لا أعرف الا الأعداء فلنسحق الأعداء .

وتبع هذا ضياع بلجيكا . واستمر ديمورييز رغم هزيمته في الزحف على روتردام بهولندا ، مما شكك في نواياه . ولكنه هزم هزيمة ساحقة في معركة نيرويندن Neerwinden في ١٨ مارس ١٧٩٣ ، وفي لوفان Louvain في ٢١ مارس . وهنا بدأ ديمورييز المفاوضات مع قاهره الجنرال كوبورج ، وكان مشروعه يقوم على اخلاء بلجيكا وحل المؤتمر الوطنى وتنصيب لويس السابع عشر ملكا دستوريا على فرنسا بعد اعادة دستور ١٧٩١ .

وأرسل المؤتمر الوطنى الى ديمورييز أربعة قوميسريين ومعهم وزير الحربى لعزله من قيادة الجيش فاعتقلهم وسلمهم الى النمساويين في اول ابريل ١٧٩٣ وفي النهاية حاول ديمورييز الزحف بجيشه على باريس ، ولكن جيشه رفض ان يتبعه وفي ٥ ابريل هرب ديمورييز مع بعض رجاله الى خطوط النمساويين ، وكان من بينهم

لـسويس فيليب • Louis Philippe بن فيليب المساواة
Philippe Egalité تحت وابل من رصاص الأورطة الثلاثة من
المتطوعين •

وضاع الشاطئ الأيسر من نهر الراين نتيجة لضياع بلجيكا •
وعند سماع أبناء نيويندن عبر الدوق برونسويك الراين في
٢٥ مارس ورد جيش الجنرال كوستين الى الجنوب ، وشير وحاصر
البروسيون ماينس وانسحب كوستين الى لاندو Duandau DE

وهكذا عادت الحرب الى أرض فرنسا وعقد الحلفاء اجتماعا في
أنفرس ولم يخفوا مراميهم من الحرب وحدودها بأنها :

- ١ - تشجيع الثورة المضادة •
- ٢ - الحصول على تعويضات اقليمية •

وفي باريس الهبت خيانة ديمورييز الصراع الحزبي واتهم
الجيروند دانتون بالتواطؤ مع ديمورييز فقد أرسله المؤتمر الوطني
منذ بداية مارس فشاهد الكوارث التي حلت بالجيش الفرنسي ولكن
دانتون وقف الى جانب ديمورييز طويلا ، وحاول حتى ١٠ مارس
أن يطمئن المؤتمر الوطني بشأنه • وفي ٢٦ مارس في الليلة السابقة
على خيانة ديمورييز ، التقى ديمورييز في تورناى Tournai
بثلاث من اليعاقبة من أعوان دانتون ليسوا فوق مستوى الشبهات
هم ديبيوسسون Dubuisson وبيريرا Pereira وبسولي Progie

وفي أول إبريل قلب دانتون الموائد في المؤتمر الوطني
بمنتهى الجرأة على حزب الجيروند بأن وجه اليهم نفس الاتهام وسط
تصفيق حزب الجيل وقد عجلت خيانة ديمورييز بسقوط الجيروند •
Vendée

ووسط كل هذه الهزائم والخيانات اندلعت ثورة الفاعنديه

وبوردو Bordeaux واشتعلت الثورة المضادة في ليون Lyon واستسلم ميناء تولون Toulon على البحر المتوسط للانجليز . والفاندييه اقليم مستطيل الشكل مساحته نحو ١٠.٥٠٠ كيلو متر مربع جنوب نهر اللوار Loire ويطل من الغرب على المحيط الأطلنسى بين سان نازير Saint-Nazaire وسان جيل Saint-Giller شمال بوردو اما من الشرق فهو يمتد من سومير Saumur الى بارتناي Parthenay وليس للفاندييه سواحل على المانش .

ومن يقرأ كتاب حرب الابداء في الفاندييه La genoci de Franco-Franco بقلم ريتنالد سيكر Reynald Secher يخرج بنتيجة رهيبه وهى ان حرب الفاندييه هلك فيها ١٥٪ من سكان هذا الاقليم اى نحو ١١٧.٠٠٠ نسمة من ٨١٥.٠٠٠ نسمة اى انها كانت حرب ابادء منظمة ، كما نخرج بنتيجة اخرى وهى ان الامور لم تهدأ حقا في الفاندييه الا في ١٧٩٩ اثناء قنصلية بوناپرت . ويلاحظ ان وحدة الفاندييه جغرافيا تشمل اجزاء متصلة من ثلاث مقاطعات هى انجو Anjou وبريتانى Bretagne وبواتو Poitou وان بها ٧٠٠ ابروشية .

وقد أدت الهزائم والخيانات العسكرية في الشرق واشتعال الثورة المضادة في الفاندييه وليون الى انشاء لجنة الانقاذ القومى الذى أنشأها دانتون في ابريل ١٧٩٣ ، وكذلك لجنة الأمن العام لمراقبة المشبوهين وتوجيه البوليس والعدالة الثورية .

وكتاب رينالد سيكر يوضح في الفصل بعد الفصل دور الكنيسة في قيادة الثورة المضادة في الفاندييه ، منذ ان أصدرت الجمعية التأسيسية الدستور المدنى لكنيسة فرنسا في ١٢ يوليو ١٧٩٠ فصلت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية عن الكنيسة

الكاثوليكية الخاضعة لبابا روما والفاتيكان بوصفها كنيسة
قومية وطنية ، وحظرت على أية كنيسة أو أبروشية فى فرنسا
الاعتراف بسلطة أى أسقف أو كاردينال معين من دولة أجنبية
وكذلك حظرت على أى مواطن فرنسى الاعتراف بسلطة أى رجل
دين معين من الخارج ، سواء فى طقوس التعميد أو الزواج أو الوفاة
أو إقامة القداس أو تناول الأسرار الالهية . كما أن حكومة الثورة
صادرت أملاك الكنيسة والأديرة ورجال الدين وحولت جيش
« الكهنوت » الى مجرد موظفين عموميين .

وقد أدى تبنى الكنيسة لموقف الملكيين والنبلاء الى كل هذا
العنف فى تعامل الثورة الفرنسية مع رجال الدين ، فمنهم عدد كبير
امتنع عن أداء يمين الولاء للدستور المدنى وتحدى قوانين الجمعية
الوطنية والجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية والمؤتمر الوطنى
بشأن تنظيم شئون الكنيسة والكهنوت وبعد اعدام لويس السادس
عشر نرى أحد الأساقفة فى الفانديه يشرب نخب لويس السابع عشر
متجاهلا ان هناك ثورة فى البلاد .

١٥ - لويس السادس عشر

بعد ثورة « ١٠ أغسطس ١٧٩٢ الثورة على حق الفيتو Veto
أى التى يصدرها البرلمان أو المجلس النيابى والكلمة لاتينية معناها
حرفيا : « ائى أعترض » قبض على الملك لويس السادس عشر
(١٧٥٢ - ١٧٩٣) والملكة مارى أنطوانيت (١٧٥٥ - ١٧٩٣)
وأولادهما ومعهم الأميرة دى لامبال de Lamballe ومدام تورزيل
de Tourzel ومدام اليزابيث ، أخت الملك ، وأرسلوا مخفورين
الى سجن التامبل Temple فى قلب باريس ، تمهيدا لمحاكمتهم ،
حيث اعتقلوا فى جناحين ببرج السجن . وكان يصحبهم عمدة
باريس ومعه ضابط ويحفهم موكب من مشاة الحرس الوطنى وهذا
ما جعل الجماهير تسمى الملك والملكة مسيو ومدام فيتوى .
وكانت الجمعية التشريعية قد اقترحت ان تسجن الأسرة
المالكة فى قصر لوكسمبورج ولكن القرار تعدل بضغط من كوميون
باريس .

● نشرت بجريدة الأسترام

بتاريخ ١٩٨٩/١٢/٢٣ .

وكانت العربية التي تحمل الأسرة المالكة من عربات القصر الملكي يجرها جوادان فقط . وتبعت العربية الملكية عربية أخرى تحمل ستة من الخدم صرح بهم كوميون باريس لخدمة الأسرة المالكة ومر الموكب ببطة . مخترقا شوارع باريس . وكان هناك اهتمام خاص بأن يمر الموكب ميدان فاندوم Vendôme لبري لويس السادس عشر تمثال لويس الرابع عشر مهشما رمزا للطغيان المهشم . وفي نحو الساعة السابعة مساء بلغ الموكب سجن التاميل وكانت المفاجأة أن لويس السادس عشر وجد أن مكتبة السجن تحتوي على نحو ١٥٠٠ كتاب .

ثم انتقلت مدام لامبال ومام تورزيل الى سجن لافورس La Force ، ثم سحبوا الخدم ولم يتركوا الا خادما واحدا وعندما وصل لويس السادس عشر الى سجن التاميل نزعوا سيفه . وفي ١١ ديسمبر اقتيد الملك ليحاكم أمام المؤتمر الوطني الذي حل محل الجمعية التشريعية .

وأعلن رولان رئيس الوزراء انهم عثروا في قصر التويلري على وثائق تدين الملك في ١٤ تهمة مختلفة هي كالآتي :

- ١ - اطلاق الفرقة الأجنبية على الشعب الباريسي لاختماد احتجاجا على ما جرى في مذبة نانسى .

- ٢ - سفك دماء الجماهير الفرنسية فيما تلا ذلك من انتفاضات ومظاهرات شعبية ولا سيما في مذبة ميدان الشان دي مارس احتجاجا على ما جرى في مذبة نانسى .

- ٣ - مراسلاته مع ميرابو التي اشترى فيها ذمة ميرابو ليضمن نص الدستور على حق الاعتراض الملكي على القوانين التي تصدرها الجمعية التشريعية وعلى حق الملك فى اعلان الحرب والسلام .

- ٤ - مخططة لشراء ذمم زعماء الثوار على نطاق واسع .
 - ٥ - مراسلاته مع النبلاء المهاجرين وفيها ما يدينه بالتجمع خارج فرنسا والقيام بعمليات عسكرية لغزو فرنسا بالتعاون مع الدول الأجنبية .
 - ٦ - مفاوضات السرية مع امبراطور النمسا وملك بروسيا لاستعدادهما على فرنسا .
 - ٧ - تواطؤه مع الجنرال بوييه Bouillé لترتيب مذبحه نانسى .
 - ٨ - حنثه بالقسم الفيدرالى .
 - ٩ - تأمره مع عصاة « فرسان الخنجر » للتخلص من زعماء الثورة .
 - ١٠ - دفاعه عن القصر الملكى بالفرق الأجنبية .
 - ١١ - خيائته التى تسببت فى هزيمة لونجوى وفردان .
 - ١٢ - حمايته لرجال الدين المتمردين على الدولة برفضه التصديق على قانون ابعاد من يرفض منهم أداء يمين الولاء لدستور الكنيسة المدنية .
 - ١٣ - هربه الى فارين ليحتمى بمعسكر الأعداء .
 - ١٤ - بيانه الذى تركه يوم فراره الى فارين وفيه يعلن تمسكه بالحكم المطلق وبالنظام القديم .
- هذا « الابلاغ » الذى قدمه رولان ، رئيس الوزراء ، للمؤتمر الوطنى ببناء على « ابلاغ » من « كوالينى » قصر التويلرى فى ٢ نوفمبر ١٧٩٢ بأن الملك أمره ببناء دولا ب حديدى ليضع فيه أوراقه البشرية وقية قدم رولان للمؤتمر الوطنى ٧٠٠ وثيقة من الدولا ب الحديدى ، ثم قدم ١٥٠ وثيقة جديدة . وقد قيل « يوتيتك ان رولان

أخفى من المراسلات ما يدين أصدقاءه ورجال حزبه ، حزب
الجيروند .

وعرض المؤتمر الوطنى على لويس السادس عشر اختيار
محامين يتولون الدفاع عنه أثناء محاكمته . فتطوع الفقيه الكبير
مالزرب Malesherbes وترونشيه Tronchet والمحامى الضليع
سيز Sèze للدفاع عنه وفى أثناء استجوابه .

وعندما ووجه الملك بالتهم أنكرها جميعا وعندما ووجه بالوثائق
التي تدينه أنكر نسبتها اليه . ولكن المحامين اطلعوه بصراحة على
حرج موقفه ، ولاسيما ازاء الأدلة الخطية فادرك الملك ان النهاية قد
اقتربت . وبدأت عليه السلبية بالنسبة للاتهامات الموجهة اليه ،
فكان يصلى طوال الوقت ، وطلب الملك قسيسا من القساوسة
المتمردين على دستور الكنيسة المدنى ليعينه على اجتياز الباب الضيق
وليُعترف على يديه ويتناول الأسرار الالهية على عادة المسيحيين ،
فهربوا له الأب دى فيرمون de Firmon على انه مساند للمحامين .
وفى يوم ٢٦ ديسمبر ١٧٩٢ استدعى لويس السادس عشر أمام
المؤتمر الوطنى مرة ثانية وأخيرة لسماع المرافعات والادلاء بدفاعه
الشخصى . وكان المترافع هو سيز الذى بنى مرافعته على نقطة
دستورية هامة هى مبدأ « عصمة الملك » أو ان ذات الملك مصونة
لا تمس . . وكان دفاع الملك عن نفسه موجزا .

قال سيز :

« أيها المواطنون ، انى أتكلم هنا بصراحة رجل حر : انى
أبحث بينكم عن قضية فلا أجد بينكم الا موجهين للاتهام . .
فلويس اذن هو الفرنسى الوحيد الذى لا يوجد له أى قانون أو أى
شكليات ! فهو اذن محروم من كل حقوق المواطن ومن كل حقوق
الملك السيادية ! » .

أما دفاع الملك عن نفسه فهو انه لا يحس بتأنيب الضمير
لشيء مما نسب اليه ، وانه لم يكن يتصور بتاتا ان تصرفاته يمكن
ان تكون موضع مساءلة عامة ، وان أشد ما آلمه فيما سمع هو
تحميله المسئولية عن سفك دماء الشعب ، لأن حبه لشعبه كثيرا
ما عرضه للمخاطر في محاولاته لحقن الدماء . .

بعد هذا اقتيد الملك الى سجن التامبل حيث أقام حتى خرج
الى المقصلة صباح ٢١ يناير ١٧٩٣ . وفي هذه الأثناء جرت محاولات
لانتقاذ لويس السادس عشر من الاعداء من جانب الجيروندي ، ولكنها
أحبطت جميعا بسبب حماس حزب الجبل وكوميون باريس والجماهير
العريضة في طلب رأسه . وكان الملك متماسكا وهو يصعد الى
المقصلة . وكانت آخر كلماته : « أيها الشعب ! اننى أموت بريئا !
أغفر للذين كانوا السبب في موتى ! وأنا أصلى لله الا يسقط دمي
على رأس فرنسا ! » هكذا قال بعض كتاب السير . (ايفلين ليفيه
Evelyn Lever : لويس السادس عشر » طبعة فايار ١٩٨٥ .

كل المؤرخين متفقون على ان ماري أنطوانيت بما عرف عنها من
طيش هي التي ساعدت على تحطيم عرش البوربون . ولم أجد من
يدافع عنها دفاعا حارا من كتاب السير الا ستيفان زيفايج Stefan
Zweig في كتابه « ماري أنطوانيت » (١٩٣٣) . وقد دعاه هذا
الى اعطائنا ما يمكن ان نسميه « التفسير الجنسى للتاريخ » مما كبده
الغوص في مراسلات السفراء مع ملوكهم والملكات مع بناتهن ورجال
البلاط مع رجال البلاط .

ومنه تعرف ان عجز الملك الجنسى في السنوات السبع الأولى
من زواجه هو المسئول عن العقد النفسية التي أصيبت بها ماري
أنطوانيت من ميلها الى السحاق وكثرة ميلها الى حياة اللهو واتخاذ
العشاق في السر والعلن مما آثار عليها رجال البلاط وسيداته حتى
قبل أن يثير عليها الشعب الفرنسي ، فقد ظل لويس السادس

عشر غير قادر على الانتصاب الكامل سبع سنوات من عام زواجه في ١٧٧٠ ، وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره اذ كان لا يزال ولي عهد لويس الخامس عشر ، حتى أجرى العملية الجراحية اللازمة في ١٧٧٧ بضغط من حماة امبراطورة النمسا داريا تيريزا سليلة آل هابسبورج .

وقد ردت اليه هذه العملية رجولته فاستطاع ان يفض بكاره الملكة الشاببة ماري انطوانيت التي ظلت عذراء حتى سن الثانية والعشرين بحسب ما روى ستيفن تزفايج ، وان يزاول كفة واجبات الزوجية ، ومنها الانجاب طبعاً . ولكن ذلك لم يتم الا بعد ان خرب العجز الجنسي علاقه بزوجته وملاه بالعهد النفسية ، ففقد السيطرة عليها وفقد الثقة في نفسه ، واسبح كثير التردد غير قادر على اتخاذ قرار حاسم .

وقد ساعد على ذلك ان حياة الماوك الخاصة ليست ملكا لهم وحدهم ولكن لشعوبهم ايضا . وقد كان عجز الملك الجنسي موضع لغط البلاط ، ولاسيما اقرباؤه الادنون الطامعون في العرش ، مثل الدوق دورليان (فيليب المساواة) ، ومثل أخيه الصغير الكونت دي بروفانس ومثل أخيه الأصغر الكونت دارتوا ، الذين ما ان ارتقى لويس السادس عشر عرش فرنسا في ١٧٧٤ بعد وفاة أبيه لويس الخامس عشر حتى بدأوا يرقبون ميلاد ولي العهد المعروف في فرنسا بلقب الدوفان Dauphin ، فلما تأخرت ولادته بدأوا يروجون الاخبار عن عجز الملك الجنسي لعل وعسى ان تنتقل ولاية العهد الى اسباطهم بل بدأوا يروجون الاخبار عن سوء سلوك الملكة ماري انطوانيت .

وكان لويس السادس عشر يحب زوجته الشاببة ويمقت خفتها واقبالها على اللهو ، ويمقت من تخالطهم من رجال البلاط ونسائه ،

ويلتمس تسليته، الخاصة في الصيد والقنص لأنه كان قاتر الجماس للنساء . وكان ذا بنية قوية جدا ولكن ميله الى البدانة اصابه بالرخامة أو على حد وصف ستيفن زيفايغ . كانما الذي يجري في عروقه رصاص لا دماء . . . وكان يلاحظ نظرات التهكم في عيون حاشيته وحاشية الملكة فيتألم ولا يقول شيئا وربما جاءت الى مسامعه بعض العبارات أو الأشعار التي كانت تنظم فيه وفيها فيكظم غيظه . ومع ذلك فقد كان دائما رقيق الحاشية مع زوجته يلومها على اسرافها ولا يقرعها بل يدفع ديونها . وكانت سريعة الدموع إذا بكت في أحضانها انحاز الى جانبها أو غفر لها ، حتى بدا خاضعا لها . وراض نفسه على قبول عشيقها الضابط السويدي الكونت اكسيل فيرسن Axel Fersen في البلاط الملكي كحقيقة مقررة طالما ان كل شيء كان يجري مستورا . وكان به شغف خاص بالميكانيكا مما جعله خبيرا في صناعة الساعات والأقفال ، وكانت له ورشة خاصة في القصر الملكي ، وكان شديد التدين . .

ومع ذلك فكل هذا لا يحمل ماري أنطوانيت المسؤولية عن مأساة هذا الملك ولا يجعلنا نأخذ بالتفسير الجنسي للتاريخ الذي قدمه لنا استيفان زيفايغ . فقد عرف عن الملك لويس السادس عشر عناده الشديد الذي تجلى منذ يوم الباستيل وظهر في احتقاره للطبقة الثالثة يوم ميثاق ملعب التنيس واعلان قيام الجمعية الوطنية مقام مجلس الطبقات والغاء النظام الاقطاعي واعلان حقوق الانسان والمواطن وقيام الجمعية التأسيسية بوضع دستور ١٧٩١ الذي كان أقرب شيء معروف لنظام الملكية المقيدة المعمول به في انجلترا بل ونص فيه على تاقيب « ملك فرنسا » ب « ملك الفرنسيين » على اعتبار ان فرنسا ليست ضيعة يتوارثها الملوك أبا عن جد وإنما هم يحكمون بتفويض من الشعب مصدر كل سيادة . . كذلك فان من دلائل عناد الملك رفضه التصديق على الدستور المدني للكنيسة

والقوانين الصادرة بشأن النبلاء المهاجرين المحتمين بدول أجنبية ومصادرة أملاكهم اذا لم يعودوا خلال أجل معين ، ونفى رجل الدين الرافضين لأداء يمين الولاء للدستور الكنيسة المدني الذي يجعل منها كنيسة قومية غير تابعة لروما ومؤسسة وطنية من مؤسسات الدولة .

انسمى هذا عنادا :

لا . بل نسميه ايمانا راسخا وواضحا عند الملك بوظيفته الملكية . وهي انه قائد للطبقة الارستقراطية لا فرق في ذلك بين لويس السادس عشر وأسلافه من الملوك في تاريخ الانسانية الطويل .

ولكن ربما تفرد لويس السادس عشر بخاصية واحدة ، هي عدم القدرة أو الرغبة في المواجهة أو ما يسمونه الانحناء للعواصف ، وهو يضمر شيئا آخر ، كما فعل يوم لبس الكوكارد (شارة الثورة المثلثة الألوان) في بلدية باريس . يوم لبس الطاقية الحمراء ، شارة « الصان كيلوت » في قصر التويلري وأيا كانت أسباب هذا التردد أو المخادعة ، كما كان يسميها رجال الثورة ، فقد تجسدت في محاولته الفاشلة للهرب الى الحدود في مغامرة فارين .

كذلك من العيب ان يقال ان ماري أنطوانيت هي التي أغرت لويس السادس عشر بمحاولة الهرب الى خطوط أعداء فرنسا فقد سبقهما الى ذلك الآلاف من النبلاء المهاجرين الذين ليس لهم من الأباطرة مثل ماري أنطوانيت ، سليلة آل هابسبورج ، ولا لهم عشاق مثلها كالكونت اكسيل فيرسن ، وانما كان دافعهم الى ذلك تمسكهم بالنظام الاقطاعي وبامتيازاتهم الطبقيّة الموروثة وأملهم في استردادها عن طريق الخيانة الوطنية .

بعد هرب الملك واعادته الى باريس كان الموقف كالتالي اليعاقبة أصروا على محاكمة الملك واختيار وصي على العرش ، وانضم اليهم

الدوق دورليان (فيليب المساواة) . الكوردولييه راوا اعلان الجمهورية . كان كوندورسيه وبريسو وتوماس بين من كانوا في صالون مدام رولان يتحدثون عن اعلان الجمهورية وفي جانب اعلانها .

بريسو كان قد زار أمريكا والتقى بواشنطن وفرانكلين وعاد بمجد الديمقراطية الأمريكية . سيزكان يهدى الجو . في ١٣ يوليو ١٧٩١ ، قدمت اللجنة المشكلة لبحث قضية « اختطاف » الملك تقريراً ، أعلنت فيه انه اخنطف فعلا بترتيب من الجنرال بويه وطالبت اللجنة بمحاكمة الجنرال . وأكد التقرير تمسك الفرنسيين بالنظام الملكي قائلاً انه لا عبرة بالبيان الذي تركه لويس السادس عشر على مكتبه لعدم توقيع الوزراء على هذه الوثيقة . وبهذا فهي مجرد مسودة . وأعلن التقرير رأيه وهو ان « ذات الملك مصونة لا تمس » .

وهكذا خرج الملك من هذه المرحلة كالشجرة من العجين . وتكلم روبسبير عن العجين في التصدي للشركاء الصغار واعفاء الفاعل الأصلي من المسئولية . وهاجم دانتون مبدأ عصمة الملك .

وكان رد الفعل لدى الجماهير عنيفاً . وقرر الكوردولييه التجمع الجماهيري في ميدان الشان دي مارس لتأييد طلب بتيون Pétion من منصة الجمعية التشريعية خلع لويس السادس عشر باسم أقسام باريس وعقد مؤتمر وطني منتخب بالتصويت العام . فرفض الطلب لعدم دستوريته ، فثارت ثائرة الأقسام بقيادة اليعاقبة ، وتسلم الحرس الوطني خلال أيام . وتجمعت الجماهير في الشان دي مارس لتوقيع العرائض بقصد تقديمها الى الجمعية التشريعية وكانت مذبحة الشان دي مارس .

وفي ٢٠ ابريل ١٧٩٢ جعل لويس السادس عشر الجمعية

الثورة الفرنسية - ١٩٣

التشريعية تعلن الحرب على المجر وبوهيميا ، وكان قد كتب سرا الى امبراطور النمسا والى ملك بروسيا والأمرء الألمان قائلا انه ينوى استرداد سلطته . وكتبت ماري انطوانيت للكونت اكسميل فيرسن تعلن اغتباطها من ان الجيش الفرنسى مهامل فى الرجال والعتاد .

وأقال الملك الوزراء الجيرونديين رولان Roland وسرفان Servan وكلافير Clavière واستقال ديهوريزين Dumouriez وزير الحربية وسافر للجهبة لقيادة جيش الشمال وقد طرد الملك الوزراء الجيرونديين لانهم نصحوه بالامتناع عن استعمال حق الفيتو بالنسبة لتجريد رجال الدين والنبلاء المهاجرين من أملاكهم اذا لم يخضعوا او يعودوا فى أجل معلوم حتى لا يتهمه الشعب بالتعاضد مع الأعداء والمهاجرين . كان ذلك فى ١٣ يونيو ١٧٩٢ . وشكل وزارة من الفوليان أتباع لافاييت . كل ذلك والجماهير تهتف : « يسقط مسيو ومدام فيتو » .

وعرض الجيروندي على لويس السادس عشر الانزال عن عرشه لصالح ابنه تحت وصاية رجل وطنى ومجلس وزراء من الجيروندي . ورفض هذا الاقتراح .

وفى تقديرى ان نهاية لويس السادس عشر قد تقرر منذ هربه الى فارين وكل ما حدث بعد ذلك لم يكن الا تأجيلا للتقدير المحتوم ، او « حلاوة الروح » فقد جاء وقت فقد فيه الملك تأييد الجيروندي المعتدلين أنفسهم ، ورغم ان فئة من هؤلاء ظهرت لتنقذه من حد المقصلة بالمناورات القانونية داخل المؤتمر الوطنى او بعرائض « التسامح » Indulgence لتخفيف حكم الاعدام الى الاعدام مع وقف التنفيذ ، او الى النفى المؤبد او الى تعليق الحكم باعدام الملك حتى استفتاء الشعب الفرنسى فى الأقاليم فانفذت كل هذه المساعي ومات الملك على المقصلة يوم ٢١ يناير ١٧٩٣ .

١٦ - ماري انطونيت

في ٧ يونيو ١٧٦٩ ، تلقت الامبراطورة ماريا تيريزا Maria-Theresa امبراطورة النمسا ، خطابا من لويس الخامس عشر ، ملك فرنسا ، يخطب فيه رسميا ابنتها الارشيدوقة ماري انطوانيت Marie-Antoinette الى ابنه لويس السادس عشر Louis XVI وكان عمرها يومئذ أربعة عشر عاما أما عمر العريس الفرنسي فكان يومئذ ١٦ سنة ، فقد كان يكبرها بعامين . وبالطبع كان هذا الزواج مرتبا من قبل بين العائلتين المالكتين .

وكانت الفتاة الصغيرة فتاة جميلة رشيقة التكوين ذات شعر ذهبي طويل ، وقد أهمل تعليمها فكانت بالكاد تقرأ وتكتب الألمانية « لغة بلادها » ، وكانت تتكلم بعض الايطالية ، أما فرنسيتها فكانت رديئة ، وكانت لا تعرف الا أوليات اللغة اللاتينية . وكان الموسيقى

● نشرت بجريدة الأهرام
بتاريخ ١٩٨٩/١٢/٣٠ .

النمساوي جلوك Gluck يعلمها الموسيقى على آلة الكلافسان ،
وكان لها أستاذ للرقص من باريس .

وفي عقد زواجها تنازلت ماري انطوانيت عن حقوقها في
أملاك أسرة هابسبورج ، ودفعت دوية قدرها ٢٠٠.٠٠٠ فلورين
على أن تنتقل الى بلاط فرساي بمجوهرات لها نفس القيمة . ووعد
لويس الخامس عشر ببيع ٢٠٠.٠٠٠ سكوتوم ذهباً Louis وهي عملة
أوروبية تساوي ستة أمثال هذا العدد بالجنيهات الفرنسية الذهبية ،
كما وعد بمجوهرات قيمتها ١٠٠.٠٠٠ سكوتوم ذهباً .

وكان الزواج بالتوكيل في فيينا في ١٩ ابريل ١٧٧٠ ، أي
وهي في الخامسة عشرة من عمرها . وانتقلت على الفور الى باريس
وكانت أول مدينة فرنسية استقبلت فيها هي استراسبورج ،
ووجدت عريسها الفرنسي في الثامنة عشرة من عمره .

وفي ٧ مايو ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر وتولى لويس
السادس عشر عرش فرنسا .

وقد ارتبط اسم الملكة ماري انطوانيت باسم عشيقها الكونت
السويدي اكسيل فيرسن Axel Fersen . والتقت به لأول
مرة في ١٧٧٤ في « بال ماسكيه » ، رقص بالأقنعة بدار الأوبرا ،
وكانت لا تزال ولية للعهد . وكان مجرد لقاء وجيز لاحظت فيه
وسامته وقامته الفارعة . والتقت به ثانية بعد أربع سنوات عند
عودته الى فرنسا في ١٧٧٨ . وعند تقديمه للأسرة المالكة ، نسيت
الملكة البروتوكول وصاحت : « آه ، هذا معرفة قديمة ! » وهكذا
قربته من البلاط .

ولاحظت كل الحاشية ذلك ، حتى ان سفير السويد كرويتز
Cronitz اضطر الى ابلاغ ملكه جوستاف الثالث بما يجري :

« يجب على أن أسر الى جلالتيكم بأن الكونت الشاب دى
فيرسن موضع قبول حسن عند الملكة ، مما ترك ظللا عند الكثيرين .
واعترف بآنى لم أستطع أن أمنع نفسى من الظن أنها تميل اليه .
وقد شأهدت دلائل موثوقا بها تزيل كل شك عندي . وقد كان
سأوك الكونت الشاب فى هذا المقام يدعو للاعجاب بسبب تواضعه
وتحفظه ، ولأسيما بسبب الدور الذى آداه بسفره الى أمريكا ،
قبالابتعاد أبعد عنه كل خطر ، ولكن واضح أنه بحاجة الى صلافة
أشد مما تسمح به سنه للتغلب على هذا الاغراء . وفى الأيام الأخيرة
لم تستطع الملكة أن تحول بصرها عنه ، وكانت عينها دائما مبللتين
بالدموع وهى تشخص اليه . وأنا أرجو من جلالتيكم أن تحفظوا هذا
السر من أجلها ومن أجل والده السناتور فيرسن . وعندما عرف
البلاط بأمر سفره اغتبط كل المقربين . قالت له الدوقة فيتز جيمس
Fitz James : وماذا ؟ أهكذا يا سيدى تتغلى عن ثمرة انتصارك ؟ ،
فأجاب : لو اننى أحرزت انتصارا لما تخليت عن ثمرة . انى أسافر
حرا ، وللأسف دون أن يحزن أحد على سفرى » .

وعلى هذا فعلاقة فيرسن بمارى انطوانيت ، لا أقول علاقة
الفراش ، تعود الى ما بين عام ١٧٧٨ وعام ١٧٨٠ ، حين سافر
الكسبل فيرسن الى أمريكا بوصفه ياورا للجنرال روشامبو
Rochambeau غالبا ليتجنب مثل هذه العلاقة الخطرة . وفى ٢٢
أكتوبر ١٧٨١ ولدت مارى انطوانيت بنتا لقببت بالدوفينة ، أى
« ولية العهد » . وواضح من التواريخ ان الدوفينة كانت بنت
لويس السادس عشر حقا لأن تسعة أشهر تكفى للحمل . وفى
١٧٨٢ عاد فيرسن من أمريكا .

وفى ١٧٨٣ عدل فيرسن عن مشروع زواجه من أنسة سويدية .
وأرادت مارى انطوانيت استبقاء فيرسن فى بلاط فرساي . وسمح
الفرصة حين أراد الكونت دى سبار Do Sparre التنازل عن فيلقه

الأجنبي Le Royal Suédois في فرساي مقابل ١٠٠.٠٠٠ ر.
جنيه فرجا فيرسن أباه أن يقرضه هذا المبلغ . وتدخل ملك
السويد جوستاف الثالث شخصيا لدى لويس السادس عشر ان
يقبل فيرسن في خدمة الجيش الفرنسي . فاقتنع بذلك . بل ومنح
فيرسن هذا المبلغ وبالتالي خلصه من دينه .

وفي ٧ يونيو ١٧٨٤ كان لويس السادس عشر يصطاد في
غابة رامبوييه Rambouillet وتسلم رسالة عاجلة تقول ان ملك
السويد وصل فجأة الى فرساي . فقد كان يجوب أوروبا تحت
اسم مستعار . فعاد لويس السادس عشر الى فرساي على وجه
السرعة لاستقبال ضيفه . وقضيا ستة أسابيع في القصر والسمر
في البلاط الفرنسي الذي كان يتقن هذه الأشياء . من باليهات
وأوبرات ومسرحيات ورقص . وتوجت ماري انطوانيت كل ذلك
باحتيال كبير في قصر التريانون Triannon وصفه كتاب السير
بانه كان « ترنيمة للحب » . أي لاكسيل فيرسن . وعاد جوستاف
الثالث من بعدهما الى استوكهولم معه فيرسن والاشيية . وقبل
سفره قرر لويس السادس عشر لفيرسن بايعاز من ماري انطوانيت
معاشا سنويا قدره ٢٠.٠٠٠ جنيه . وهو معاش غير كاف للاتفاق
عن سعة في بلاط فرساي ولكنه كاف للعيشة الارستقراطية
المقتصدة . كاف لحفظ مركزه في البلاط الفرنسي .

وفي ٢٥ مارس ١٧٨٥ . أي بعد تسعة شهور . انجبت ماري
انطوانيت غلاما منحه لويس السادس عشر لقب دوق نورماندي . .
واشتبه بعض رجال البلاط في أن المولود ابن فيرسن . وبعد عدة
أسابيع من الولادة . خرجت الملكة الى باريس . وعند عودتها الى
فرساي كان استقبالها في برودة الجليد . وبكت الملكة في أحضان
زوجها قائلة : « لماذا ؟ ماذا فعلت لهم ؟ » .

وأغدق لويس السادس عشر العطف على ماري أنطوانيت ،
فاشتري لها قصرا في ضاحية سان كلو Saint-Cloud باسمها
من الدوق دورليان بمبلغ ستة ملايين جنيه ، وهو شيء غير مألوف
في تاريخ الملكية في فرنسا ، ان تكون للملكة ذمة مالية عقارية
مستقلة عن الملك خارج ما ورثته عن آلهة . وأثير الأمر باستنكار
في البرلمان الفرنسي . وكان البارسيون يتفكهون « بالنمساوية » .
وفي هذه المرحلة كانت ماري أنطوانيت تمثل دور روزين في
كوميديا « حلاق اشبيلية » لبورمارشييه . وكانت تصل الى لويس
السادس عشر منشورات تشهيرية بالملكة ، فكانت ماري أنطوانيت
تبكى وكان لويس السادس عشر يخفف عنها .

وكان جواهرجي التاج يدعى بوهر Bohmer . وفي ١٧٨٥
اشترت ماري أنطوانيت منه جواهر بغير علم زوجها : قرطا قيمته
٣٦٠.٠٠٠ جنيه واسورة قيمتها ٨٠٠.٠٠٠ جنيه ، فلما فاجأت
الملك بديونها قام بسدادها . وكان بوهر قبل ذلك بسنتين قد
جمد أكثر رأسماله في صناعة عقد ثمين من الماس ثمنه ١٦٠.٠٠٠
جنيه وقدم الفاتورة للملكة فأحرقتها ، واختفى بوهر حين رأى
مراقب عام مالية الحكومة في فرساي ، ولكنه ذهب الى المنزل الريفي
لدام كامبان Campan ليشرح لها حرج موقفه : انه سيفلس تماما
اذا لم تسدد الملكة ثمن العقد فورا . واندعشت مدام كامبان ، ففي
حدود علمها ان ماري أنطوانيت لم تشتتر مثل هذا العقد أبدا .

وأصر بوهر على أن الملكة اشترت العقد عن طريق
الكاردينال دي روهسان Cardinal de Rohan La Motte-Valois
حول موضوع العقد . قال الملك : أولا هذا ليس خط الملكة ، وثانيا
ان الملوك يوقعون باسمهم الأول فقط ، وصاح الوزير بريتاى
Breteuil : « اقبضوا على الكاردينال ! » قال الكاردينال مدافعا

عن نفسه : « اذن فقد كنت ضحية نصايين • اذن فسأدفع ثمن العقد من جيبى » •

وسيق الكاردينال الى الباستيل •

وكان بسطاء الناس يجلسون على حافة خنادق الباستيل ويغنون عن الكاردينال :

« أوليفا تقول انه ديك رومى

لاموت تقول انه نصاب ••

وهو شخصيا يقول انه ساذج ••

هللويا •• » •

« البابا جعل وجهه يحمر خجلا ، والملك والملكة سودا وجهه ، والبرلمان سوف يبيض وجهه • هللويا •• »

وبالفعل بيض البرلمان وجه الكاردينال روهان • وكان البرلمان اشبه شئ بمحكمة عليا مكونة من ٦٤ قاضيا ، وبعد الاستماع الى ظروف هذه القضية الغريبة ، صوت ٢٩ منهم فى جانب تبرئة الكاردينال و ١٩ فى جانب ادانته • أما مدام لاموت فالوا فحكم عليها حضوريا بالسجن المؤبد وبضربها ووشمها على ظهرها بالحديد المحمى ، وحكم على زوجها غيابيا - فقد فر الزوج الى انجلترا - بالسجن المؤبد أيضا •• وحكم على الساحر كاليوسترو Cagliostro بوصفه شريكا لهما فى النصب وأخل سبيل اوليفا Oliva التى لم يثبت عليها التواطؤ • وغضب الملك من حكم البرلمان فأمر الكاردينال بالاستقالة من منصبه وجدد اقامته فى ديريه ، أما غضب الملك من حكم البرلمان بتبرئة الكاردينال دى روهان فلأنه رأى انه يتضمن ادانة للملكة ماري انطوانيت •

وحتى ابريل ١٧٨٧ كانت ماري أنطوانيت مشغولة في إعداد غرفة مدفأة بجوار غرفتها في القصر الملكي . ولم يعد في إمكان لويس السادس عشر تجاهل غرام الملكة بالكونت فيرسن . وفي ١٧٨٨ وجد زفقاء الملك في الصييد الملك ينتحب على مجموعة من الخطابات التي تندد بالملكة الزانية .

وخارج مجموعة الزعماء السياسيين والشارع السياسي لم يكن هناك من يتحدث في وثوق عن علاقة ماري أنطوانيت بالكونت اكسيل دي فيرسن الا ثلاثة : هم بوناپرت الذي نجده في ١٧٩٩ ، أي ست سنوات بعد اعدام الملكة ، يرفض التفاوض مع الكونت هانز اكسيل دي فيرسن لأنه معروف بمعتقداته الملكية وبأنه كان « ينام » مع ملكة فرنسا ، ثم تليران وزير خارجية فرنسا ، ثم الوزير سنان بريست Saint-Priest الذي قال ان الملكة « عرفت كيف تجعل الملك يقبل علاقتها بالكونت فيرسن » كحقيقة مقررة . لقد كانت لفيرسن زيارات ليلية في قصر الثريانون وفي قصر سان كلو وفي قصر التويلري . أما الآن فلا أحد من كتاب السيريشك في ان ماري أنطوانيت كانت عشيقة اكسيل فيرسن وهناك خطاب بخط ماري أنطوانيت يخاطبه قائلا :

« الوداع ، يا أحب العاشقين وأحب المعشوقين » .

ما حقيقة قصة عقد الملكة ؟

بطلة هذه القصة امرأة مغامرة تدعى الكونتيسة جان دي لاموت فالوا Jeanne de la Motte-Valois كانت بنت نبيل مفلس وخادمة عاهرة . وكانت البنت وهي صغيرة تمشي في الشوارع حافية القدمين وفي منتهى القذارة ، وتتغذى على البطاطس المسروقة من الحقول وتحرس البقر لقاء كسرة من الخبز . وبعد موت الأب

اشتغلت الأم بالدعارة والبنت بالتسول . وحين كانت فى السابعة كانت تمر بمحضر الصدفة المركيزة دى بولا نفالييه Boulainvilliers فى مركبتها ، فسمعتها تقول : «حسنة لبنت يتيمة من عائلة فالوا Valois » فتوقفت المركيزة لتستطلع الخبر فعرفت المركيزة أن البنت بنت شرعية فعلا لنبيل سكير كان يشيع الرعب بين الفلاحين قبل وفاته اسمه جاك دى سان ريمى Jac ques de Saint-Rémy وكان الأب فعلا سليل اسرة فالوا الشهيرة ، اسرة لويس التاسع ملك فرنسا .

ورق قلب المركيزة لهذه البنت اليتيمة فربتها على نفقتها مع اختها الصغيرة ، حتى سن الرابعة عشرة . ثم أرسلتها لتتعلم الخياطة والغسيل والكى . واخيرا ادخلتها المركيزة ديرا لبنات النبلاء . ولكن جان الصغيرة لم يكن لديها استعداد لأن تكون راهبة ، فهربت من الدير وهى فى الثانية والعشرين من عمرها بتسلق سور الدير . وكانت فتاة جميلة ، فتزوجت من ضابط بوليس من نبلاء الدرجة الثانية اسمه نيكولاس دى لامونت Nicolas de Lamotte ولكن التسلق الاجتماعى كان فى طبعها ، فبحثت عن راعيتها الماركيزة بولانفيليه التى استقبلتها فى قصر الكاردينال دى روهان de Rohan وعن طريقه حصلت لزوجها على ترقية الى رتبة « كابتن » مع سداد ديونه . وسمى الكابتن دى لاموت نفسه الكونت دى لاموت ، بذلك أصبحت زوجته جان الكونتيسة دى لاموت فالوا .

وأصبح الريف ضيقا عليها فانتقل الى باريس وفى باريس عاشا فى بذخ بالاستدانة من المرابين بدعوى أن للكونتيسة املاكا مغتصبة أو مهمة تقدر بالملايين ورثتها عن اسرة فالوا ، وما عليها الا أن تتقدم لبلاط فرساي لاثبات حقها القانونى فيها حتى تتكلم الوثائق والمستندات .

وبالفعل ذهبت الى فرساي وانتظرت في صالون مدام اليزابيث،
أتحت الملك ، واصطنعت الاغماء ، فأعلن زوجها اسمها وقال بعين
دامعة ان الجوع الذي كابدت منه سلبية فالوا سنوات طويلة هو
سبب هذا الاغماء . فرفعوا معاشها من ٨٠٠ جنيه الى ١٥٠٠ جنيه
سنويا . واصطنعت الاغماء مرة ثانية في صالون الكونتيسة دارتوا ،
ثم مرة ثالثة في قاعة المرايا التي كان ينتظر ان تمر فيها الملكة .
ولكن الملكة لسوء حظ الكونتيسة لاموت فالوا لاتسمع عن هذه
الاغماءات .

وعاد الزوجان الى باريس ، وأخذا يرويان القصص العجيبة عن
حفاوة الملكة ماري أنطوانيت بهما وعطفها عليهما بعد ان عرفت انهما
من اقربائها ، وكذلك الكونتيسة دارتوا .

وجعل الطمع الكثيرين يقدمون لهما المال بأمل قضاء حاجاتهم
في البلاط . وأقامت دي لاموت فالوا في حيها بباريس بلاطا مصغرا ،
فاتخذت سكرتيرا أول يدعى ريتو دي فيليب Rétoux de Villette
كان عشيقها . واتخذت من قس يدعى لوت Lott سكرتيرا ثانيا .
واستأجرت الحوذية والخدم والحشم وأقامت في بيتها الحفلات لعلية
القوم .

وكان أكبر فريسة لهما الكاردينال دي روهان . كان حليمه
الكبير أن يصبح رئيس وزراء فرنسا ، ولا بد لهذا من رضا الملكة ،
والملكة لم تخاطبه بكلمة واحدة منذ ثمانى سنوات ، اذ يبدو انه كان
قد أساء اليها أيام ان كان سفيرا لبلاده في فيينا قبل زواجهما من
لويس السادس عشر ، أو ربما كان معترضا على الزواج . ثم ان
الكاردينال كان زير نساء من طراز عظيم ، ويقال انه كان يحمل شبقا
خاصا لماري أنطوانيت . لابد أولا من اصلاح ما كان قد فسد في
علاقتهما .

وهنا جاءت الكونتيسة دي لاموت فالوا وزوجها ببغى من رواد
حتى بورروايال اسمها نيكولا اوليفا Nicole d'oliva تشبه ماري
أنطوانيت ، وسموها « البارونة » لتلتقى بالكاردينال . وكانت
تدعى انها كانت تعمل فى بيت ازياء واستأجرت الكونتيسة دي
لاموت فالوا شقة فى فرساي والبست « البارونة » اوليفا بنفسها
ومشت بها فى الظلام الدامس عبر تراس القصر حتى « خميلة
فينوس » . وهنا رجع الكاردينال دي روهان أمام ماري أنطوانيت
المزيفة وقبل طرف ثوبها . وكانا قد لفتاها كلاما تقول فيه انها قد
نسيت اسماءه اليها ، وان فى امكانه أن يأمل خيرا

بعد ذلك بدأ الابتزاز : الملكة بحاجة الى ٥٠٠٠٠ جنيه ،
لتستر أسرة عريقة أخنى عليها الدهر . ودفع الكاردينال . ثم بدأت
عصابة النصابين تشتغل « على أكبر » ان جواهرجى القصر قد جمد
رأسماله فى عقد فريد من الماس ، وجلالة الملكة تريد شراء العقد
لزينتها ولكنها لا تريد لجلالة الملك أن يعرف بهذا الأمر قبل وفائها
بشئنه الباهظ ، وهو ٦٠٠٠٠ ر ١٦٠٠٠ جنيه ، تدفع خلال سنتين
مقسطة على ستة أقساط . هذه صفقة العمر ، ووافق الكاردينال على
أن يكون الوسيط فى الشراء ، وافق بشرط أن يرى توقيع الملكة على
عقد الشراء المؤرخ ٢٩ يناير ١٧٧٥ . ولم تكن هناك صعوبة مادام
« السكرتير الأول » للكونتيسة موجودا ، وهو استاذ فى التزوير ،
وفى أول فبراير ١٧٧٥ سلم بوهر العقد الماسى الفريد للكاردينال ،
وسلمه بيديه للكونتيسة دي لاموت فالوا ، وسلمته هى بدورها
أمام بصره الى « مندوب الملكة » ، ولم يكن هذا المندوب غير سكرتير
الكونتيسة الأول ، ريتو دي فيليت ، الذى كان الكاردينال يجهل
شخصه .

وحين حل موعد سداد القسط الأول بدأ بوهر يتردد على

قصر فرساي ليتقاضى ثمن ما باع . وانكرت الملكة انها تسلمت العقد أو تعرف شيئا عنه ، وحين قدمت لها فاتورة العقد ، أحرقتها في لحظة هياج شديد ، بل وزادت على ذلك قولها للكاردينال : « كيف تتصور انى ، أنا التى لم أوجه لك الخطاب منذ ثمانى سنوات ، أجعلك وسيطا فى شراء هذا العقد ؟ وادرك الكاردينال انه كان ضحية احتيال عظيم ، فأبدى استعداده لأن يقوم بسداد ثمن العقد تكفيرا عن غفلته . ولكن الملك الغاضب لم يكتف بهذه التسوية وأمر بالقبض على الكاردينال واحالته الى المحاكمة أمام البرلمان ، ان لم يكن بتهمة النصب فعلى الأقل بتهمة العيب فى الذات الملكية .

وبرأ البرلمان الكاردينال دى روهان وحكم على الكونتيسة دى لاموت فالوا بالسجن المؤبد مع ضربها علنا وكيها على ظهرها بالحديد المحمى بعلامة « V » ، وهى اختصار كلمة « سارقة » بالفرنسية . واجريت فى السجن مراسم الضرب والكى فى الساعة السابعة صباحا ، فسحبها من زنزانتها ١٤ سجانا وكأنهم يسحبون نمره كاسرة تطلق الصرخات الهستيرية وتصب اللعنات فى تشنج على الملك والكاردينال والبرلمان . وكشفوا ظهرها لكيها بالأسياخ فانقلب وجاء الكى على صدرها بين الشدين .

وتعاطف الناس مع دى لاموت فالوا فافتتح الدوق لورليسان اكتبابا باسمها لمساعدتها ، وكانت عربات النبلاء والنبيلات تقف أمام باب السجن تحمل الهدايا الى السجينة حتى اخلص أصدقاء الملكة ، وهى البرنسييسة دى لامبال كانت تزورها فى السجن ، قيل بتوجيه من مارى أنطوانيت ، لأن الكونتيسة دى لاموت فالوا لم تذكر عنها فى المحاكمة ما يشينها . وبعد أساييس فتح مجهولون باب زنزانتها ليلا ، فهربت دى لاموت فالوا الى انجلترا حيث نشرت مذكراتها عن فضائح قصر فرساي وزعمت ان الملكة بنفسها تسلمت العقد من الكاردينال دى روهان ، ولكنها كذبت أثناء المحاكمة لتبرىء

الملكة لما كان بينهما من علاقات سحاق . وبغض النظر عن علاقات السحاق ، فقد كان هذا رأى المفكر السياسى والمؤرخ لويس بلان Louis Blanc : ان الملكة كانت مشاركة فى عملية النصب بدليل احراقها لفاتورة العقد التى قدمها لها بوهمر .

وقد نشرت الكونتيسة دى لاموت فالوا أثناء اقامتها فى لندن سجلا مفصلا لغراميات الملكة ماري أنطوايت فيه على الأقل ٣٤ اسما لأشخاص عرفتهم الملكة معرفة جنسية الى جانب الكونت اكسيل فيرسن ، عشيقها المعروف ، منهم الأميرة دى لامبال والدوقة دى بولينك والكونت دارتوا ، أخو الملك الأصغر وخادمه الخاص وخدم وممثلون ورجال ونساء بلاط ، مما يصعب سرده الا على لسان شخص عارف بأسرار البلاط الفرنسى قبيل الثورة الفرنسية أو قادر على التلقيق الجهنمى .

وفى ١٧٩١ كانت سيرة ماري أنطوانيت الجنسية ملكا للخاص والعام فى شوارع باريس ونواديها السياسية ، فأرادت النوادى السياسية استقدام الكونتيسة دى لاموت فالوا من لندن لتدلى بأقوالها أمام محكمة الثورة بوصفها شاهدة ، ولكن لوثة من الجنون أصابتها فانتحرت بالقاء نفسها من النافذة . وأسدل موتها المفاجئ ستارا على الموضوع .

وفى أثناء محاكمة ماري أنطوانيت احتجزت فى سجن الكونسيير جيبى بعد اعدام لويس السادس عشر وحاول هيبير استغلال هذه الفضائح فى قضيتها فلم ينجح الا فى استدراج العطف عليها بسبب احتقارها اياه ، فهذه الأمور الخاصة بصعب اثباتها لأنها تجرى عادة داخل أربعة جدران وبين قوم مدربين فى المحافظة على المظاهر . وكان مثل الاتهام فوكيه تانفيل Fouquier-Tinville المدعى العام لكوميون

باريس وكان رئيس المحكمة هيرمان Herman وكان بين
المحلفين ممثلون لجميع المهن والحرف : كان بينهم ماركيز سابق
وجراح وبائع ليمون وموسيقي ومطبخي وصانع باروكات ونجار
وقس مشلوح ، وبعض أعضاء لجنة الانقاذ الوطني وجرت محاولتان
لتهريبها من السجن مقابل مبالغ طائلة من المال ورد فيهما اسم
دانتون واسم هيبير ، ولكن يقظة الحرس أفسدتهما .

ولم يمكن توجيه اتهام محدد الى ماري أنطوانيت فرفع رئيس
المحكمة رأسه وقال : المطلوب من المحلفين ان يجيبوا عليه هو سؤال
واحد هو : هل هم مقتنعون بأن الملكة السابقة كانت على صلة
بالخارج وانها كانت تعمل على انتصار جيوش الأعداء وعلى اشغال
الفتنة داخل البلاد ؟

وهكذا طرح الاتهام على وجهه السياسى الذى لا تبرئه منه .

وبعد المخلوة المعهودة للمداولة اجمع المحلفون على ان الملكة
مذنبة .

وصدر الحكم باعدامها فسيقت الى المقصلة ٠٠ قيل وسارت
الى الموت رابطة الجاش كما تسير الملكات ٠٠٠

١٧ - جان بول مارا

Jean-Paul Marat (١٧٤٣ - ١٧٩٣) ولد مارا في سويسرا في بلدة بـودري Baudry من أعمال مقاطعة نيوشاتل Neuchâtel لأب كان قسا « مشلوحا » من سردينيا ، واستقر في سويسرا ، وتحول الى العقيدة الكالفنية ، فطرد من سلك الكهنوت الكاثوليكي ، واشتغل بالمهن الحرة وبالصناعات اليدوية . وهذا يدل على أن القلق الروحي في عائلة مارا بدأ بلجيل الأب . وهكذا نشأ جان بول مارا ابنا من أبناء البورجوازية الصغيرة أو البورجوازية المتوسطة في كلية نيوشاتيل ، أي « مدرستها الثانوية » .

وبدأ جان بول مارا حياته العملية في سن السادسة عشرة حين انتقل الى بوردو معلما لأولاد تاجر سويسري يدعى نيراك

● نشرت بجريدة الأهرام

بتاريخ ١٩٩٠/١/٦ .

الثورة الفرنسية - ٢٠٩

Nierac ذى خلفية سويسرية وديانة كالفنية ، وظل معلما فى
بورجو سنتين . ثم انتقل الى باريس فى ١٧٦٢ حتى ١٧٦٥ ، وهناك
درس الطب دون أن يحصل على دبلوم . وفى نهاية هذه المدة زاول
مهنة الطب .

ولم يكن يجد فى الطب ما يستغرقه ، بل جذبتة الدراسة
الفلسفية ، فاجذب الى روسو Rousseau ومونتسيكو Montesquieu
أكثر مما انجذب الى جماعة الماديين : فولتير Voltaire وديدرو
Diderot ودالمبير D'Alembert وهافتيوس Helvetius
وأقام جان بول مارا إحدى عشرة سنة متصلة بين انجلترا واسكتلندا،
من ١٧٦٥ الى ١٧٧٦ ، وألف فى هذه الأثناء كتابه الهام « أغلال
العبودية » Les Chaines de l'esclavage وحصل من جامعة نيوكاسل
على دبلوم فى الطب فى ١٧٧٥ رغم انه كان يمارس الطب والطب
البيطرى بين ١٧٧٠ و ١٧٧٢ . ثم انتقل الى لندن من ١٧٧٢ الى
١٧٧٦ . وفى هذه الفترة اجتذبه الأدب فكتب رواية « مغامرات
الكونت بوتوفسكى » Les Aventures du Jeune Comte
Potowski « ١٧٧٠ - ١٧٧٢ » فى قالب الرسائل على طريقة
« هاويز الجديدة » La Nouvelle Heloise التى اكتشفت بين أوراق
مارا ولم تنشر الا عام ١٨٤٨ .

وفى ١٧٧٢ كتب مارا بحثا هو « مقال عن روح الانسان » ،
وهو البحث الذى أعيدت صياغته ١٧٧٣ تحت عنوان : « مقال فلسفى
عن الانسان » ، ويبدو انه نفس الكتاب الذى ترجم الى الفرنسية
وقراه الفرنسيون عام ١٧٧٦ تحت عنوان : « فى الانسان : المبادئ
والقوانين التى تحكم تأثير الروح فى الجسد وتأثير الجسد فى الروح »
وهو كتاب معاد لمادية الفيلسوف كوندياك Condillac والفيلسوف
لامترى La Mettrie لأنه يؤكد ازدواجية الجسد والروح .

وظهر « اغلال العبودية » بالانجليزية أولا في ١٧٧٤ تحت عنوان *The Chains Of Slavery* وبحسب ما يقول مارا فان الحكومة الانجليزية قاومت سرا صدور هذا الكتاب . وفي ١٧٧٦ غادر مارا انجلترا الى فرنسا بعد ان اكتشف نفسه وموهبته في « اغلال العبودية » خمسة عشر عاما قبل اندلاع الثورة الفرنسية . لقد اكتشف جان بول مارا ضرورة الثورة في أوروبا على النظام الاقطاعي والملكية المستبدة .

وبعد عودة مارا الى باريس فتح فيها عيادة عام ١٧٧٦ . وفي ٢٤ يونيو ١٧٧٧ عين طبيبا للحرس الخاص بالكونت دارتوا *Conte d'Artois* وهي وظيفة جيدة مكنته من التعارف على الزبائن النبلاء . وصور هذه الفترة تصورا مزدهرا معنيا بمظهره ، وقد استدر هذا النجاح الاجتماعي على الأقل حتى ١٧٨٤ ، حين اصاب بمرض جلدي لازمه بقية حياته « ٩ سنوات » . وفي ١٧٨٤ فقد وظيفته عند الكونت دارتوا . وفي هذه الأثناء كان مارا قد أنشأ لنفسه معبلا لعلم الفيزياء . وكانت له نظريات في طبيعة النار ، فتصور ان هناك سائللا مشتعلا ، ولكن لافوازييه *Lavoisier* اثبت عدم صحة هذا الفرض . كذلك كانت لمارا نظريات في الضوء ضد نظريات نيوتن *Newton* ولكن اكتشافه نجح على الأقل في علاج بعض الأمراض بالصدمات الكهربائية ، وهو ما يعرف بالكهرباء الطبية . ودخل مارا في معارك مع أكاديمية العلوم .

وفي ١٧٨٠ نشر له نيوشاتل كتاب « مشروع التشريعات الجنائية » ، وطهرته الرقابة من صفحات عديدة أيام الملكية فوضعت الطبعة كلها في المكبس . ولم يظهر « مشروع التشريعات الجنائية » مستقلا الا في زمن الثورة ، ولكن بريسو *Brissot* ، صديق مارا

وتلميذه فى ذلك الوقت نجح فى ان يعيد نشر « التشريعات الجنائية »
فى المجلد الخامس من « المكتبة الفلسفية » .

وحين فقد مارا عمله عند الكونت دارتوا أخذ يصنع اجهزة
الفيزياء ويبيعها ، وفكر فى العودة الى انجلترا . وحين جاءت الثورة
كان مارا رجلا متعبا .

وقد نجا مارا من الايمان بفلسفة « المستبد المستنير » التى
نصبت فخاخا لكثير من المثقفين فى القرن الثامن عشر فى عصر التنوير
قبل الثورة الفرنسية : ففولتير مجده فردريك الثانى عاهل بروسيا ،
وديدرو مجده كاثارين الثانية امبراطورة روسيا . نجا مارا من الخرافة
الانجليزية التى كانت شائعة فى دوائر « الفلاسفة » وكان عليه ان
يواجه حكم روبرت والبول Robert Walpole رئيس وزراء انجلترا
الذى اثر عنه انه كان يقول عن أعضاء برلمانه كلما جاء ذكر أحدهم
بأنه لاسبيل الى شرائه . « ان لكل رجل ثمنه » .

فبدلا من الحرية والديمقراطية رأى مارا الرشوة والفساد
والدوائر الانتخابية فى المزاد . رأى مارا يؤس الطبقة العاملة
الانجليزية فى الثورة الصناعية « الويركهلوس » ، وتكونت لديه
فكرة غامضة عن « الشعب » وهو انه مرادف بوجه عام « للطبقة
العاملة » ، او مرادف بوجه عام لطبقة « الصان كيلوت » .

وقد أسعفه ايمانه بازدواجية الوجود بالايمان بازدواجية
الانسان من روح ومادة الى الايمان بوجود الله ، فكان يقول ان
« الاتحاد ترف ارسنقراطى » ، وكان يقول ان « الايمان بالفضيلة
ايمان ملازم للشعب » . وكان يرى ان البورجوازية العليا هى طبقة
« المضاربين » Speculateurs وطبقة « الممولين » Financiers
وطبقة « بنى السفن » Armateurs وطبقة « كبار النجار »
gros commercants فوق فى تناقض الجمع بين المثل الأعلى

الاسبرطى الذى كان المثل الأعلى للصنان كيلوت فى باريس والمثل
الأعلى المايبرالى المعادى للاحتكارات الاقطاعية .

وفى هذا الزمان الاجتماعى يحتل الدين مكانا هاما فى مساندة
الطغيان : ومارا تاتر على الأخلاق المسيحية لانها تعلم التجنوع ،
والدين عنده اذن اداة من ادوات الطغيان . والثورة عنده ليست
مخرجا من مازق ولكن جزء من عملية تجديد الحياة السياسية . ولكن
ممكن الخطر فيها هى سرعة تصديق الجماهير غير المنظمة وجريها
وراء الأوهام ثم التفتت بين الشيع والافراط فى الثقة ،

و « مشروع التشريعات الجنائية » مستوحى أيضا من جان جاك
روسو ، فهو يقوم على الموازنة بين انسان الطبيعة وانسان المجتمع .
والقوانين هى ادوات قمع الجماهير لحساب القلة المتحكمة فى المجتمع .
وهو كتاب ضد الملكية الخاصة التى يصفها مارا بأنها شر لا بد منه .
وهو لم يزد بالتأهيم كحل لهذه التناقضات الاجتماعية ، ولكن نادى
بالضمان الاجتماعى .

أصدر مارا أول عدد من « صديق الشعب Ami du Peuple »
فى ١٦ سبتمبر ١٧٨٩ ، ولم تكن جريدة يومية لنشر الأخبار ولكن
كانت جريدة يومية للتعايل السياسى ، ولم تكن أوسع الصحف
انتشارا ، فقد كانت توزع ٢٠٠٠ نسخة يوميا ، وكل نسخة كان
يقرأها ١٠ قراء . وكانت جريدة ميرابو « ثورات باريس » توزع
١٠٠٠ نسخة . وكانت جريدة هيبير Hebert « الأب دوشين »
L. Père Duchesne أوسع انتشارا من « صديق الشعب »
واشد التهابا بها ، ولكن « صديق الشعب » كان تأثيرها أعمق فى
الصنان كيلوت .

وكان مارا يحدد النغمة لصحف اليسار مثل جريدة « ثورات
فرنسا والأرض الواطئة » التى كان يحرقها كاميل ديمولان Camille

Desmoulins وكانت « صديق الشعب » عبارة عن فرخ مطبق على ٨ صفحات تشتمل على افتتاحية وبريد القراء ومتابعة للأخبار بالتحليلات السياسية . وكان مارا يحرق جريدته من أول سطر الى آخر سطر فيها . وكانت « صديق الشعب » تتهم بالدعوة الى العنف ، ولكن كان العنف في المضمون وليس في الاسلوب . وقد استمرت الجريدة أربع سنوات ، أى حتى اغتيال مارا في ١٣ يوليو ١٧٩٣ ، فكانت اشبه شيء بمونولوج مارا عن « ثورته » الذى استغرق في القائه أربع سنوات .

وفى البداية كان مارا يتلقى بعض الاعلانات لاصدار جريدته من بعض التقدميين الانجليز ، وهذا سبب سريان الاشاعة عنه انه كان يتقاضى العون من الخارج ، ثم اقتصر فى الانفاق على « صديق الشعب » مما كان يتلقاه من نادى الكوردلييه من الاعانات .

كان مارا يحتمى بنادى الكوردلييه الذى كان يرأسه دانتون والبوليس يطارده ، وكان يهاجم صنمين : الأول هو ميرابو والثانى ديم لافاييت ، ثم فى أواخر ١٧٨٩ هاجم نكر وزير المالية ، واختفى فى الكوردلييه . ولما اشتد الحصار عليه سافر الى لندن حتى مايو ١٧٩٠ . وكان بعيد النظر فى كل ما يكتب : كان يتنبأ بالأحداث وكان له جواسيس فى القصر الملكى أو فى الجمعية الوطنية أو فى بلدية باريس .

وكان أول منشور له فى ١٧٨٨ يحمل عنوان « قربان للوطن » ، وتلته منشورات سياسية أخرى عن الدستور وحقوق الانسان وعبوب نظام الحكم فى بريطانيا . ثم راه الناس يقرأ بصوت عال فى نواصى الشوارع صفحات من « العقد الاجتماعى » لروسو . وفى أوئل سبتمبر ١٧٨٩ اصدر جريدته « صديق الشعب » وجعل شعارها : Vitam Impendite وهو من روسو . أو فلنقل

إن عين الطبيب فيه كانت ترى عللا في كل شيء ، فقد كان يسمى نفسه اختصاصيا في باثولوجيا السياسة . وكانت لديه روضة دائمة :

ut redeat aniseris, abest Fortune spendis (let us tax the rich to subsidise the poor).

كانت مدام رولان تقول ان مارا عندما كان طبيبا في البلاط كان يحيط نفسه بترف عظيم ، وعندما اغتيل كان يعصب رأسه بمنديل تشبها بالصان كيلوت ، وبجرد مخلفاته انحصرت تركته في عدد ٢ دولاب مطبخ ، ايتاجيرة ، مكتب ، شيفونية ، تسريحة مطعمة ، عدد ٢ آلة كهربائية ، سرير حديد ، بينما كان هناك ٣ أجهزة طباعة وبعض الأجهزة المساعدة . فلا مجال للحديث عن الترف ، ولكن عن الراحة المعقولة .

وكانت تقيم معه وقت اغتياله شابة تدعى سيمون ايفرارد Simone Evrard كان قد تزوجها على طريقة روسو . وكانت على حظ من الجمال ، جيدة التعليم ، وذكية ، وجهت ثروتها الى نشر أعماله الفكرية ووقفت حياتها للسهر على صحته . ويبدو ان مارا كان مثال الوداعة في حياته الخاصة ، وان « وحشية » الثوار كانت تنتهي بمجرد انتهاء جلسات المؤتمر الوطني أو فراغهم من عملهم اليومي . وكان مارا أصفر الوجه مثل ميرابو حين تدهور ابصاره في نهاية حياته وتهدلت عضلات وجهه . ولا يدانيه الا شحوب سان جوست و « خضرة البحر » في محيا روبسبير ، حالات من المرض الجسدي سببها طول ساعات العمل وقلة ساعات النوم ، وربما انعكاسات من القلق الداخلي .

ظلت شعبية مارا واسعة بين الجماهير . ففي بداية ابريل ١٧٩٣ قاد الحملة على الجيرونديين بسبب خيانة ديموريتيز ، ولهذا حاول الجيرونديون حماقة ان يحاكموه أمام محكمة الثورة فبراته

محكمة الثورة وأخرج بانتصار عظيم . قال فى ١٩ مايو : « اقترح ان يصدر المؤتمر الوطنى قرارا بالحرية الكاملة فى التعبير عن الراى حتى أرسل الى المقصلة الحزب الذى صوت فى جانب محاكمتى » .

ومارا هو الذى نظم وقاد الثورة الشعبية من ٣١ مايو الى ٢ يونيو ١٧٩٣ ، وهو الذى صعد بنفسه الى أعلى البرج فى الهوتيل دى فيل « دار البلدية » فى أول يونيو ودق الناقوس بيديه . وتصور الناس يوم مقتله ان اغتياله كان جزءا من مؤامرة وضعها الجيروندي لتصفية اليعاقبة تصفية جسدية فسيق الجيروندي الى المقصلة بعد ثلاثة أشهر .

وبعد اغتيال مارا زادت شعبيته ، فنظمت فيه القصائد وألفت المسرحيات ولحنت الترانيم وعمد أطفال باسم برتوس مارا ، وصان كلوت مارا ، ومارا لامونتاني (« الجبل » ، أى على اسم حزب الجبل) . وسميت الشوارع والميادين باسمه ، واتخذت اسمه ٣٧ مدينة وبلدة وتلامذة المدارس (١٠ سنوات الى ١٢ سنة) كانوا يغنون : « عد الينا يامارا من دار الخلود لتقود شعبا يعبدك » وفى بعض المدارس تعلم التلاميذ أن يرسموا علامة الصليب كلما ذكر اسم مارا وأقيم له تمثال نصفى مكان تمثال العذراء . وكلف الفنان دافيد بالاشراف على شعائر الاحتفال بدفن مارا ، فأعلن : « ان قبر مارا سيكون على البساطة التى تناسب زعيما جمهوريا غير قابل للفساد ، مات فى فقر نبيل . انه كان يرشد الناس من تحت الأرض (من قبو النبيذ المشهور) الى من هم أعداؤهم ومن أصدقاؤهم . فليسترح هناك فى مثواه الأخير » .

وكلف المثال مارتان باقامة مقبرة على هيئة قبو للنبيذ فى نادى الكوردلييه تظله أشجار حديقة النادى ، ومدخله باب حديدى،

وفوق المدخل أقيم اناء من الرخاء يضم قلب مارا ونقشت عبارة :
« هنا يرقد مارا صديق الشعب ، قتله أعداء الشعب » .

وبدأ الجناز في الساعة الخامسة مساء وانتهى في منتصف الليل . وكانت تحف بالنعش عذارى يلبسن ملابس بيضاء وكأنهن في عرس ، وصبية يحملون أغصان السرو . ومن ورائهم سائر أعضاء المؤتمر الوطنى والنوادر السياسية ثم الجمهور . وبعد الدفن (وكل قسم أمام القبر) ألقى رئيس كل حى كلمة تابين . وبعد يومين طاف موكب آخر بالشوارع حاملا الاناء الرخامى المحتوى على قلب مارا ، ونقله من حديقة الكوردلييه الى قاعة الاجتماعات فى ذلك النادر حيث علق فى سقف القاعة .

وبعد سقوط روبسبير عندما كان كل الأحياء من عهد الارهاب يرتعدون فرقا ، كانت شعبية مارا لاتزال كافية لتمكنه من حيازة مكان فى البانتيون . وفى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٤ حمل قسم مارا « المارسيلين سابقا » جثمانه الى مدخل المؤتمر الوطنى . وفى ٨ صباحا من اليوم التالى تبعت كل الأقسام العربة الجنائزية الى البانتيون بينما خرج جثمان ميرابو « الملكى » من باب جانبى وألقى رئيس المؤتمر الوطنى كلمة تابين .

ولكن تقديس مارا لم يدم طويلا ، فبعد أربعة أشهر بالضبط احرقت فى فناء نادى اليعاقبة صورة دمية لمارا ، وألقى الرماد فى مجارى مونمارتر التى كانت قد غيرت اسمها الى « مونمارا » واختفى قلب مارا من نادى الكوردلييه . وفى ٨ فبراير ١٧٩٥ لم يطلب أحد من أصدقائه رميمه فصرح قسم البانتيون بدفن رميم مارا فى أقرب جبانة .

قال نابوليون : « أنا أحب مارا ، فهو مخلص . انه دائما يقول ما يؤمن به » .

كان مارا لا يخفى ميوله الدكتاتورية ، ومنذ ١٠ أغسطس ١٧٩٢ وهو ينادى بتأليف حكومة ثلاثية تتركز في يدها كل السلطات (Triumvirat) على غراز ما كان يفعل الرومان . وبعد أقل من عام طعنته فتاة ارسستقراطية تدعى شرلوت كورداي Charlotte Corday في ١٣ يوليو ١٧٩٣ ، كانت تتردد على النواب الجيرونديين في مدينة « كان » Caen وتقول انها قررت ان « تقتل لا رجلا بل وحشا كاسرا كان يلتهم كل الفرنسيين » . واسلمت شرلوت كورداي على المقصلة في ١٧ يوليو ١٧٩٣ ، وكان عمرها خمسة وعشرين عاما .

في يوم الاحد ٧ يوليو ١٧٩٣ اجتمع نحو ثلاثين مندوبا على العشب الشاسع خارج مدينة كان الكالفادوس ، وكان النائب بتيون يعتقد ان حزنها آت من فراق فارس اسلامها ، وكان يداعبها بقوله : « لاشك انك حزينة لانه سيرحل ا » .

وكانت قد قبلت في سن الثالثة عشرة في « دير السيدات » وهو دير كانت قد انشأته ماتيلا زوجة وليم الفاتح ولذا بقي عليه صلب الاتباع . وكانت في بداية حياتها في الدير تجد السلوى في حياة العزلة ، ولاسيما بين صاحبتين في سنهما من أصل نبيل فقير مثلها . وقد بقي لها من صباها صوت العذراء الصغيرة فكان هذا سمة مشتركة بينها وبين جان دارك التي لم ينضج صوتها أبدا كصوت امرأة كاملة النضوج بل ظل على بكارته فضى الرنين ، وكانت شرلوت كورداي على ذلك تعيش في عالم غريب بين أبطال بلوتارك الذين اشتروا الخلود بمواجهة الموت .

ووزعت كتبها قبل رحيلها الى باريس ، كل كتبها فيما خلا مجلدا واحدا من بلوتارك . هذا المجلد أخذته معها الى باريس حين رحلت اليها في عربة عامة . وقبل سفرها لم تنس أن تمر على

والدها في بلدة ارجنتان ليعطيها بركته ، ومن ارجنتان ركبت المركبة العامة . وكان معها في المركبة العامة بعض أنصار حزب الجبل من غلاة المعجبين بمسارا . وبدأوا بالتودد اليها الى حد طلب يدها . فادعت النوم ثم ابتسمت ثم تشاغلت بمداعبة أحد الأطفال .

ووصلت باريس يوم الخميس ١١ يوليو ١٧٩٣ نحو الظهر ونزلت في شارع الفيه دوجستان رقم ١٧ في « هوتيل دي لايروفيدانس » Hotel de la Providence (فندق العناية الالهية) ونامت في الساعة الخامسة مساء ، نامت الى الصباح نوم الخلى . وفي الصباح انطلقت بخطاب النائب باربارو Barbaroux الى النائب ديبريه Duperret وهو عذرهما الرسمي في زيارة باريس للتوسط لصديقة لها من المهاجرات في استكمال أوراق هجرتها من وزارة الداخلية . ووجدت شارلوت كورداي النائب في المؤتمر الوطني . فعادت ادراجها الى فندقها وعكفت على قراءة « سير » بلوتارك حتى المساء . وفي المساء زارت ديبريه فوجدته يتعشى مع أسرته ، ووعدها بأن يصطحبها في اليوم التالي الى وزير الداخلية . قالت شارلوت كورداي للنائب ديبريه ، وقد أحسست بالندم لأنها أقدمته على غير قصد منها مع أسرته في مجازفة لم يكن ينتظرها بلهجة استعطاف : « سافر الى كان قبل مساء الغد ، أهرب ، صدقني » . وسواء أكان ديبريه يعرف أو لا يعرف انه مطلوب ، فقد بر بوعده ، واصطحب شارلوت كورداي في الصباح التالي الى قلب مكتب وزير الداخلية الذي أفهمه في النهاية انه كان مثله مشبوها سياسيا وبالتالي فهو لا يستطيع ان يساعد الأنسة المهاجرة بشيء .

ولم تعد الى فندقها قبل ان تمر على « الباليه رويال » في صحبة ديبريه ، ونزلت من العربة بعد أن أشار لها ديبريه الى

« الباليه روابال • ودخلت محلا اشترت منه سكيدا باربعين سنتيما ذا مقبض من الابنوس ، وأخفته في صدرها •

وكان مشروعها الأول الذي جاءت به من « كان » يقوم على اغتيال مارا يوم ١٤ يوليو في الشان دي مارس أمام الجماهير • فلما عرفت ان احتفال ١٤ يوليو تأجل ، عدلت خطتها بخطة أخرى وهي ان تغتاله في أثناء مزاولته لعمله اليومي مع حزب الجبل في المؤتمر الوطني ، ولكنها عرفت ان مارا كان مريضا وانه انقطع عن التردد على المؤتمر الوطني •

لم يبق اذن الا تنفيذ المخطط بزيارته في داره والتوسل بأية وسيلة للتسلل الى عرينه وسط ذويه ، ولو بكذبة صارخة • وهكذا كتبت شرلوت كورداي لمارا خطابا لم تتلق عليه ردا في نفس اليوم ، فاضطرت ان تكتب خطابا آخر كذبت فيه ولكنها لم ترسله : قالت انها شقية ومضطهدة وأنها ستفضي اليه بأسرار خطيرة •

وفي مساء ١٣ يوليو ١٧٩٣ خرجت من فندقها وركبت مركبة عامة عند « ميدان الانتصارات » وعبرت الكوبري الجديد Lepont Neuf ونزلت عند باب مارا شارع الكوردلييه رقم ٢٠ « بأرقام عصر ميشليه ١٨ شارع مدرسة الطب في الحي اللاتيني » وهو البيت الكبير السابق على البرج عند ناصية الشارع • وكان مارا يسكن في أكثر الطوابق عتمة ، وهو الطابق الأول ، وهو طابق يناسب صحفيا مثله ونائبا شعبيا من نواب الشعب ، بحيث يكون مسرحا لتحركات الحمالين ورجال الاعلانات والبروفات • والغرف المعتمة حقا ، وهي المطلة على الفناء الداخلي ، بها أثاث متسخ قديم

يرحى بأنه مسكن عامل . فاذا أنت توغلت قليلا وجدت صالونا أنيقا يطل على الشارع مكسوسا بالحرير الأزرق والأبيض وتتبعه ستائر حريرية جميلة ومعها فازات من الصينى عادة تحليها الزهور .

كان واضحا ان هذا كان مسكن سيدة فاضلة نابت عنه فى كل ما يخص شئون الدنيا ، وكان هذا سر حياة مارا الذى أفشته أخته البرتين : « لم يكن مارا يقيم للمال وزنا . وانما كانت هناك امرأة سماية أثر فيها موقفه حين كان يهرب من قبو الى قبو فكانت تخفى لديها « صديق الشعب » فسلمته مالهسا وضحت من أجله براحتها » .

وقد وجدوا بين أوراق مارا وعدا بأن يتزوج من كاثارين ، سيمون « ايفرار Simone Eyrard » وكان من قبل قد تزوجها على طريقة جان جاك روسو ، أى تزوجها أمام الشمس وأمام الطبيعة !

واجتازت شرلوت كوردای الحاجز الأول عند بوابة الدار دون توقف ، رغم انهم نادوا عليها لمنعها من الدخول . وسمع مارا الجلبة خارج حمامه فأمر بأن يسمحوا لها بالدخول . وكان جسمه مغطى بملاءة متسخة ، وكان يستخدم لوحا من خشب وضعه بعرض البانيو ليكتب عليه ، ولم يظهر من جسمه الا رأسه المعصوب بمنديل أو بفيوطة وذراعه اليمنى وكتفاه ، أما بقية جسده فكان مغطى بالملاءة المتسخة ، وكان جسده غارقا فى الخل لتخفيف الالتهاب الجلدى الذى كان مارا يعانى منه .

لقد وعدته بأنباء من نورماندى ، ولاسيما أسماء النبواب الجيرونند اللاجئين فى كان . وطلب الأسماء فسردها عليه ، وهو يكتب . ولما فرغ من الكتابة قال : « هذا طيب ! فى خلال ثمانية أيام سيذهبون الى الجيلوتين » .

وكان هذا هو حافزها الحقيقي لقتله . واستلت السكين الذي كانت قد أخفته في طيات صدرها . وأغمדתه في صدر مارا ، فلم تترك له الا لحظة يستغيث فيها سيمون ايفرار ، قائلا : « يا صديقتي العزيزة ! » ثم أسلم الروح وهو في بركة من دماء . لاشك ان شرلوت كورداي قد تدربت على ذلك مائة مرة ومرة ، فقد كانت عملية جراحة من الدرجة الأولى . والا فما معنى ان يكرر علينا ميشليه أكثر من مرة ان نور النهار كان خافتا خافتا ؟

ماتت شرلوت كورداي على المقصلة في ١٩ يوليو ١٧٩٣ .

١٨ - جورج دانتون

أطلقوا على جورج دانتون عدة أسماء من البلطجي الملكي الى جان دارك النظام الجمهوري . كان صاحب عقلية عملية فلم يشارك في وضع تصور لما سوف يكون عليه الانسان الجمهوري الجديد ، كما أنه لم يشارك في بناء تصور لفلسفة الثورة مثلما فعل روبسبير وسان جوست ومارا .

ولم يكن لدى دانتون وسائل قدرة ووسائل نظيفة لتحقيق غاياته ، بل تجاوز الأفكار المألوفة عن الخير والشر ، وكان رأى لامارتين فيه في كتابه « تاريخ الجيروندي » أنه رجل مجرد من الشرف أو المبادئ أحب الديموقراطية لما تعطيه له الديموقراطية من انفعالات . . . وكان يعبد القوة والقوة وحدها ، وكان البلاط يعرف تماما ثمن ضميره فما كان عليه الا أن يفتح فمه ليتكدر فيه الذهب .

● نشرت بجريدة الامم

بتاريخ ١٩٩٠/١/٢٠ .

واتخذت رذائله أبعادا بطولية وكان ذكاؤه عبقريا . وكانت فيه من الناحية الأخلاقية ملامح المآثر الرومانى كاتلينا » .

أما رأى ميشيليه فيه فهو انه كان يمثل فى مرحلة الثورة عام ١٧٩٢ الوطنية الفرنسية .

ولد دانتون فى أرسى - سير - أوب وهى مجسرد قرية فى مقاطعة شمبانيا أى أنه يشترك مع أكثر الثوار فى أصوله الريفية وفى خلفية الطبقة المتوسطة المستريحة التى كان أغلبيتهم ينتمون اليها . وكان أقرباؤه كثيرين فكان له عشرة اخوة . وتزوج أبوه مرتين . وليسست لدينا وثائق عن صباه أو شبابه الباكر الا شهادات زملائه فى الدراسة الثانوية مثل بيون الذى ذكر عنه أنه عندما كان صبيا حاول أن يرضع اللبن من ضرع بقرة فرفضه عجلها رفضة تركت به عاهة مستدامة فى أنفه الأفطس . وكان بوجهه نمش واضح من آثار جدري قديم . فاضاف ذلك تشويه الخلقة المأثور عن دانتون .

ومن الروايات التى حكيت عنه أنه قطع نحو مائة كياومتر من قريته أرسى حتى كاتدرائية رانس حيث جرت العادة أن يتزوج ملوك فرنسا منذ جان دارك ليشهد بشخصه تتويج لويس السادس عشر ويصفه على الطبيعة وذلك طمعا فى الحصول على جائزة لم يحصل عليها كما كان يرجو ولكنه أفلت من عقاب ادارة المدرسة له . كان ذلك فى نهاية مرحلة الدراسة الثانوية .

أما مرحلة الدراسة الجامعية فقد قضاه دانتون فى رانس قبل انتقاله نهائيا فى باريس ليحرب حظه فى مهنة « مستشار ملكى » يترافع فى فرساي عن حقوق النبلاء المغموطة فى البلاط

الملكى ، ولكى يتمكن من ذلك اشترى مكتب مجسم من بلدياته .
وانفق جزءا من ماله على الزواج .

تخرج دانتون فى جامعة رانيس عام ١٧٨٤ وهو فى السادسة والعشرين من عمره واشترى مكتبه القانونى فى ٩ يونيه ١٧٨٧ .
وهذا هو تاريخ انتقاله الرسمى الى باريس . وأنجب طفله الاول فى عام ١٧٨٨ . ولكن هذا الطفل مات فى ابريل ١٧٨٩ .

وفى ١٣ يوليه ١٧٨٩ كتب المحامى لافو أنه زار حى الكوردلييه الذى كان فيه مكتب دانتون . يقول لافو فى هذا الصدد : « رأيت زميلى دانتون الذى عرفته دائما رجلا صاحب منطق سليم وخلق رضى يتسم بالتواضع والصمت ولكن ما كان أشد عجبى أن أراه واقفا على مائدة يطلب من المواطنين أن يتسلحوا ليصدوا ١٥٠٠٠ قاطع طريق اجتمعوا فى مومارتر وجيشا من ٣٠٠٠٠ رجل احتشدوا للفتك بأهالى باريس ، وذهبت اليه لاستفسر منه عن سر هذه الضجة وكلمته عن الهدوء والأمن اللذين رأيتهما بفرساي فأجاب انى لم أفهم شيئا وان الشعب صاحب السيادة قد ثار على الطغيان وقال : انضمم الينا فالعرش قد هوى وأنت قد خسرت وظيفتك القديمة . لا تنس ذلك . وفى ١٦ يوليو ١٧٨٩ قاد دانتون مظاهرة من الكوردلييه الى الباستيل »

وكان دانتون بجسمه الرياضى وقدرته على الارتجال طاقة كبرى . وفى عريضة اتهام المدعى العام فوكييه تانفيل أثناء محاكمة دانتون جاء فيها أن دانتون هرب الى انجلترا . وفى عريضة اتهام سان جوست لدانتون انه كان فى انجلترا فى ١٧ يوليه ١٧٨٩ . وكان سفير فرنسا فى لندن يومئذ لالوسرن فكتب الى وزير خارجيته بفحوى حديث جرى بين آل دانتون فى لندن ودوق أورليان الذى كان مبعدا فى انجلترا آنذاك . ولعل الهدف من وراء هذا تذكير

دوق أورليان بأنه كان على غير علم منه يتصلن بعميلين لدولة أجنبية.
هما دانتون وباريه . وهذا وحده قمين بأن يعطينا صورة عن نحو
التشكيك في الوطنيين وطلاب الحرية الذي كان ثعالب الارستقراطية
يسعون الى نشره والترويج له . وبسبب الغموض الذي أحاط دائما
بنشاط دانتون الثوري والوطني تجده يزايد دائما بالكلام الملتهب
رغم ما بدا عليه من تواضع واتخاذ مواقف عملية ، وهو الأمر الذي
يذكرنا بالمرضين على التطرف الذين يطلقهم البوليس عمدا بين
الجماهير لتبرير اعتقال المثبات أو فض المظاهرات بالعنف على
أقل تقدير .

وبين ١٤ يوليو ١٧٨٩ ونهاية العام بنى دانتون لنفسه جهازا
سياسيا في حي لوكسمبورج حيث نادى الكوردلييه وجرائدهم
وأصبح رئيسا لنادى الكوردلييه . وفي ٣ أكتوبر ١٧٨٩ كتب شاهدا
عيان ليعرف دانتون عن فترة رياسته للنادى واصداره بيان يدين
فيه استدعاء فرقة الفلاندوز Flandres لتشتيت الجماهير
الباريسية وحماية فرساي Versailles وقد حدث أربع
محاولات لنزع رئاسة النادى منه وفشلت جميعا قبل نهاية العام .

وكان من أهم أعضاء نادى الكوردلييه فابر ديغلانتين
Fabre d'Eglantine الممثل السابق والشاعر المسرحى المتوسط
الموهبة ، والجزار ليجيندر Legendre ، والحفار سيرجان Sargent
والممثل كولوديربوا Collot-d'Herbois وسكرتير دانتون السابق
بيوفارين Billaud-Varenne ، وباريه Pare تابعه أينما
توجه ، ومانيويل Manuel الذى عوقب على كتاباته بالسجن ثلاثة
شهور فى الباستيل ، وشوميت Chaumette ، الخ . كل هؤلاء
انضموا الى مجموعة دانتون فى الكوردلييه . ومن الصحفيين انضم
من أصحاب الصحف كاميل ديمولاز Camille Desmoulins

وفيرون Freron ، الذين لازموا دانتون حتى المقصلة (أى لمدة ثلاث سنوات) .

وفي أكتوبر ١٧٨٩ . كانت محكمة الشاتلية Châtelet قد أصدرت أمرا بالقبض على مارا لمحاكمته فى تهم القذف السياسى التى كانت منسوبة اليه ، وكان مارا هاربا ومختفيا فى مونتمارتر . وفى أكتوبر انتقل مارا الى حى الكوردلييه .

فى ٢٢ يناير ١٧٩٠ أرسل لافاييت ٣٠٠٠ رجل من رجال الجرس الوطنى مع مدفعين للقبض على مارا فرفض نادى الكوردلييه تسليمه ، وكانت مواجهة سخيفة فى الشارع مع شرطين أرسلهما لافاييت بأمر القبض ، فقد أقنع دانتون الشرطين بأن الأمر قديم يرجع الى ١٠ أكتوبر ، ولا بد من الرجوع الى الجمعية الوطنية قبل تنفيذه . وأيدت الجمعية الوطنية أمر القبض ، فتظاهر دانتون بالرضوخ لقرار الجمعية الوطنية . ودعا الشرطين للتقدم لتنفيذ أمر القبض ، ولكن العصفور كان قد طار من القفص فى طريقه الى انجلترا . وفى ١٧ مارس ١٧٩٠ . أصدرت محكمة الشاتلية أمرا بالقبض على دانتون نفسه للتستر على مارا ولكن الأمر أهمل تنفيذه نظرا لأن كل النفوس كانت مستفزة . وهنا اشتد اقبال عمال السين على الانضمام الى عضوية نادى الكوردلييه لأنه كان أرخص اشتراكا من نادى اليعاقبة (الذى تقاضى ضرائب مباشرة قيمتها أجر ثلاثة أيام على الأقل) . ودخل دانتون نادى اليعاقبة دون ان يتخلي عن مسئوليته عن نادى الكوردلييه . وفى مايو ١٧٩٠ ألقى فيه أول خطاب مدون له . وكان اليعاقبة أعلى اشتراكا وأشد أناقة وأعظم احتراما وأكثر تأثيرا فى التشريعات من الكوردلييه .

وكان دانتون منذ اشترى مكتبه الخاص فى ١٧٨٧ قد تعود ان يوقع اسمه Danton من باب الانتساب الى النبلاء ولكنه

قرر فى ١٧٩٢ ان يوقع اسمه كما هو مدون فى سجل المعمودية .
وفى ١٧٨٧ كانت لديه ٢٢ قضية وتراجع أمام محكمة البلاط
كمستشار ملكى ما متوسطه ٢٠.٠٠٠ جنيه سنويا لدرجة انها
بدأت تؤثر فى أفكاره السياسية ، فيؤثر عنه قوله : « الويل لمن
يشعلون الثورات » ، وعرف عنه انه من رواد قهوة بروكوبيوسى
بشارع سان جيرمان .

يجب التوقف طويلا أمام الهزيمة الكاسحة لدانتون أمام بالى
حين انتخب بالى عمدة لباريس بأغلبية ١٢٢٥٠ صوتا لبالى مقابل
٤٩ صوتا لدانتون فحتى حى دانتون ، حى الاوديون ، تخطى عنه فى
انتخاب المدعى العام ونوابه ، اذ حصل مرشحو بالى على ٣٤٥٢ و
٢٩٦١ و ٢٣٣٢ صوتا بينما حصل مرشحو دانتون على
١٢٩ و ١٩٣ و ١٩٧ صوتا ، أى أقل من نصف أصوات حى
الاوديون . بل وأسوأ من ذلك . ففى سبتمبر ١٧٩٠ اختاره قسمه
ليكون أحد ثلاثة ممثلين عنه فى مجلس البلدية ، وكان دانتون الوحيد
بين ١٤٤ عضو مجلس لم تتم الموافقة عليه من ٤٨ قسما من
أقسام باريس ، بالرغم من ان الموافقة كانت تجرى فى العادة
استكمالا للشكل ولكنها فى هذه الحالة لم تتم . فهل كان دانتون
سييء السمعة على المستوى السياسى ؟

أقل ما يقال فيه على المستوى السياسى انه كان رجلا غامض
الولاء ، يقيم مستقبله السياسى على « المصالحات » ويحتفظ بكثير من
حياله السياسية موصولة فى « الخفاء » .

كان رد فعل دانتون لهرب الملك فى ٢١ يونيو ١٧٩٢ عنيفا
لا ضد الملك ولكن ضد لافاييت . وكان اليعاقبة أشد حذرا واعتدالا
من الكوردلييه . فى اتخاذ قرار بالنسبة لمستقبل الملكية . وكانت
لخطب دانتون فى نادى اليعاقبة جمهور مختلط من اليعاقبة

والكوردلييه ، وكان يندد فيها بالخائفين على التوقيع ، فخرج أكثر
المجتمعين وأسسوا ناديا مستقلا . وفى ١٦ يوليو ١٧٩١ يقرأ
عريضة اليعاقبة الى الجمعية الوطنية على الجماهير بعد ان أبلغ
روبسبير وبتيون فى اليوم السابق (١٥ يوليو ١٧٩١) برأى
اليعاقبة فى الموقف السياسى ، وهو انه بما ان الجمعية الوطنية قد
أعادت الملك الى عرشه فالعريضة أصبحت غير ذات موضوع . وفى
١٦ يوليو ١٧٩١ أضاف شخص ما الى العريضة فى الشأن دى مارس
طلب استبدال لويس السادس عشر بالوسائل الدستورية . وكان
معنى ذلك اعلان الوصاية على العرش فى نظام يجعل من دوق
أورليان وصيا على الملك الطفل لويس السابع عشر وأصر اليعاقبة
على اعادة العبارة المضافة وفى ١٧ يوليو بعد الظهر وصل سرجان
Sergent ، وكان رئيس قسم الأوديون حيث منزل دانتون ،
فوجد معه ديمولان وفريرون وبرون Brune وفاير ديجلانتيين ومورو
Moreau وسانتير Santerre أى هيئة أركان الكوردلييه .
وفوجئ المجتمعون بوصول ليجاندر Legender برسالة غير مباشرة
من الكساندر دى لاميت Alexandre de Lameth ان يتركوا
باريس . وترك دانتون وديمولان وفريرون فورا شقة دانتون الى
بيت كان يملكه صهر دانتون فى الريف القريب . وفى هذه
الثناء تجمعت الجماهير فى الشأن دى مارس وقيل لها ان اليعاقبة
قد سحبوا عريضتهم . وبعد أيام صدر الأمر بالقبض على سرجان
ومورو وسانتير وهير وشوميت ثم على ديمولان وبرون عقب
مذبحة شان دى مارس وتركت السلطات دانتون لحاله ، حتى
استصدروا أمرا بالقبض عليه بتهمة سب لافاييت وقيادات الحرس
الوطنى باعتبار انها خدعت الجماهير ليلة فرار الملك .

وهذه نقطة سوداء فى تاريخ دانتون : انه يفسر الى الريف
ولا يتدخل ليقاف مذبحة شان دى مارس . ولا شك ان روبسبير

كان يعرف بكل هذه المآخذ على سلوك دانتون السياسى ومع هذا استمر فى التعاون معه لغاية محاكمته فى ١٧٩٤ . الاجابة على هذا اللغز تكمن فى تقديرى فى موقف اليعاقبة المعتدل من النظام الملكى وعدم استعدادهم للخروج على الشرعية الدستورية . والمنطق هنا بسيط : قبل أن تخرج القذى من عين صاحبك أخرج الخشبة من عينك أولا .

وكذلك فدانتون بسلوكه السياسى الغامض الذى جعل منه وزيرا للعدل برغم ماضيه المشوب كمستشار ملكى يترافع أمام محكمة البلاط فى قضايا النبلاء ، مكنه من اقامة الروابط الخفية مع الجيرونديين ، أعداء اليعاقبة الالقاء مع المحافظة على جسوره مع اليعاقبة ، وهو مسئول أيضا عن شيوع الاتهام الخطير له بأنه كان عينا للبلاط على اليعاقبة وعينا لليعاقبة على البلاط . فهو اذن النموذج الكامل « للعميل المزدوج » .

وهنا لابد من الاجابة على هذا السؤال : كيف اتيح لدانتون ان يدفع ثمن المكتب الذى اشتراه فى باريس عام ١٧٨٧ ، وصفاه فى أغسطس فى عام ١٧٩١ ، أى قبل مرور أربع سنوات من انشائه ؟ ان عدد القضايا التى وجدها فريبورج فى تلك الفترة الوجيزة من عمر المكتب ٢٢ قضية فقط قدر كورتوا ، Courtois وهو صديق دانتون قيمتها بمبلغ ١٢ مليون جنيه فرنسى ، وهذا تقدير مبالغ فيه كثيرا . قال كافانيك Cavaignac ، وهو ابن أحد زملاء دانتون فى المؤتمر الوطنى للويس بلان Louis Blanc مؤرخ الثورة الفرنسية ، فى مادية عشاء ، وكان فى حالة سكر بين على لسان دانتون : « أن الوقت قد حان ليستمتع الشوار بالدور الفخمة وبالطعام الشهى والملابس الفاخرة ونساء أحلامهم » ، لأن الثورة معركة وغنائمها يجب ان تثول الى المنتصرين . ولما اعترض

الحاضرون على كلامه أكد لهم دانتون ان في استطاعته ان يلعب دور
الصان كيلوت مثل أى شخص آخر .

وقد ذكرت مدام رولان ان دانتون اعترف لهما بأنه يملك
٥٠٠ مليون جنيه فرنسي . ولكن بريسو Brissot كان أكثر تحديدا
حين ذكر انه رأى ايصالا من دانتون لمونموران Montmorin
وزير الخارجية ، بمبلغ ٣٠٠٠٠٠ جنيه فرنسي حتى مايو ١٧٩١ .
وهذا المبلغ تكرر في مذكرات مولفيل Moleville ، وزير البحرية،
التي نشرت لأول مرة بالانجليزية عام ١٧٩٧ ، فقد ذكر مولفيل ان
تالون Talon وهو أحد عملاء البلاط في توزيع المصروفات
السرية ، دفع لدانتون مبلغا يتجاوز ٣٠٠٠٠٠ جنيه فرنسي مقابل
خدماته في نادي اليعاقبة . وفي نهاية ١٧٩٢ زعم مولفيل انه يملك
دليلا خطيا على تقاضى دانتون أموالا سرية من البلاط وهدد بافشاها
اذا صوت - دانتون في جانب اعدام الملك . ولكن هذا التهديد
لم يؤثر في اتجاه دانتون في التصويت .

ورتب فابر ديجلاننتين وبريسو اختيار دانتون وزيرا للعدل
فحلف اليمين في ١١ أغسطس ١٧٩١ ، ودل هذا على قيام بعض
الحبال الموصولة بين نادي الكوردلييه وجماعة الجيرونديين ، في وقت
كان هؤلاء أعداء صرحاء لروبسبير ولليعاقة : فاز بأغلبية ٢٢٢
نائبا من ٢٨٤ نائبا كانوا لا يزالون يملكون الشجاعة لحضور
جلسات الجمعية التشريعية . وفي رواية ان فابر ديجلاننتين ايقظه
ذات صباح ليبلغه بنبا اختياره وزيرا في الوزارة الجديدة ، وفي
ذات الوقت طلب لنفسه منصب سكرتير عام الوزارة فقسم دانتون
المنصب الى منصبتين ، أعطى احدهما لفابر ديجلاننتين والآخر
لديمولان . وكان دانتون شديد السخاء مع أصدقائه واتباعه .
ومما يذكر عن آثار هذا ان فابر ديجلاننتين احتفظ لنفسه بعقد
توريد أحذية للجيش .

وقد كانت مدام رولان Madame Roland زوجة وزير الداخلية تحلم باقامة جمهورية رومانية فى فرنسا ، ولكن طباع دانتون لم تكن بالضبط شيثرونية ، فاتهمته بأنه يرسل حثالة المفتشين للتفتيش على الجبهة الداخلية ، ولكنها امتدحت اخلاصه للحرية واقباله على التعاون مع الجيرونديين . غير انها وجدت فى « حيويته دلالة القوة الشهوانية الحيوانية واجترأ لا نظير له يخفى دانتون نصفه بادعاء المرح واصطناع الصراحة والطيبة » .

وبمجرد تقلده منصب وزير العدل بدا دانتون فى تسديد مديونية مكتبه القانونى قبل حلولها بعامين ، وتعهد بايقاف العنف الشعبى . ومع ذلك فدوره فى مذابح سبتمبر غامض ، وعبارته المشهورة ، المنقوشة على قاعدة تمثاله : « ان الناكوس الذى ستسمعونه يدق ليس مدعاة للانعاج ، انه اشارة للهجوم على أعداء الأمة » . ولكى نقهرهم يجب ان تكون لدينا الجرأة أيها السادة ، ومزيديا من الجرأة ، والجرأة دائما ، بالجرأة وحدها تنقذون فرنسا ! لا تدل على شيء ، أكثر من انتقاد وطنيته .

ومع ذلك فدانتون لم يستمر طويلا فى منصب « الوزير » فقد خلفه جارا Garat فى منصبه . فى ١١ أكتوبر ١٧٩٢ ، ولم يعرف كيف يعلق على هذا التغيير الا بقوله الساخر : « كل الناس تعرف ان رولان لم يكن وحده فى مكتبه ، أما أنا فكنت وحدى » . ولعله ندم على هذه السخرية المريرة ، فقد كان يعرف انه ليس له أعداء صرحاء ، بين جماعة الجيرونديين الا مدام رولان وزوجها اللذان كانا يعتقدان بصدق ان مارا وروبسيير ودانتون كانوا عصابة من الفوضويين المغموسين فى مذابح سبتمبر .

والمؤرخون مجمعون على ان صيف ١٧٩٢ كان من أهم الفترات فى تاريخ دانتون على المستوى الشخصى لأنه الصيف الذى عين فيه

وزيرا واستطاع فى أسابيع قليلة أن يسدد ثمن مكتبه القانونى ،
وبذلك يتحرر من عبء مديونيته . كذلك فهناك اجماع بين المؤرخين
على أن ١٧٩٣ كانت من أهم فترات حياته على المستوى السياسى ،
سياسة اللعب على الحبلين ، حبل الجيروندي وحبل حزب الجبل ،
بما أفقده اعتباره عند روبسبير واليعاقبة ، وقاده فى ربيع ١ٷ٩٤
أن يفقد رأسه على المقصلة .

ففى ٢٩ مارس ١٧٩٤ أعدم المؤتمر الوطنى هيبير وزعماء
الصان كيلوت وبذلك تحرر من ضغط جماهير باريس . ولكن
الجمعية أصدرت قرارا فى ١٩ مارس بمحاكمة فابر ديجلانتين
Fabre d'eglantine وشابو Chabot ، وباسير Basire
وديلونى Delaunay ، لتورطهم فى فضيحة تزوير مستندات
تصفية شركة الهند الشرقية . وكان السؤال الكبير هو : ماذا
سيفعل دانتون لانقاذ زملائه (أو شركائه ؟) وبعدها بأيام قليلة
(أى فى ٣١ مارس ١٧٩٤) ، قبض على دانتون وكاميل ديمولان
ودى لاكروا وفيليو . هذا هو الزعيم الذى كان دائما يعتقد انه
لا يمكن ان يمسه أحد .

واتهم دانتون بكل تهمة سياسية الا خراب الذمة .

اتهمه روبسبير بمناصرة ميرابو والملكيين الدستوريين ودوق
أورليان والجيروندي ، واتهمه بمعارضة اعدام الملك ، وكذلك اتهمه
بتهمتين ثابتتين من تهم الثورة المضادة ، وهما مساعدة ديموريز
على انقاذ الجيش البروسى والتآمر معه فى ربيع ١٧٩٣ على حل
المؤتمر الوطنى . وطفحت آثار الغيظ المكبوت أثناء المحاكمة :
وضحك دانتون عند ذكر كلمة (الفضيلة) قائلا انه ليست هناك
فضيلة أكبر من (الفضيلة) التى يريها لزوجته كل ليلة .

وقبل القبض عليه أشار عليه بعضهم بالهرب ولكنه علق

بقوله : « نحن لا نستطيع ان نحمل تراب الوطن على نعل حذاءنا » .
فلما قبض عليه وسئل على عادة المحاكم عن اسمه وعنوانه أجاب
في مرارة : « ان صوتي الذي طالما جلعجل دفاعا عن الشعب ..
لن يجد صعوبة في دحض مفتريات خصومي . فهل يجسر الجبناء
الذين يفتابونني ان يواجهوني بالاثهام ؟ فليسفروا عن وجوههم ،
ولسوف اكسوههم بالعار الذي يستحقونه بطبعهم . لقد قلت من
قبل ان مسكني سوف يكون عاجلا هو النسيان وعنواني هو
البائتيون (مقبرة الخالدين) ، وأنا هنا أكررها .. وهذا رأسي
ليجيب عن كل شيء .. ان الحياة أصبحت عبثا على ، وأنا أستقبل
الموت بصبر نافذ » .

١٩ - ماكسيميليان روبسبير (Maximilien Robespierre)

إذا كانت هناك شخصية من شخصيات الثورة الفرنسية تجسد تلك الثورة تجسيدا كاملا فهي شخصية روبسبير . كانت تجربة سيزر Sieyes مع الثورة أطول ولكنها كانت أقل عمقا ، وقد قضى روبسبير ١١ عاما بكلية لوى لوجراند أى لويس العظيم ، وهي كلية جزوتيه بباريس بموجب منحة دراسية طويلة وفي أثناء سنوات الدراسة في كلية لويس العظيم كانت له زمالات لا صداقات لأنه كان تلميذا مبتعدا . وكان من أبرز زملائه فريرون Freron وكاميل ديمولان Camille Desmoulins وكان انطوايا كثير التلثم ، وكان متأنيا في الخطابة ، دائم التنقيح لخطبه .

ثم عاد روبسبير الى أراس ، مسقط رأسه ، حيث اشتغل قاضيا جنائيا في الأبروشية ولكنه استقال من عمله عام ١٧٨٢ لأنه كان مطالبا بإصدار حكم بالاعدام .

● نشرت بجريدة الأهرام

بتاريخ ١٩٣٠/٦/٣٠ .

ولد روبسبير في أراس في ٦ مايو ١٧٥٨ وماتت أمه في ١٧٦٧ ، وهجر أبوه البيت في نفس السنة ، وكان لروبسبير يومئذ من العمر تسع سنوات ، فكأنه نشأ يتيماً أو شبه يتيم . وفي ١٧٧٠ التحق بكلية لويس العظيم بباريس ، وهو في الثانية عشرة من عمره بمنحة ضئيلة قدرها ٤٥٠ جنيها سنوياً .

واشترك في المسابقات الأدبية لغاية ١٧٨٥ ، وفي ١٧٨٩ كتب بياناً الى سكان الريف وانتخب في ١٧٨٩ عضواً في مجلس الطبقات من مدينة أراس ، وفي ١٧٩٢ عين في وظيفة المدعي العام لمحكمة باريس وأصدر « محامى الدستور » وفي سبتمبر من نفس العام انتخب نائباً عن باريس في المؤتمر الوطنى . وفي يوليو ١٧٩٢ انتخب عضواً في لجنة الانقاذ الوطنى منذ بداية عهد الارهاب وادت اتهاماته الى سقوط دانتون في ابريل ١ٷ٩٤ . وفي يونيو ١٧٩٤ اعتكف ستة أسابيع ، وفي ٢٦ يوليو ١٧٩٤ ألقى خطابه الأخير وكانت ادانته في اليوم التالى « ٢٧ يوليو ١٧٩٤ » . وفي ٢٨ يوليو أعدم على المقصلة ، وكان عمره ٣٦ سنة .

وفي الجمعية التأسيسية اكتسب روبسبير بالتدريج سمعة طيبة بين الالف ومائتى عضو بسبب دأبه على العمل وبسبب كثرة تنقيحه لخطبه . ولكن الصحافة لم تكن كريمة معه ، وكانت كثيراً ما تغفل ذكر اسمه أو تتعمد تحريفه لاجراجه وتجلى ذلك من عزلته السياسية ثم نزوعه الى الارهاب . وبعد شهر من الدأب والمثابرة بدأ النواب ينصتون اليه ، وكانت قوته فى دأبه على العمل وفي اخلاصه وفي طهارة يده . قال عنه ميرابو : « هذا الرجل سيصل بعيداً . انه يؤمن بما يقول » . وكان دائماً ينحاز للفقراء فيجمع الفقراء من حوله وكان روبسبير يؤمن بجان جاك روسو ايماناً أعمى بينما كان بقية أعضاء الجمعية التأسيسية يناورون ويبحثون عن الحلول الوسط ، أما الجماهير فكانت مفتونة به ولكنها كانت تخشاه

لأنه كان يعرف عنها وعن نقاط ضعفها التي ، يمكن استخدامها ضدها .

المهم انه عند حل الجمعية التأسيسية كانت شعبية روبسبير قد بلغت مداها في سبتمبر ١٧٩١ وسماه الناس رجل الساعة . وكان له وجه قطة أليفة أن غضبت تجلت تحتها ملامح النمر الكاسر . وكان هناك تناقض شديد بين مظهره ومخبره فبالرغم من انه كان زعيم الصان كيلوت الا انه كان دائما شديد العناية بهندامه وشعره الذي كان دائما يضع عليه البودرة رغم ان هذه الموضة الارستقراطية كانت قد انتهت . وكان دائما يلبس نظارات ملونة خضراء .

وبعد حل الجمعية التأسيسية في سبتمبر ١٧٩٢ زار روبسبير أراس ، فوجد مظاهرة في استقباله خارج المدينة حتى الارستقراط الذين لم يكونوا يحملون له ودا خاصا أضاءوا له قصورهم . ومدام رولان أرسلت اليه تحياتها بعد ان غادرت باريس وعادت الى الأرياف . وبعد موت ميرابو لم يكن هناك من يجادل في زعامته للشوار .

وقد مر روبسبير بأزمتين كبيرتين في حياته : الأولى كانت حين نشرت أجزاء من خطاب له عن موضوع القساوسة الذين تقرر إبعادهم لأنهم رفضوا أداء يمين الولاء لدستور الكنيسة المدني ، الذي استحدثته الثورة في حين كان روبسبير متحمسا للتشريع الثوري ، رغم انه كان يرى ما يراه روسو من ان الدين مهم لأنه لبنة هامة في بنيان المواطنة . والأزمة الثانية كانت وقوفه وحده معزولا في رفضه للحرب ضد القوات الأجنبية القادمة لاختماد الثورة، مما جعله يقف موقفا سلبيا في شتاء ١٧٩١ وصيف ١٧٩٢ . ولكنه صحح موقفه بذكاء بالمزايدة في الوطنية على بريسو Brissot ودعاة الحرب . وبدأت معالم الدكتاتورية تظهر في خطبه في مثل قوله le faut une volonte une أي « نحن بحاجة الى ارادة

وأخذه ، واخذه ، ، ولا سيما بعد اعدام الملك ، وخرج بنظرية
القائلة بأن أخطار الفوضى أقل ضررا من أخطار الأوليغاركية ، وأن
بنلامة الشعب تجب شكليات العدالة . وفي ٣ ديسمبر اعترض على
اقتراح الجيزوند بالزجوع الى الشعب أو الاستفتاء على اعدام الملك
« ٢٨ ديسمبر » لأنه يبلبل الخواطر ويشجع المعارضة . ثم جاء
اقتراحه في ٢٤ أبريل بتحديد الملكية لصالح الفقراء . كل هذه
كائنات اتجاهات عند روبسبير تدل انه كان ينفض عنه ليبراليتته
الأولى ويفكر في اقامة عهد الارهاب .

حتى هذه المرحلة كان روبسبير في المعارضة . وبازاحة
الجيزوند أصبح مطلق اليد في فرنسا . وبالنسبة لنواياه فقد كانت
صريحة وقد عبر عنها في تقرير ٥ فبراير ١٧٩٤ . تساهل
روبسبير : « ما هو هدفنا ؟ أن ننعم في هدوء بالحرية والمساواة
ونعهد العدالة الأبدية المنقوشة قوانينه ، لا على الرخام أو الحجر ،
بل في قلب كل رجل ، حتى العبد الذي ينسى ان له حقوقا
والطاغية الذي ينكر هذه الحقوق ، نريد اقامة نظام من الأشياء تغل
فيه كل العواطف الوضيعة والقاسية وتوقظ القوانين كل العواطف
السخية والكريمة ، ويصبح الطموح هو العمل في سبيل مجد
الوطن وخدمته ، بحيث لا تكون هناك امتيازات الا الامتيازات
المؤسسة على قاعدة المساواة . نظام يطبع فيه المواطن القاضى ويطبع
فيه القاضى الشعب ويطبع فيه الشعب حكم العدالة الذي تضمن فيه
البلاد ومجدها ، وتزداد كل نفس نبلا بالاشعاع المستمر للمشاعر
الجمهورية وبالحاجة الى تقدير شعب عظيم ، فيه تتجمل الحرية
بالفنون ، وتكون التجارة فيه مصدر الثراء وليس مجرد التكديس
البشع لثروات قليلة خاصة . نحن نريد أن نستعوض في بلادنا
بالأخلاق بدلا من الأنانية ، وبالأمانة بدلا من الأطماع ، وبالمبادئ
بدلا من التقاليد ، وبأداء الواجب بدلا من الجرى وراء الربح ،

وبالحقوق من الرذيلة بدلا من الخوف من الحظ العاثر . نريد أن
نطبع الكبرياء مكان الوقاحة والقلب الكبير مكان الغرور وحب
المجد مكان حب المال . نريد أن نحل ضحبة الخير محل الضحبة
الجميلة ، وأن نخل الجدارة محل القدرة على التأمر ، والعبقريّة محل
الذكاء اللماح والصدق محل ذراية اللسان ، والسعادة محل اللذة ،
وعظمة الانسانية محل ما يسمونه شعبا ودودا تاعضا ، ونحل محل
رذائل الملكية وحماقاتها فضائل الحكومة الجمهورية
ومعجزاتها . باختصار نحن نريد أن نحقق عهد الطبيعة لسبئي
الانتماء ونفى بعهد الفلسفة ونبرىء الذمم من حكم مرير في الجرائم
والطغيان عسى فرنسا التي كانت سيئة السمعة بسبب انتشار
العبودية فيها ، يسطع فيها الآن نور الحرية فيكشف ضياؤها مجد
سائر الشعوب الحرة في التاريخ ، وتصبح نموذجا للشعوب ، بل
وتصبح « بعبعا » يخيف الطغاة وتصبح العزاء المائل للمسحوقين
في الأرض . يجب أن تصبح فرنسا جوهرة الكون . وعسى أننا
ونحن نمهد لعملنا بدمنا أن نرى على الأقل الشعاع الأول للسعادة
الحميمة . ذلك هو أملنا وتلك هي غايتنا .

ومن يتأمل أسلوب هذا الكلام يجده أشبه شيء بأسلوب
الوعاظ الجزويت القائم على التوسع في استعمال المتناقضات اللفظية
والمعنوية ، وصدق من قال ان روبسبير كان يغزل خطبه على طريقة
شغل الابرّة اسوة بجمهوره من النساء .

وكيف يمكن أن يحقق كل هذه الأحلام ؟ بالديمقراطية المؤسّسة
على الفضائل العامة ، وهي أول ديمقراطية حقة رأها العالم : بحكومة
تثق في الطبيعة الخيرة لبنى الانسان : « الفضيلة التي بدونها يصبح
الارهاب كارثة ، والارهاب الذي بدونه تصبح الفضيلة عاجزة » .
الى أى مدى كان روبسبير نفسه قادرا على تحقيق ذلك ؟ كانت
حكومة الثورة تقوم على أربع مؤسسات هي المؤتمر الوطنى واللجان

وممثلى اللجان المفوضين ومحكمة الثورة . وفى المؤتمر الوطنى لم يكن روبسبير أكثر من الرئيس الخامس والعشرين ، فهو لم يكن قويا بحيث يستطيع ان يملأ ارادته أو ان يملأ سياسته ولكن وضعه فى لجنة الخلاص الوطنى جعل من الصعب معارضته ولاسيما كلما اندمجت معها لجنة الأمن العام كما حدث فى محكمة هيبير Hebert دانتون Danton فقد كان روبسبير المتحدث الرسمى للجنةين معا . كان كارنو Carnot وسان جوست Saint-Just وكوتون Couthon ويسوفارين Billaud Varenne كولوديربوا Collot-D'Herbois يثلون الجانب السياسى فى هذه اللجنة ، كما أثبت اعدام سيسيل رينو Cecile Renaut الفتاة التى اتهمت بمحاولة اغتيال روبسبير وجعلته ينتقل من شقته فى ١٧ يوليو ١٧٩١ ليقيم فى منزل دوبلاى Duplay فى حى سانت أتوريه . وكان لدوبلاى أربع بنات من الينور وصوفيا وفكتوريا واليزابيت ، وكلهن قائمات مع الأم على خدمة روبسبير . وجاء ذكر الزواج فاقترح أحد الحاضرين ان طول العزوبية قد جعل من روبسبير رجلا فظا واجدى به ان يتزوج بنتا من بنات دوبلاى ، فانتفض روبسبير غضبا وقال : « أنا لن أتزوج أبدا » أى Je Me ne mariérai jamais

ورغم ان روبسبير لم يكن قط دكتاتورا فمن العبث ان يقال انه كان يابى ان يكون كذلك . وفى ٧ مايو ١٧٩٤ كتب روبسبير تقريره المشهور الذى أدخل به عبارة « الكائن الاسمى » وسماه « تقرير عن العلاقة بين الدين والأفكار والمبادئ الجمهورية » وفيه يستعرض روبسبير التقدم من « حكم الجريمة الى حكم الفضيلة » قائلا : « لقد أنجزنا نصف برنامج الثورة العالمية : « ومن ذا الذى فوضكم ان تعلنوا للناس انه ليس هناك شئ الهى . . وماذا يستفيد الانسان لو اقتنع بأن قوة عمياء تسيطر على مقدراته ، وتضرب عشوائيا فى كل اتجاه : أنا بالفضيلة وأنا بالجريمة ؟ أو

أن روح الانسان مجرد بخار خفيف يتبدد عند فتحة القبر ؟ وهل فكرة تلاشى الانسان ستوحى له بأشياء أشد نقاء من فكرة خلوده ؟ هل ستزيد من احترامه لنفسه ولأخوته فى الانسانية أو تحفزهم الى ولاء أكبر لوطنه ؟ هل ستزيد من صلابته فى مواجهة الطغيان أو تعمق احتقاره للملذات أو للموت ؟ « حتى القول بوجود الله وخلود الروح ، ستكون أجمل ما ابتكره عقل الانسان .

وبهذا يكون روسو صادق الوعد نبيا . وهو يصرخ فينا : « أيها المتعصبون ! ليس لدينا ما نعطيكم لكم ! ان دعوة الناس من جديد الى عبادة الكائن الاسمى فيه الضربة القاضية للتعصب . وأمام العمل تتهاوى كل الحماقات فى نور الحقيقة . فبلا اكراه وبلا اضطهاد تندمج كل الطوائف فى ديانة الفضيلة ، ومع الطائفية ينتهى الكهنوت أيضا : فالطبيعة هى الكائن الاسمى ، ومعبدته هو الكون ، وعبادته هى الفضيلة ، وأعياده تتمثل فى السعادة التى يطفح بها شعب عظيم اجتمع تحت بصره ليجدد روابط الاخوة الشاملة الجميلة وليقدم فروض الولاء التى تكنها القلوب النقية الحساسة ، والخلاصة : يجب أن يعلن المؤتمر الوطنى : « ان الشعب الفرنسى يعترف بوجود الكائن الاسمى وبخلود الروح » . ويجيز ديانة مقامة من الدولة على هذا الأساس .

ولكن روبسبير تجاوز كل ذلك وبدأ يندد بالالحاد كلما تكلم عن دانتون وهيبير ، وتحول من كاهن أعلى الى رئيس لمحكمة التفتيش فى نظام بيوريتانى مغلق يكره الناس على الذهاب الى الكنيسة كل يوم أحد على طريقة المطوعين بل ما هو أقسى . وقد أوحى روبسبير باقتراب هاية فترة سلطته ففهم الناس أنه يتكلم عن مزيد من الاعدادات . وفى آخر خطاب له فى ٨ ثرميدور علم روبسبير ان حياته يهددها تحالف بين لجنة الأمن العامة ولجنة الخلاص الوطنى : يهددها فادييه Valieh واعداء رجال الدين ، ويهددها فوشينه

Fouchet الذي كان ضالعا في دعاية شوميت Chaumette
المناهضة للكاتوليكية ، ويهددها كارنو Carnot الذي تشاجر مع
سان جوست ، ويهددها ديربوا d'Herbois collot
وبيوفارين Billiaud varenne اللذان سبق ان فصلهما
رويسبير من نادى اليقابة ، ويهددها تاليان l'alien الذي كانت
عشيقتة مهددة بالموت على المقصلة ، ويهددها حزب يراسه بارا
Barras وميرلان Merlin وكورتوا Courtois من داخل
المؤتمر الوطنى .

وبالنصر الأخير فى فلوريس Fleurus زال كل خطر عن
البلاد ، فلم يعد هناك مجال لارهاب الناس . وتراجع رويسبير
وأنكر ان فى نيته اقامة حكم دكتاتورى فى فرنسا ، ولكنه أصر فى
الوقت نفسه على ضرورة تطهير لجنة الأمن العام ولجنة الخلاص
الوطنى . ونشط اعداء رويسبير فلم تمض ٢٤ ساعة الا وكان
رويسبير مقبوضا عليه . لقد كانت الكثرة الضاربة التى يعتمد
عليها رويسبير هى الحرس الوطنى بقيادة هنريو Henriot
ولكن هنريو كان يومئذ سكران ورجاله لم ينتظروه تحت المطر فى
ذلك اليوم عند الهوتيل دى فيل . وفجأة غزا جنود المؤتمر الوطنى
الهوتيل دى فيل وهنا اخرج رويسبير مسدسه وافرغه فى حلقه
ولكنه لم يمت بل بقى ممددا بين الموت والحياة على المائدة التى وقع
عليها الحكم باعدام هيبيرو دانتون ومن الساعة ١١ الى الساعة ٤ سجن
مع سجنائه فى الكونسير جرى . وفى الرابعة طافوا به فى الشوارع
على عاداتهم . وكان الجمهور الذى ينبغى ان يخف لنجدته يحملق
ويهتف ، وفى الساعة سقطت رأسه تحت الجيلوتين . وهذه قصة
رجل نظيف اليد عاش فقيرا ومات فقيرا . وهكذا كانت سمعة :
« الرجل الذى لا سبيل الى اقباده » . وكان به عيبان : انه كان
يحب الملق أو على الأقل أن يتحدث الناس عن فضائله .

الارهاب الأعظم بدأ بقانون ٢٢ بريريال - Prairial
في السنة الثانية من التقويم الجديد « ١٠ يونيو ١٧٩٤ » في أول
بريريال ٢٠ مايو ١٧٩٤ نظف كولو ديربوا Collet d'Herbois
سلاحاً انطلقت منه اعيرة نارية وفي ٤ بريريال « ٢٣ مايو » قبض
على سيسيل رينو Cicile Renault التي بدا أنها كانت تريد
اغتيال روبسبير . وأكدت سيسيل معاداتها للثورة وكشفت عن
استمرار الثورة المضادة وعن وجود « المؤامرة الاستقرائية » .
واستنهضت موجة ارهابية أقسام باريس . قال كوتون Couthon
ان الارهاب أصبح شيئاً بسيطاً وأعلن « ان الأمر لا يقف عند اعطاء
بعض الأمثلة ، ولكن يجب سحق اذنان الطغيان الذين لا يهدأون » .
وهكذا أصبحت المحاكمات شكلية .

ومن مارس ١٧٩٣ اعدم في باريس وحدها لغاية ٢٢ بريريال
(مايو) في السنة الثانية من التقويم الجديد وعلى الجيلوتين منذ
صدور قانون الارهاب الأعظم ١٣٧٦ و حتى ٩ ثرميدور (يولية)
أعدم في سجون باريس ١٢٥١ سجيناً « في بيستر Bicetre
ولكسمبورج Luxembourg وكارم Carnes وسان لازار San Lazare
وكانت الرؤوس تتهاوى كالاردواز كما قال فوكيه تانفيل
Fouquier-Tinville المدعى العام وقد بلغ عدد المقبوض عليهم نحو
١٠٠٠٠٠ ، وفي بعض التقديرات ٣٠٠٠٠٠ . وبلغ عدد من نفذ
فيهم حكم الاعدام بين ٣٥٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ ويشمل هذا العدد من
اعدموا دون محاكمة كما في طولون ونانت . ووفقاً لهذا التقدير بلغ
عدد المحكوم عليهم بالاعدام ١٦٥٩٤ من مارس الى سبتمبر ١٧٩٣
سجينا ، ومن أكتوبر ١٧٩٣ الى مايو ١٧٩٤ ، ١٠٨١٢ وفي يونيو
ويوليو ١٧٩٤ : ٢٥٥٤ ، وفي أغسطس ١٧٩٤ : ٨٦ حكماً بالاعدام .
أما التوزيع الاقليمي فهو كالآتي : في باريس ١٦٪ ، و ٧١٪
في منطقة الحرب الأهلية ، منها ١٩٪ في جنوب شرق فرنسا و ٥٢٪

فى غربها واما طبقيا فالتوزيع كالاتى : ٨٤٪ من الطبقة الثالثة « البورجوازيون ٢٥٪ ، الفلاحون ٢٨٪ ، الصان كيلوت ٣١٪ » ، ويلاحظ ان نسبة النبلاء الذين اعدموا لم تتجاوز ٨٥٪ اما رجال الدين فالنسبة هى ٦٥٪ .

« المساواة فى الملكية وهم باطل » هكذا قال روبسبير فى المؤتمر الوطنى فى ٢٤ ابريل ١٧٩٣ « وقد ادان « القانون الزراعى » الاشتراكية فى الملكية الزراعية . وقبل ذلك اصدر المؤتمر الوطنى قانون فى ١٨ مارس ١٧٩٧ يقضى باعدام كل من يدعو الى الاشتراكية والفضاء على الملكية الزراعية . ولكن روبسبير وحزب الجبل بوجه عام كانوا ضد الثراء الفاحش باعتباره مصدر الجرائم .

وفى تصورى ان مأساة روبسبير نبعت من انه تصور انه نبى وانه يكفى ان يبدل الاسماء التى استقرت فى الوجدان العام حتى يصدق الناس انه اتى بجديد ، وهو لم يأت بجديد . فتاريخ الأديان الراقية منذ الفراعنة يثبت ان المقولات الأساسية لن تتغير بل لعلها اشدت رسوخا مع الأيام . فما يسميه روبسبير بالكائن الاسمى هو ما يسميه رجل الشارع « الله » وقد زعمت عبادة « الكائن الاسمى » اعطاء قاعدة ميتافيزيقية لخطب روبسبير الذى كان يمقت الفلاسفة الملاحدة من أمثال هلثيوس Helseius الذى حطم روبسبير تمثاله النصفى فى نادى اليعاقبة وكان يمقت مادية كوندراك وكان عاجزا عن تصور المقولات الدينية عن طريق الحواس لأنه كان يؤمن بوجود الله وبوجود الروح وبالعالم الآخر .

وفى ١٨ فلوريال من السنة الثانية من التقويم الثورى قرر المؤتمر الوطنى « ان الشعب الفرنسى يؤمن بوجود الكائن الاسمى وبخلود الروح » وتحدد يوم ٢٠ بريريال من السنة الثانية من التقويم الثورى « ٨ يونيو ١٧٩٤ » للاحتفال بهذه المناسبة وسار الموكب المهيّب من حدائق التويلرى الى الشان دى مارس على انغام

هو سيقى مهيبه . ولكن ذلك سبب صدعا فى حكومة الثورة لأن العلمانيين لم يغتفروا لروبسبير قانون ١٨ فلوريال من السنة الثانية من تقويم الثورة ، وكان بالطبع أكثرهم عداوة له دعاة اقتلاع المسيحية فى فرنسا .

وفى ٨ ثروميدور « ٢٦ يوليو ١٧٩٤ » هاجم روبسبير فى المؤتمر الوطنى أعداءه وحملهم المسئولية ووصفهم بأنهم منفقون ولكنهم فى حقيقة الأمر متشددون . غير أنه رفض ذكر أسماء أشخاص بالذات ، وفى المساء كان روبسبير يصفقون له فى نادى اليعاقة ، وكانت اللجنة قد انفرط عقدها وهى فى حيرة من أمرها . وكانت المؤامرة قد حيكت خيوطها أثناء الليل . وفى ١٠ ثروميدور « ٢٨ يوليو ١٧٩٤ » قبض على روبسبير وسان جوست وكوتون و ١٩ من أنصارهم وأعدموا دون محاكمة ، وفى اليوم التالى أعدم ٧١ آخرون من أنصارهم وهى أكبر دفعة سيقى إلى الجيلوتين فى منطقة واحدة . وانتهى هنريو Hanrio قومندان الحرس الوطنى وعلى ديماس رئيس محكمة الثورة وبين ١٨ ثروميدور و ٢٣ ثروميدور أفرج عن نحو ٥٠٠ معتقل من المشبوهين .

أطلق أعداء روبسبير عليه نائبا مغمورا اسمه لوتشيه طالب بأعدامه وأقر الاقتراح بأجماع الآراء .

عجيب أمر هؤلاء الثوار ، فالتقويم الثورى من وضع فابر ديجلنتين وهو من مواليد كاركاسون على الحدود الفرنسية الإسبانية عام ١٧٥٠ وفى ١٧٧١ دخل فى مسابقات فى تولوز ثم بدأ السفر مع الفرق المسرحية بين ١٧٧٢ و ١٧٨٧ وفى ١٧٨٧ استقر فى باريس . وكان يمثل دور فيلانت لموليير عام ١٧٩٠ وفى ١٧٩٢ اشتغل سكرتيرا لدانتون أيام ان عين وزيرا للمعدل . وعين عضوا فى لجنة الخلاص الوطنى حتى ١٧٩٣ ثم أعدم فى ١٧٩٤ مع دانتون وعمره ٤٤ سنة لاشتراكه فى تزوير صكوك شركة الهند بعدما وضع التقويم الجمهورى وقدمه للمؤتمر الوطنى ونجح فى إجازته .

واقترح على المؤتمر الوطنى الغاء التقويم المسيحى ، فكل شهر فى التقويم الثورى مكون من ٣٠ يوما تبدأ فى ٢٢ سبتمبر وهكذا تبدأ السنة فى : ٢٢ سبتمبر شهر التخمر وأصبح اسمه فاندميير Vendemiaire ، ٢٢ أكتوبر شهر الضباب وأصبح اسمه برومير Brumaire ، ٢٢ نوفمبر شهر الصقيع وأصبح اسمه فريمير Frimaire ، ٢٢ ديسمبر شهر الثلوج وأصبح اسمه نيفوز Nivose ، ٢٢ يناير شهر المطر وأصبح اسمه بلوفيز Pluviose ، ٢٢ فبراير شهر الرياح وأصبح اسمه فنتوز Ventose ، ٢٢ مارس شهر البراعم وأصبح اسمه جيرمينال Germinal ، ٢٢ أبريل شهر الزهور وأصبح اسمه فلوريال Floreal ، ٢٢ مايو شهر المراعى وأصبح اسمه بريريال Prairial ، ٢٢ يونيو شهر المحصول وأصبح اسمه مسيدور Messidor ، ٢٢ يوليو شهر الحرارة وأصبح اسمه ثرميدور Thermidor ، ٢٢ أغسطس شهر الفاكهة وأصبح اسمه فروكيتدور Fructidor .

وأقر المؤتمر هذا التقويم فى ٥ أكتوبر ١٧٩٣ وكان القصد من ذلك الغاء التقويم المسيحى .

ومع ذلك فلم تمض الا أربعة شهور الا وكان فابر ديجلاننتين مقبوضا عليه ومتهما بتهمة مشينة هى التزوير فى صكوك شركة الهند المزمع تصفيتها وبهذا أصبح طريقه الى المقصلة واضحا ووجيزا ورغم هول قانون فابر ديجلاننتين من وجهة نظر روبسبير الذى لا بد وانه ازدرده كالعقم لأنه ينطوى على حرب العقائد بين مختلف أجنحة الثورة الفرنسية لم نسمع أحدا يقول : الغوا التقويم الكافر أولا ثم تعالوا بعد ذلك نتحاسب : لأن القانون هو القانون : وفابر ديجلاننتين لاشك كانت معه أغلبية فى المؤتمر الوطنى حتى فاز قانونه « المدنى » بالأغلبية الملزمة . وبالفعل مضى على اصدار هذا القانون عشرة أعوام حتى أعيد فتح ملفه وأعيد النظر فيه . أجل ان لهم عقلية تختلف عنا كل الاختلاف : فهى عقلية قانونية عملية .

فهرس

الموضوع	صفحة
تصدير	٣
١ - سقوط الباستيل	٥
٢ - الباستيل	١٧
٣ - مجلس الطبقات	٢٩
٤ - ميرابو	٤٣
٥ - النظام الاقطاعي	٥٥
٦ - ثورة الفلاحين	٦٧
٧ - زواج فيجارو أو حق الليلة الأولى	٧٩
٨ - اعلان حقوق الانسان والمواطن	٩١
٩ - الملكة رهينة	١٠٧
١٠ - عيد الاخاء الفيدرالى	١١٩
١١ - لافاييت المركيز المذبذب	١٣١
١٢ - فارين : هروب الملك واعدامه	١٤٥
١٣ - الاصرار	١٥٩
١٤ - الحرب والحرب الأهلية	١٧٣
١٥ - لويس السادس عشر	١٨٥
١٦ - مارى أنطوانيت	١٩٥
١٧ - جان بول مارا	٢٠٩
١٨ - جورج دانتون	٢٢٣
١٩ - ماكسميليان رويسبير	٢٣٥
	٢٤٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩١/٩٨١٨

ISBN - 977 - - 01 --- 2927 --- 5

لقد شاء لويس عوض قبل أن تسقط أوراق عمره أن يودعنا بهذا الكتاب الرائع الذى بين أيدينا عن الثورة الفرنسية . وهو كتاب إن دل على شيء فإنما يدل على أن صاحبه ليس أديبا أو ناقدًا بارزًا فحسب ولكنه مؤرخ أيضا من طراز فريد . والذى لا شك فيه أن لويس عوض واحد من أهم رواد التنوير فى العالم العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين .

عاش لويس عوض أديب مصر الكبير ومات ثائرا فما أشبه الليلة بالبارحة . بدأ حياته بالترجمة عن سيد الثوار الرومانسيين جميعا برسى شيلى صاحب التحفة الأدبية المعروفة « برومئوس طليقا » وها هو يختمها بالكتابة عن الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ، بمناسبة ذكرى مرور مائتى عام على قيامها واحتفال فرنسا بهذه الذكرى العزيزة عليها .

والجدير بالذكر أن آخر عبارة سطرها الراحل العظيم قبل وفاته كانت دفاعا مخلصا وشريفا عن ضرورة سيادة القانون والعدل فى كل مكان .